تُراث

torathehc

تراثية ثقافية منوعة تصدر عن نادي تراث الإمارات العدد 282 إبريل 2023

2023 عام الاستدامة في الإمارات

الإذاعة في الإمارات
من المحاولات الفردية إلى الإذاعات الرسمية

دار المخطوطات الإسلامية بالجامعة القاسمية

«رمضان زمان»
بعيون الرحالة العرب والأجانب

الذكاء الاصطناعي والاستدامة

ناصر الظاهري:
«العين» مدينة الموروث والاستقرار.. والرزق الدَّائم

نادي تراث الإمارات
ينظم مهرجان السمحة التراثي الثاني عشر

الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان في مصانع «النصر للسيارات» عام 1971

2023 عام الاستدامة في الإمارات

في خطوة تاريخية، تجلت في تعهد دولة الإمارات العربية المتحدة بأن تنتقل بالعالم إلى مسار مستدام ومرن، أعلن صاحب السمو الشيخ محمد بن زايد آل نهيان، رئيس الدولة - حفظه الله - 2023 «عام الاستدامة»، تحت شعار «اليوم للغد»، وجاء ذلك في ختام فعاليات أسبوع أبوظبي للاستدامة، وهو حدث سنوي عالمي تنظمه الدولة منذ عام 2008، تعقد فيه سلسلة من الحوارات البنّاءة التي من شأنها أن تسهم في تحقيق الحياد المناخي في المستقبل وتسريع وتيرة التنمية المستدامة. ولا تغفل الإمارات في هذا السياق المستدام العمل على استدامة التراث الإماراتي فمن المؤكد أن يكون هناك فعاليات ومؤتمرات تخدم هذا المجال، فالنماء الثقافي والاجتماعي ومؤثراته وتفاعله في المحافظة على الموروث المتعدد في جوانبه عامل مهم في مسيرة التنمية المستدامة لا يمكن تجاهله أبداً. كما لا بد أن نؤكد على حقيقة جوهر استدامة التراث المتمثلة في أن تحولات الموروث الثقافي الجميل معتنى به ومحافظ عليه في سجل الفكر والأدب وترجمة معانيه في عقول النشء، فالموروث هكذا يستديم في حياة الأجيال بالمعنى الكبير. فقد سبقت دولة الإمارات العربية المتحدة الدول بالمحافظة على مكوناتها وموروثها الثقافي، وسجلت كثيراً منه في التراث العالمي، وما زال هناك ما تعمل عليه الدولة في ترجمة الخصوصية التاريخية كمنجز ثقافي بمنصة التعريفات الثقافية العالمية. ومؤخراً احتل مفهوم التراث الثقافي في دولة الإمارات أجندة الاجتماعات الخاصة في مجال التنمية، كما تصدرت خطابات فكرية معاصرة تسعى للحفاظ على التراث وتوظيفه في التنمية المستدامة، ما سيعمل على زيادة تقدير التراث الطبيعي وتسليط الضوء على دور السياحة في الحفاظ على هوية المجتمعات وضمان استمرارية التقاليد والأنشطة الثقافية التراثية التي تدخل في إطار التعبير الثقافي، الموسيقى والفن والرقص الشعبي وغيرها.

ومما لا شك فيه أن هذا العام سيكون عاماً جميلاً، عبر المبادرات والفعاليات التي سيتم تنظيمها على مختلف المستويات؛ لنشر الوعي حول قضايا الاستدامة، وسيحمل من فضاءات تلامس الحياة بكل تجلياتها وقضاياها التي تمس الماضي والحاضر والمستقبل. ومن المؤكد تماماً أن يسجل التاريخ اهتمام أبناء الإمارات بالحفاظ على موروثهم دون تهاون أو تقصير؛ فهم لا يعتبرونه إرثاً أو هدية نمررها من جيل إلى جيل، بل هو مسؤولية الجميع من أجل ضمان استدامة الثقافة وصون كنوز التراث.

وفي هذا العدد من مجلة تراث أردنا أن نسلط الضوء على السياسات والحلول الذكية لتحقيق تراث إماراتي مستدام، وذلك من خلال دعوة الكتاب والباحثين والمتخصصين للمساهمة في هذا الملف، متمنين أن نقدم صورة واضحة عن هذا التراث الغني، وكلنا أمل بأن تستمتعوا بموضوعات العدد المتنوعة.

شمسة الظاهري
رئيس التحرير

نادي تراث الإمارات
السلسلة التراثية الثقافية
مركز زايد للدراسات والبحوث

torathehc www.torath.ae

70
وجهة سفر

مدينة سوسة التونسية عبر الزمان والمكان

تعد مدينة سوسة أحد مواقع التراث العالمي لليونسكو فهي واحدة من أفضل الأمثلة المحفوظة لمدينة عربية إسلامية في العالم، والمرجّح أنه اسم (سوسة) من أصل أمازيغي حيث أنّ عدَّة أماكن بشمال أفريقيا تحمل نفس الاسم مثل سوس بالمغرب أو سوسة بليبيا. وبقيت سوسة متميّزة عبر العصور وهي في الوقت الحاضر مركز إداري وصناعي وتجاري وسياحي وثقافي نشيط لها مكانة متميزة على الصعيدين الداخلي والخارجي ... ضياء الدين الحفناوي

86
أدب ونقد

لعبة الظل في قصص باسمة يونس

رغم معرفتنا المسبقة بأن الظل مقترن بوجود صاحبه منذ مجيئه الأول ومرافق له في حله وترحاله إلا أن انتباه بطلة قصة باسمة يونس على وجود ظلها بجانبها يأتي بعد بلوغها سن الشباب وفي أعقاب نضج معرفي يهمس لها في بداية القصة بالتوحد مع قلمها وأوراقها، بينما تهمس هي بالرغبة في الانزواء والعزلة بعيداً عن كل العيون، وحين تخلو بياض ورقها لتبوح تلحظ ظلها بن السطور وكأنه يداهمها لأول مرة ... أحمد حسين حميدان

80

96

116

90
سرد الذاكرة

ذكريات زمن البدايات: المجمع الثقافي

أهم الأحداث التي مرت بذلك المجمع كان في عام 1981، فقد تم في ذلك العام إقامة المعرض الأول للكتاب في أبوظبي، وقد سمي ذلك المعرض «معرض الكتاب الإسلامي». كان الحدث تتويجاً للجهود المبذولة من القيادة والمؤسسات التي لها صلة بنشر الثقافة، وتوفير مصادر المعلومات إذ كان الكتاب أو الكلمة المطبوعة يشكل المصدر الأول والأهم. ولم تكن ثورة المعلومات المتمثلة في الإنترنت قد وصلت إلينا، ولا وصلت إلى ما وصلت إليه ... خليل عيلبوني

92
دراسات إماراتية

الإذاعة في الإمارات من المحاولات الفردية إلى الإذاعات الرسمية

رغم كل التحديات التي تواجهها الإذاعة، فإنّ تأثيرها ما زال قوياً وتشدّ الكثير من الناس وتعتبرُ رفيقتهم في أوقات تنقلهم عبر السيارات ووسائل النقل العمومية، وما زال الملايين من البشر يستمعون للموسيقى والأخبار عبر الراديو. وفي عام 2016 كشفت إحصاءات «اليونسكو» عن تجاوز عدد مستمعي الإذاعة عدد مشاهدي التلفزيون ومستخدمي الهواتف الذكية، فهناك أكثر من 800 محطة إذاعية في البلدان النامية بينما نصف سكان العالم تقريباً (3.9 مليارات شخص) لا يزالون غير قادرين على الاتصال بشبكة الإنترنت ...علي عبيد الهاملي

تراث الشهر

8 نادي تراث الإمارات ينظم مهرجان السمحة التراثي الثاني عشر

68 باب العزلة - عبدالفتاح صبري

74 بالرفـق يا بن آدم - راشد بن محمد بن عبلان الكتبي

75 «رمضان زمان» بعيون الرحالة العرب والأجانب - محمد عبد العزيز السقا

80 جولة حاكم أبوظبي الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان في مصانع «النصر للسيارات» في مصر عام 1971 - موزة عويص علي الدرعي

96 الأرشيف الوطني الهندي في نيودلهي وبومبي وموجوداته من وثائق الخليج والجزيرة العربية - فاطمة مسعود المنصوري

100 دار المخطوطات الإسلامية بالجامعة القاسمية في إمارة الشارقة صرحاً شامخاً في عالم المخطوطات - أسماء يوسف الكندي

103 بِيْدار اللَّهْجَةِ الإماراتيّة فيما طابق الفصيح (4) - محمد فاتح زغل

104 ازدهار الموسيقى في العصر العباسي - نورة صابر المزروعي

106 الشاعر غازي مختار طليمات أحد رموز المسرح الشعري في سوريا 1935 - 2020 - هيثم يحيى الخواجة

110 عمر عبد العزيز: من موسوعية المعارف إلى خدمة الثقافة والأفكار - حاوره: هشام أزكيض

112 علي أبو الريش يوثق صراعات الإنسان الأزلية من أجل البقاء - نشوة أحمد

114 منيا القمح.. تاريخ حافل يمتد لعصور مصر القديمة - عبدالعليم حريص

116 الفصول والمواسم عند العرب - إبراهيم الجروان

120 ديوان بن حويرب للشاعر حمد بن بخيت بن حويرب المنصوري «سلسلة نماذج مختارة من إصدارات مركز زايد للدراسات والبحوث» - موزة عويص علي الدرعي

124 نجم القصيدة الشعبية الشاعر كميدش بن نعمان الكعبي - مريم النقبي

130 أميرة الشعراء تتألق - فاطمة حمد المزروعي

أسعار البيع

الإمارات العربية المتحدة: 10 دراهم - المملكة العربية السعودية 10 ريالات - الكويت دينار واحد - سلطنة عمان 800 بيسة - مملكة البحرين دينار واحد - اليمن 200 ريال - مصر 5 جنيهات - السودان 250 جنيهاً - لبنان 5000 ليرة - سورية 100 ليرة - المملكة الأردنية الهاشمية ديناران - العراق 2500 دينار - فلسطين ديناران - المملكة المغربية 20 درهماً - الجماهيرية الليبية 4 دنانير - الجمهورية التونسية ديناران - بريطانيا 3 جنيهات - سويسرا 7 فرنكات - دول الاتحاد الأوروبي 4 يورو - الولايات المتحدة الأمريكية وكندا 5 دولارات.

ما ورد في هذا العدد يعبر عن آراء الكتاب ولا يعكس بالضرورة آراء هيئة التحرير أو نادي تراث الإمارات

118 خواطر في النغم

في النغم، ما فقد رمضان وما حوى

فليغُص القارئ الكريم في فكره ليتذكّر النصّ النغميّ لصلاة العيد، أو تسبيح المسحّر إيذاناً بقرب أذان الفجر وبدئ الصيام. من هنا يأتي الحديث عن رمضان، فهو أطول موسمٍ دينيّ في الإسلام، يشمل كافّة ديار الأمّة، فلا يلتزم مكاناً بعينه، مثل الحجّ مثلاً. بقيت في الذاكرة الشعبيّة بعض الألحان الرمضانيّة الّتي دارت على ألسن الناس. فمن لا يذكر «لولا الحبايب لم جينا» و«اعطونا العادة» و«وحوي يا وحوي» و«هلّ هلالك» وغيرها من الألحان الّتي تحفظها الذاكرة الشعبيّة عند سائر شعوب الأمّة الإسلاميّة؟...

مصطفى سعيد

126 حوار خاص

ناصر الظاهري: «العين» مدينة الموروث والاستقرار الدَّائم

في هذا الحوار يتحدث ناصر الظاهري عن قضايا كثيرة، يتداخل فيها الذاتي بالموضوعي، والمكاني بالزماني، والشعبي بالمؤسساتي، والثقافي الماضوي بالمنجز المدني الآني، مع تركيز خاص عن مدينة «العين»، وما تحمله من «سِيَر الماء والنخل والأهل»، مُسبقاً عنها ومُلحقاً بها «سيرة الشيخ زايد ودوره» في نهضة الإمارات كلها، ومنتهياً بالحديث عن فيله الأخير «حجر الرحى»، وأيضاً عن هموم السينما في الإمارات...».... الفاضل أبوعاقلة

الاشتراكات

للأفراد داخل دولة الإمارات: 150 درهماً / للأفراد من خارج الدولة: 200 دولار - للمؤسسات داخل الدولة: 150 درهماً / للمؤسسات خارج الدولة 200 دولار.

ترائية ثقافية منوعة

تصدر عن:

مركز زايد للدراسات والبحوث - نادي تراث الإمارات، أبوظبي

نَادِي تُرَاثِ الإِمَارَاتِ

رئيس التحرير

شمسة حمد العبد الظاهري

الإشراف العام

فاطمة مسعود المنصوري

موزة عويص علي الدرعي

الإخراج والتنفيذ

غادة حجاج

سكرتير إداري وشؤون الكتّاب

سهى فرج خير

torath@ehcl.ae

التصوير:

- مصطفى شعبان

عناوين المجلة

الإدارة والتحرير:

الإمارات العربية المتحدة - أبوظبي

هاتف: 024456456 - 024092336

نادي تراث الإمارات

ينظم مهرجان السمحة التراثي الثاني عشر

قسم الإعلام

اختتمت في 5 مارس فعاليات الدورة الثانية عشرة من مهرجان السمحة التراثي، الذي نظمه نادي تراث الإمارات على مدى 10 أيام شهدت فعاليات متنوعة وحضوراً لافتاً للانتباه من الزوار بمختلف فئاتهم العمرية. وكان المهرجان قد شرّع أبوابه منذ الخميس 23 فبراير أمام الزوار الذين توافدوا على فعالياته المختلفة، وخاضوا تجارب تفاعلية عرفتهم بما تركه الأجداد من موروث حضاري، عبر العديد من الورش التعليمية والمسابقات، مثل مسابقة سعف الخوص، ومسابقة الزي الشعبي «للبنات والأولاد»، ومسابقة التجديل، ومسابقة الأكلات الشعبية، ومسابقة التصوير الضوئي، ومسابقة أفضل تعليق، ومسابقة أفضل قصيدة شعرية، وغيرها من المسابقات والسحوبات اليومية على الجوائز القيمة التي تقدم لجمهور المهرجان، كما شهد المهرجان في دورته الحالية مجموعة فريدة من العروض والاستعراضات الفنية المميزة.

وضم المهرجان سوقاً شعبية احتوت على 70 دكاناً تراثياً لعرض منتجات الأسر من دخون، وعطور، وإكسسوارات تراثية، ومنتجات الخوص، والعديد من الأطعمة الشعبية، كما قدّم ركن المكشات مجموعة من البرامج والأنشطة المختلفة لزوار المهرجان، لاسيما صغار السن، وذلك للتعريف بثقافة المكشات التي يشتهر بها أهل الخليج، بينما أتاح معرض التراث والأصالة فرصة للزوار للاطلاع على مجموعة فريدة من الصور الفوتوغرافية، إلى جانب العديد من المعروضات في التراث البحري، كما ضم المهرجان «بيت الواحات»، وركناً لإصدارات النادي، بالإضافة إلى منطقة الألعاب للأطفال. ونظم نادي تراث الإمارات حفلاً ختامياً على مسرح المهرجان بدأ بعزف السلام الوطني لدولة الإمارات العربية المتحدة، ثم كلمة للنادي ألقاها أحمد عبد الله الحوسني، رئيس قسم الأنشطة التخصصية، قال فيها إن هذه التظاهرة التراثية الاجتماعية الثقافية تأسست تعبيراً عن رسالة نادي تراث الإمارات، وتحقيقاً لأهدافه، من أجل تجسيد ونشر الوعي بالتراث، ودعم وترسيخ الانتماء إلى الوطن، وصقل الهوية الوطنية، في ظل المشاركة الواسعة لطلاب المدارس وأبناء المنطقة في فعالياته.

مضيفاً أن هذا يأتي إلى جانب الدور الاجتماعي المهم للمهرجان في جمع جهود مؤسسات المجتمع لخدمة أبناء المنطقة، وتحفيزهم

للمشاركة المجتمعية، عن طريق دعم العمل التطوعي، والاهتمام بمشاريع الشباب والأسر المنتجة. وفي ختام كلمته قدّم الشكر الجزيل لكل من أسهم في نجاح هذا الحدث المميز، ولكل من شكل بحضوره اليومي لوحة زاهية في أرض المهرجان.

وكرّم سعادة علي عبد الله الرميثي، المدير التنفيذي للدراسات والإعلام في نادي تراث الإمارات، الجهات الداعمة والراعية للمهرجان وهي: مجموعة كيزاد، ووزارة التربية والتعليم، والقيادة العامة لشرطة أبوظبي، ودائرة البلديات والنقل، وهيئة أبوظبي للدفاع المدني، ومجلس السمحة، ومركز أبوظبي لإدارة النفايات «تدوير»، وشركة أحمد المغربي للعطور، وليان غاليري، والمملكة لصناعة الورق، والشهد للألعاب الترفيهية، وشركة زهرة للعطور. وكرّم في الرعاية الإعلامية كلاً من أبوظبي للإعلام، وجريدة الاتحاد، والإذاعة الأولى، وقناة بينونة.

كما تمّ تكريم الفرق العاملة في المهرجان التي بذلت جهداً منقطع النظير في التحضير لهذا الحدث المميز، وتكريم فريق المكشات، وفريق كلنا شرطة، كما تم التقاط الصور التذكارية.

وكان النادي نظم مساء السبت أمسية شعرية على خشبة مسرح المهرجان، أحياها كلٌّ من الشاعر سعيد بن غماض الراشدي، والشاعر أحمد الحميد، والشاعرة مريم النقبي، والشاعرة ماجدة الجراح، حيث صدح الشعراء بالعديد من القصائد الشعرية التي لاقت استحسان الجمهور. وقدمت الأمسية فاطمة المنصوري، مديرة مركز زايد للدراسات والبحوث، وحضرها عدد من الشعراء وجمهور كبير من زوار المهرجان.

تتويج الفائزين بسباق أبوظبي لقوارب التجديف التراثية

توّج نادي تراث الإمارات يوم 26 فبراير الفائزين في سباق أبوظبي

لقوارب التجديف التراثية فئة 40 قدماً، الذي نظمه النادي في أربعة أشواط تحمل ألوان علم دولة الإمارات العربية المتحدة على كورنيش أبوظبي لمسافة 4 أميال بحرية بمشاركة 1156 بحاراً، توزعوا على 68 قارباً، وذلك ضمن مشاركته في فعاليات مهرجان التراث البحري الذي نظمته دائرة الثقافة والسياحة أبوظبي في الفترة ما بين «17 - 26» فبراير الماضي.

وكانت مشاركة نادي تراث الإمارات في فعاليات مهرجان التراث البحري شملت جناحاً تراثياً ضم جوانب من الحياة البحرية القديمة من خلال «بيت البحر» الذي ضم نماذج للمحامل التراثية أيضاً، مثل: الجالبوت، والبقارة، والصمعا، وأدوات الصيد والغوص وفلق المحار، وقدّم خلال المهرجان ورشاً بحرية متنوعة عن صناعة الديين والليخ والقوارب والكيبال والطواشة. وشمل جناح النادي ركناً للإصدارات عرض لجمهور المهرجان عناوين ذات صلة بالتراث البحري، إضافة إلى أعداد مجلة «تراث» التي يصدرها النادي، إلى جانب معرض للصور التي توثق جهود نادي تراث الإمارات في الحفاظ على التراث البحري. كما قدم النادي طوال أيام المهرجان عروضاً للمحامل التراثية على امتداد كورنيش أبوظبي.

نادي تراث الإمارات يشارك في أيام الشارقة التراثية

شارك نادي تراث الإمارات، في فعاليات الدورة الـ 20 من أيام الشارقة التراثية، التي نظمها معهد الشارقة للتراث تحت شعار

«التراث والإبداع» في الفترة من 1 إلى 21 مارس. وعرض جناح النادي في «الأيام» ملامح من تراث دولة الإمارات العربية المتحدة، من خلال الورش البحرية التي قدّم فيها المدربون التراثيون جوانب من التراث البحري المتعلق بالغوص والصيد، وورش الحرف اليدوية النسائية، مثل التلي، وسف الخوص (معالجة سعف النخل لتليينها وصناعتها في القفف وغيرها)، والدخون، وزهبة العروس، وغيرها من الأشغال اليدوية التقليدية التي تعرّف بأنماط العيش اليومية قديماً في دولة الإمارات. كما ضم الجناح معرضاً لمختارات من إصدارات نادي تراث الإمارات التي توثق وتبحث في التراث والتاريخ وتجمع دواوين الشعر النبطي، كما شارك في البرنامج الثقافي المصاحب لفعاليات «الأيام»، بتنظيم عدد من المحاضرات ضمن نشاط المقهى الثقافي للجناح.

محاضرة عن استلهام التراث في الإبداع بأيام الشارقة التراثية

نظم نادي تراث الإمارات يوم 10 مارس محاضرة بعنوان «استلهام التراث الثقافي في العمل الإبداعي» تحدث فيها الشاعر والباحث محمد سعيد قدورة، وأدارها الشاعر والكاتب الصحفي وائل الجشي، وذلك بجناح النادي في أيام الشارقة التراثية في إطار البرنامج الثقافي المصاحب لمشاركته في «الأيام».

وأبانت فاطمة المنصوري، مديرة مركز زايد للدراسات والبحوث،

أن النادي يحرص على تنظيم سلسلة من المحاضرات ضمن مشاركاته في أيام الشارقة التراثية وفي المحافل التراثية والثقافية كافة، واستضافة الباحثين الأكفاء فيها، مشيرة إلى أن ذلك يعد جزءاً من رسالة نادي تراث الإمارات في تفعيل الحراك الثقافي الذي تشهده «الأيام».

وتحدث محمد نجيب قدورة عن توظيف التراث واستلهامه في أعماله، وأثر مسيرته في التعليم وبداياته الشعرية في استفادته من التراث في العمل الإبداعي، كما تناول بالتفصيل عدداً من تجاربه في الكتابة اعتماداً على التراث.

محاضرة عن ميثولوجيا البحر وطقوسه في الخليج

نظّم نادي تراث الإمارات يوم 20 مارس محاضرة بعنوان «ميثولوجيا البحر وطقوسه في الخليج وبحر العرب» تحدث فيها الدكتور عادل الكسادي، الباحث والخبير في معهد الشارقة للتراث، وأدارها الدكتور محمد الحسن عبد الحافظ، خبير التراث الثقافي غير المادي بمعهد الشارقة للتراث، وجاءت المحاضرة في إطار البرنامج الثقافي المصاحب لمشاركة جناح النادي في أيام الشارقة التراثية.

وتناول عادل الكسادي ما ورد في كتابه الذي يحمل الاسم نفسه، وقال إن الكتاب استهدف عرض ودراسة الممارسات الأسطورية والمعتقدات الطقوسية المنتشرة بين البحارة وفي المجتمعات البحرية في الخليج والمحيط الهندي، حيث اشتمل على عدد من المحاور، تناولت المقاربات النظرية التي تفسر مصطلح الميثولوجيا، والفكر الوثني والديني والاجتماعي عن الأساطير، وأنواع الحكايات الخرافية التي تعد جزءاً من المعتقدات الأسطورية المتعلقة بالبحر.

وكان النادي قد نظم ضمن برنامجه الثقافي المصاحب لمشاركته في أيام الشارقة التراثية محاضرة أيضاً الأسبوع الماضي بعنوان «مناهج البحث العلمي في التراث الثقافي غير المادي المعايير وتقنيات التطبيق»، تحدث فيها الباحث الأستاذ الدكتور داود ماهر الشمري وأدارها هشام أزكيض الشاعر والكاتب، حيث تناول الشمري فيها المفاهيم المتعلقة بالتراث غير المادي، كما

تحدث عن صون التراث والتدابير الرامية إلى ضمان استدامة التراث الثقافي غير المادي التي تدخل فيها عمليات التوثيق بمختلف أشكالها وحمايته والبحوث المتعلقة به، كما تحدث عن مفهوم البحث العلمي ودواعيه ومجالاته وأهميته ومناهجه، ومعاييره وتقنياته.

ندوة عن عادات رمضان وتقاليده في التراث الإماراتي

نظم نادي تراث الإمارات يوم 16 مارس ندوة في مقره في مدينة العين، جاءت بعنوان «عادات وتقاليد رمضان في التراث الإماراتي» تحدث فيها الباحث في التراث الشعبي الإماراتي، خالد سليمان الهنداسي، والباحث في مركز زايد للدراسات والبحوث، الدكتور عماد خلف. وأبانت فاطمة المنصوري، مديرة مركز زايد للدراسات والبحوث، التابع للنادي، أن تنظيم الندوة جاء في إطار الموسم الثقافي لمركز زايد للدراسات والبحوث للعام الجاري، كما يأتي ضمن أهداف نادي تراث الإمارات، الذي درج منذ تأسيسه على الاحتفاء بشهر رمضان المبارك عبر تنظيم حزمة من الأنشطة والفعاليات والمهرجانات التراثية والثقافية الرمضانية، لاسيما المهرجان الرمضاني السنوي الذي اشتهر به النادي، إضافة إلى النشر والتوثيق من خلال الإصدارات ومجلة «تراث» الشهرية للدراسات التي تستجلي ملامح رمضان من عادات وتقاليد.

من جهته تناول خالد الهنداسي الخصوصية التي يحظى بها شهر رمضان الكريم في دولة الإمارات العربية المتحدة وارتباطه بكثير من العادات والتقاليد.

كما عرج على التغييرات التي أدخلتها الحداثة اليوم على المائدة الرمضانية وبعض العادات القديمة، مثل طريقة توزيع زكاة الفطر. من جهته أشار الدكتور عماد خلف إلى الدور المهم للطقوس الدينية في حياة الإنسان، وأبان أن للطقوس الرمضانية وظائف أخرى اجتماعية منها إظهار الهوية الدينية لمعتنقي دين بعينه، والانسجام مع المجتمع، والعمل على تصفير عداد الذنوب والبدء من جديد، هذا إضافة إلى الوظيفة الجمالية الحاضرة في التراتيل الدينية المصاحبة للمناسبات الدينية، وفوق كل ذلك تطهير الروح والسمو بها. ونظمت فعالية مصاحبة للندوة تمثلت في معرض مصاحب جسد عادات رمضان في الثقافات العربية والإسلامية وتقاليده بمشاركة دولة الإمارات العربية المتحدة، والفلبين، ومصر، وبنجلاديش، والمغرب، والسودان.

محاضرة عن ظاهرة الإبدال في لهجات الإمارات

نظم نادي تراث الإمارات محاضرة افتراضية يوم 21 فبراير ضمن برنامج سلسلة «قراءة في إصدارات إماراتية» بعنوان «ظاهرة الإبدال في لهجات الإمارات العربية المتحدة» قدمها الكاتب والباحث أحمد محمد عبيد. وقال أحمد محمد عبيد إن كتابه «ظاهرة الإبدال في لهجات الإمارات العربية المتحدة» درس ظاهرة الإبدال التي تعني لفظ حرف مكان حرف في الكلمة نفسها من دون أن يخل ذلك بمعناها، حيث قام بدراستها دراسة وصفية ميدانية، ثم مقارنتها مع لهجات الوطن العربي المعاصرة، واعتمد على الدراسة التاريخية ليبين أصول هذه الظاهرة ومدى انتشارها ■

إعداد: نايلة الأحبابي

الاول معي زايد غلاكم

قصيدة للشاعر مايد علي النعيمي

الاول معـــي زايـــد غـــلاكم — أفـــدي بروحـــي واشتريكـــم
أحـــرب وأشـــني من شناكـــم — مـــا أرتـضي بالشـين فيكـــم
وانتوا تجافـــون اصدقاكـــم — مـــن دون زلاتٍ تجيكـــم
كدرتـــوا الخاطـــر تراكـم — وعرفـــت قـــاصي أوّليكـم
واليوم مالـــي فـي معناكـــم — حـــاشا وكـلا مـــا عنيكـــم
امشوا وســـيروا في هواكـــم — وانـــا عليـــه ما تليكـــم
وضـــاع الربـــع في ملتقاكـــم — مـــن حين جافيتـــوا خويكـــم
ولو كان باغـــش ادعواكـــم — لمسماحـــة مـــنى اليكـــم
واقـــول لنـي فـــي ذراكـــم — اللـــه يهديـــني ويهديكـــم
والقلـب حـــالا عاف ماكـــم — يوم املحت شربـــت طويكـــم

القصيدة للشاعر مايد علي النعيمي، وهي قصيدة البوح الجميل وتباريح الجوى التي تتجلى عتاباً وجواباً لشعور الجفاء بين الأحبة، قصيدة عتاب لما آل إليه حال أحبابه حيث يقول الشاعر في السابق كان لكم قدر كبير وغلا زايد بالحب حتى أني أفتديكم بروحي. وفي البيت الثاني يحارب الشاعر ويشني من يشنا أحبته أي أنه يكره من يكرهكم ولا يرضى من يتحدث عنهم بالسوء أو يؤذيهم بالرغم أنهم يجافون أصدقائهم بلا سبب وجيه. وهنا عتاب لحالة الصد والجفاء من قلة الوصل والتواصل بدون سبب ولا عذر واضح، مما أدى إلى تكدير الخواطر بسبب عدم مقابلة المحبة وحسن الخلق بمثلها، ولذلك يقول الشاعر «وعرفت قاصي أوليكم»، أي تبينت وتوضحت لي الأسباب فيما بعد، وعرفت قدري عندكم من خلال تعامل لكم. ثم أردف الشاعر بقوله «واليوم مالي في معناكم»، أي في تعاملكم وتوجيبكم الذي لا ينم عن محبة ثم أردف بقوله حاشا وكلا ما أعنيكم أنه لم يعد يعنون كما أنه لا يعنيهم. ويقول فيما يلي «امشوا وسيروا في هواكم»، أي أنكم امشوا واذهبوا فيما ترونه مناسباً لكم، وما يروق لأنفسكم. أما أنا فيتوجب علي الابتعاد عنكم وأن لا اتبعكم. فقد ضاعت معاني المخوة والرفقة بيننا بعد أن بادرتوا بالجفاء بلاسبب وأنني رغم ماعانيته منكم إلا أنه يسامحهم من سمو نفسه وطيبة خاطره، ويدعو بالهدايه له ولهم على الرغم من أنه عاف وصد واكتفى منهم صداً وبعداً حتى أن الطوي الذي يشرب منه أصبح مالحاً لا يشرب وهنا كناية عن أن ماء الوصل تكدر بالجفاء والبعد في هذه القصيدة العذبة المسترسله الجميله التي يعاتب فيها الشاعر أحبته بنفس طيبه رغم ما بدر منهم إلا أن سمو الذات وطيب المعنى والمعاني لا يزال خالداً في قيم شاعرنا ومبادئه وجزالة شعره وعمق مفرداته.

معاني المفردات: لوّل: الماضي، من شناكم: من يكرهكم و لا يحبكم، ذراكم: ظلكم أو قربكم، عاف: كره، ما أتليكم: ما أقتفيكم وأتبعكم، املحت: أصبح الماء مالحاً، طويكم: بئركم.

2023 عام الاستدامة في الإمارات

16 التراث المستدام: من أجل مستقبل مشرق وعالم أفضل - منى حسن
20 الثقافة الإماراتية من ثقافة الاستدامة إلى استدامة الثقافة - عادل نيل
26 الاستدامة في الإمارات منهج حياة - محمد فاتح زغل
28 «عام الاستدامة» وأهمية المحافظة على التراث - فاطمة عطفة
31 استدامة في البنيان .. نهج وتراث - مريم سلطان المزروعي
34 التراث المُستدام.. ركنٌ رابعٌ للاستدامة - خالد صالح ملكاوي
37 التراث في حياة الشعوب - موزة سيف المطوع
38 إطلالة على محاور عام الاستدامة في دولة الإمارات - علي تهامي
40 الذكاء الاصطناعي والاستدامة - صديق جوهر
44 «التراث المستدام» جذور التاريخ في حضور المستقبل - حمزة قناوي
48 استلهام تجربة البيوت التراثية في الاستدامة في البناء الحديث - الأمير كمال فرج
53 المتاحف في الإمارات سياحة ثقافية مستدامة - فاطمة سلطان المزروعي
56 استدامة التراث... صيانة للهوية من الذوبان واستدعاء أصالة الروح - مجدي أبوزيد
58 الحفاظ المستدام على التراث العمراني .. البيت الغربي في الشارقة نموذجاً - خالد بن محمد القاسمي
65 إحياء أسواق الشارقة القديمة... نموذج لاستدامة الأماكن التاريخية - حماده عبد اللطيف

التراث المستدام: من أجل مستقبل مشرق وعالم أفضل

منى حسن

الاستدامة، مصطلح شغل العالم مؤخراً أكثر من أي وقت مضى، ونال التفات القادة واهتمامهم، والباحثين في الدول التي ترغب في بناء حاضر يقود إلى مستقبل أفضل للإنسان فيها، سواء كان مفهوم الاستدامة حول حماية البيئة أو التراث أو الطاقات المتجددة، أو التنمية الحضارية، وكل ما من شأنه التغيير إيجابياً نحو أنسنة المدن وجعلها أكثر استدامة عبر تفجير طاقات وإمكانات التنمية المستدامة من أجل مستقبل مشرق وعالم أفضل. وينطبق هذا على التراث الثقافي أيضاً، فالاستدامة هي إحدى أهم ركائز إطار العمل بشأن التراث الثقافي، وذلك لقدرتها على تعزيزرأس المال الاجتماعي، وتعزيز النمو الاقتصادي وتأمين الاستدامة البيئية، حيث يعد تغير المناخ والتدهور البيئي من بين أكبر تحديات العصر الحديث، اللذان باتا يهددان العالم، والتراث المادي، مما حدا بالكثير من الدول، وفي مقدمتها الإمارات، لاتخاذ إجراءات تسعى من خلالها نحو الحياد المناخي وحماية التراث.

مفهوم التنمية المستدامة: (Sustainability)

هو مفهوم بيئي في الأساس، ويعني «الحفاظ على استمرارية الحياة اعتماداً على الموارد الطبيعية». واستخدم لأول مرة في الثمانينيات من قبل الجمعية العامة للأمم المتحدة التي عرفت التنمية المستدامة في تقرير «مفوضية الأمم المتحدة للبيئة والتنمية»، عام (1987) بأنها «التنمية التي تفي بحاجات الوقت الحاضر دون المساس بقدرة الأجيال المقبلة على تلبية حاجاتها الخاصة».

كما عرّفتها منظمة الأمم المتحدة للتغذية والزراعة بأنها: «إدارة قاعدة الموارد الطبيعية وحمايتها، وتوجيه التغير التقني والمؤسسي بطريقة تحقق استمرار إرضاء الحاجات البشرية للأجيال الحالية والمستقبلية، وهي تحمي الأرض والمياه والمصادر الوراثية النباتية والحيوانية، ولا تضر بالبيئة. وتتسم بأنها ملائمة، من الناحية الفنية، ومناسبة من الناحية الاقتصادية ومقبولة من الناحية الاجتماعية».

التراث الثقافي، هوية وانتماء

إن التراث هو جوهر الهوية ودليل الانتماء الذي يتميز به شعب عن آخر، ويشكل بصمته الوجودية الإنسانية. وهو حاضر في لاوعي الفكر الجمعي، ومتجذر في حياة الشعوب وتاريخها وحاضرها، ويشكل الركيزة الأساسية للهوية الثقافية والوطنية للفرد والمجتمع. فهو النبع الذي تستقي منه الشعوب القيم الأصيلة، واللغة والتقاليد، ويشكل مرجعها الثقافي الذي يعزز الانتماء والولاء وينمي القيم السمحة.

وقد احتل مفهوم التراث الثقافي، مؤخراً، أجندات اجتماعات الدول والباحثين في مجال التنمية، كما تصدر الخطاب الفكري المعاصر الذي يسعى للحفاظ على التراث وتوظيفه في التنمية المستدامة. وبداية، كان مصطلح التراث الثقافي يُعنى في المقام

الأول بالتراث المادي الذي يشمل المواقع الأثرية التاريخية، وأعمال الفن وغيرها ...)، ثم تطور تعريف التراث ليشمل التراث غير المادي، الذي يشكل جملة الممارسات والطقوس والعادات والتقاليد والمعارف التي تتميز بها المجتمعات المحلية منذ القديم وتوارثتها الأجيال المتعاقبة. وهكذا امتد مفهوم التراث الثقافي ليشمل مفهوم التراث الإنساني بشقيه المادي وغير المادي، وينفتح وبصورة أكثر شمولية على التنمية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية المعاصرة، ويطوي تحت مسماه التراث المعماري، والديني، والمجتمعي، والصناعي، واللغوي وغيرها. فلم يعد على هامش دائرة التنمية المجتمعية، بل أصبح يحتل مركزها، ممتداً إلى فروعها الثقافية والسياسية والاقتصادية، في زمن أضحت فيه التكنولوجيا سمة عصر المعلومات وثورة الاتصالات التي نقلت البشرية من الاقتصاد الصناعي إلى الاقتصاد الثقافي، الذي يعد أهم ركائز التنمية المستدامة.

التراث المستدام

يشير مصطلح التراث المستدام إلى دور التراث الثقافي ومستقبله في التنمية المستدامة من خلال مناقشة القرارات والخيارات التي يمكن اتخاذها وصولاً للتنمية المستدامة دون التغرب عن الهوية والانتماء. ويشكل التراث الثقافي عاملاً مهماً في التنمية الحضرية المستدامة. وهناك الكثير من النقاط التي تسلط الضوء على دور التراث بشقيه (المادي وغير المادي) في التنمية الحضرية المستدامة. ما يستوجب أن تؤخذ الثقافة في الاعتبار لتعزيز أنماط الاستهلاك والإنتاج المستدامة، وكعنصر أساسي في أنسنة المدن والمستوطنات البشرية، حيث تلعب دوراً مهماً في إعادة تأهيل المناطق الحضرية وتنشيطها، وتعزيز المشاركة الاجتماعية وممارسة المواطنة.

وقد خلص الباحثون إلى أن للتراث الثقافي دوراً فاعلاً في المساعدة على تحقيق التنمية الشاملة والمستدامة، وذلك عبر أطر عدة منها: ترميم المباني التراثية بما يتكيف مع التغيرات البيئية، وتحقيق التوازن بين التراث الثقافي والسياحة الثقافية المستدامة والتراث الطبيعي.

ويتحقق دور التراث المستدام عبر الاهتمام بالتراث الثقافي بشقيه المادي وغير المادي، وذلك بالاهتمام بالمباني التراثية وأثرها في مستقبل مستدام. وتسليط الضوء على المباني والأماكن التاريخية، ودورها في الحفاظ على الهويات المحلية، فضلاً عن البحث في سبل استعادة مواقع التراث المعرضة للدمار والخطر، وإعادة ترميمها باستخدام تقنيات ومهارات ومواد التجديد التقليدية كجزء من التنمية الحضرية المستدامة اجتماعياً وبيئياً. كما أنه من المهم في السعي نحو تراث مستدام

تشجيع المصانع ذات الصلة بالثقافة المستدامة أيضاً، في الماضي والحاضر، على المشاركة، مثل المصانع التي تصنع السلع التقليدية، ومصانع إعادة التدوير وورش ترميم الأثاث، والمزارع التي تستخدم الممارسات المستدامة، وأنظمة الطاقة المتجددة، والسكك الحديدية وغيرها من مستودعات النقل العام والبنية التحتية، وتشجيع الصناعات اليدوية التراثية أيضاً. بالإضافة إلى ذلك، فإن أحد أهم وجوه التراث المستدام يتجلى في زيادة تقدير التراث الطبيعي، مع الاهتمام بالإدارة الاستراتيجية للمناظر الطبيعية والحفاظ على الحياة البرية والتنوع البيولوجي. ويشمل التراث المستدام دور السياحة المهم أيضاً في الحفاظ على هوية المجتمعات، وضمان استمرارية التقاليد والأنشطة الثقافية التراثية التي تدخل في إطار «التعبير الثقافي»، مثل: الموسيقى والفن والرقص الشعبي وغيرها.

كما يطور التراث المستدام حلولاً لقضايا عدة مثل: الحد من النفايات، من خلال مبادرات إنتاج المعلومات الرقمية، وابتكار مواد تسويقية قابلة لإعادة الاستخدام مثل الملصقات والديكورات المقاومة للعوامل الجوية، وتوفير صناديق إعادة التدوير للمساعدة على تقليل مدافن النفايات.

2023 عام الاستدامة في الإمارات

في خطوة تاريخية غير مسبوقة، أعلن صاحب السمو الشيخ محمد بن زايد آل نهيان، رئيس الدولة، حفظه الله، 2023 «عام الاستدامة»، تحت شعار «اليوم للغد»، ويشمل عام الاستدامة في الدولة مبادرات وفعاليات وأنشطة متنوّعة تسلط الضوء على تراث دولة الإمارات الغني في الممارسات المستدامة، وذلك منذ عهد المؤسس المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، تغمده الله بواسع رحمته، إضافة إلى نشر الوعي حول قضايا الاستدامة البيئية وتشجيع المشاركة المجتمعية في تحقيق استدامة التنمية ودعم الاستراتيجيات الوطنية في هذا المجال.

كما يهدف «عام الاستدامة» إلى إبراز الجهود التي تقوم بها دولة الإمارات العربية المتحدة في تعزيز العمل الجماعي الدولي لمعالجة تحديات الاستدامة ودورها في البحث عن حلول مبتكرة يستفيد منها الجميع.

وأيضاً كان للإمارات السبق في «استضافة أبوظبي للمنتدى الحضري العالمي» الذي يُعد التجمع الدولي الأشهر لتبادل الآراء والخبرات حول التحديات الحضرية. في الفترة ما بين 8 إلى 13 شباط/ فبراير 2022 تحت شعار «مدن الفرص: ربط الثقافة والابتكار». الذي عقد تحت رعاية صاحب السمو الشيخ محمد بن زايد آل نهيان، رئيس الدولة، حفظه الله. مما يؤكد المستوى العالي من الرعاية و الدعم الثابت لقادة الإمارات واهتمامهم باستكشاف الحلول والسياسات الحضرية لتنفيذ الخطة الحضرية الجديدة، وهي المرة الأولى التي يعقد فيها برنامج الأمم

المتحدة للمستوطنات البشرية (موئل الأمم المتحدة) هذا المنتدى الحضري المحوري في المنطقة العربية. وكانت إحدى أهم اهداف الدورة العاشرة للمنتدى هي التعاون بين جميع أصحاب المصلحة للعمل على اتخاذ إجراءات حاسمة تعتبر مهمة وعاجلة لمعالجة تحديات التنمية المستمرة والجديدة. وتشمل هذه المشاكل الفقر المدقع، وعدم المساواة الاجتماعية والاقتصادية، والأحياء الفقيرة، والاستبعاد الاجتماعي والتهميش، والتمييز على أساس النوع الاجتماعي، والأزمات الإنسانية، والصراع، وتلوث الهواء، وتغير المناخ، وارتفاع معدلات البطالة».

ختاماً... لا ننسى دور التراث الثقافي المهم في تطوير اقتصاد المدن وجعلها نابضة بالحياة ومستدامة وشاملة، وفي استدامة ودعم الاقتصاد للانتقال التدريجي نحو إنتاجية أعلى، مما حدا به ليصبح «مكوناً ذا أولوية في الخطط والاستراتيجيات الحضرية، بما في ذلك الخطط الرئيسية، والمبادئ التوجيهية لتقسيم المناطق، وقوانين البناء، وسياسات إدارة المناطق الساحلية،

وسياسات التنمية الاستراتيجية التي تحمي جميع أنواع التراث الثقافي المادي وغير المادي والمناظر الطبيعية». إذ إنه من الضروري «حماية التراث من التأثيرات التخريبية المحتملة للتنمية الحضرية». وتهتم المنظمات الدولية، مثل: اليونسكو، وآيكوموس (ICOMOS)، «المجلس الدولي للآثار والمواقع»، بحماية التراث الثقافي، إيماناً بالدور الرئيسي للثقافة في تحقيق التنمية المستدامة. الذي يشكل حلقة الربط بين مجالات التنمية المختلفة اقتصادية أو مجتمعية أو غيرها. ويرى الخبير الاقتصادي ديفيد ثروسبي أن النظم الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والبيئية ليست معزولة، لكنها «مترابطة»، وأنه يمكن اعتبار التراث الثقافي بمنزلة «الصمغ» بين الأبعاد المختلفة للتنمية المستدامة ■

* شاعرة وكاتبة سودانية

أهم المراجع:

- الموقع الرسمي لحكومة الإمارات.
- د. سامية شابو، دور التراث الثقافي غير المادي في تعزيز التنمية المستدامة.
-بناء استراتيجيات التنمية الحضرية لأجل مستقبل مستدام، موقع الأمم المتحدة،2020.
- Francesca Nocca, The Role of Cultural Heritage in Sustainable Development.
- Journal of Cultural Heritage Management and Sustainable Development.
- Unesco, World Heritage and Sustainable Development, 2017.

الثقافة الإماراتية

من ثقافة الاستدامة إلى استدامة الثقافة

عادل نيل

قطعت دولة الإمارات شوطاً واسعاً في تعزيز الاستدامة بمفهومها الشامل، حيث ربطت تطورها الحضاري بمفاهيم التنمية المستدامة التي صارت جزءاً من استراتيجياتها وخططها الوطنية، واتسعت بجهودها خارج إطارها المحلي، فقدمت إسهامات تعزز مسؤوليتها إزاء المجتمع الإنساني؛ إذ تنطلق جهودها من بُعد متكامل تتحمل فيه الإنسانية جميعها مسؤوليتها تجاه أجيال الغد. فالاستدامة ليست «فكرة فردية محدودة المدى كحياة الفرد، وإنما هي فكرة جماعية، على مستوى الأوطان، وعلى مستوى العالم بأسره، فحياة المجتمعات متجددة باستمرارٍ بأجيال صاعدة، علينا أن تحمل رايات الاستدامة، وتنقلها إلى الأجيال من بعدها»[1].

وتأسيساً على ذلك، أطلقت الدولة العديد من المبادرات والبرامج التنموية، وقرنت رؤيتها المستقبلية بتحقيق أهداف هذه التنمية، ولضمان استمرارية تطلعاتها الطموحة في مجال التنمية المستدامة؛ «تم تشكيل اللجنة الوطنية لأهداف التنمية المستدامة في عام 2017 لتتولى قيادة الجهود المبذولة لتعزيز هذه الأهداف وملكية الدولة لها، وفي عام 2018 عملت اللجنة على عدد من المشاريع الداعمة لتنفيذ بنود أجندة 2030 على المستويين المحلي والعالمي لدعم الأهداف التنموية»[2].

ومع ترسيخ مفاهيم الاستدامة التي أصبحت جزءاً من ثقافة المجتمع، أفراداً ومؤسساتٍ، أخذت الثقافة ذاتها تشكل، في إطار هذه الرؤية الشمولية للتنمية المستدامة، مقوماً من مقومات بناء الإنسان، حاضراً ومستقبلاً، وجزءاً من أولويات دولة الإمارات؛ إيماناً منها بأنه بقدر تمكُّن أدوات الثقافة وازدهارها في المجتمعات، فإنها تستطيع أن تؤدي غاياتها في الارتقاء بسلوك الأفراد، وتوجيه الأفكار، وتشكيل الوجدان الجمعي. ويرتبط اهتمام الدولة بالتنمية الثقافية ارتباطاً مباشراً بمظاهر الاستدامة في غيرها من القطاعات، كالصناعة والتعليم والصحة والبيئة، وغيرها من الممارسات الحياتية التي تمثل الثقافة جزءاً منها، ومن ثمَّ يمكننا القول إن العلاقة بين الثقافة وغيرها من مظاهر التنمية المستدامة هي علاقة تكاملية بقدر تداخلها وترابطها. فمع أن الثقافة في حد ذاتها غاية ومستهدف أساسي للتنمية المجتمعية المستدامة، فإنها في الوقت ذاته عامل من العوامل الداعمة في تحفيز غايات إنمائية وتحقيقها في غيرها من القطاعات التي تعد الثقافة جزءاً منها، وتعد هي جزءاً من الثقافة، لتشكل مستهدفات التنمية المستدامة في النهاية منظومة متكاملة لا ينفصل أيٌّ من عناصرها عن الآخر، حيث «تسهم الثقافة بشكل مستعرض في كلٍّ من الأبعاد الحيوية الخمسة للتنمية المستدامة (الناس، الكوكب، الازدهار، السلام، الشراكات)، والأبعاد الاقتصادية والاجتماعية والبيئية للتنمية

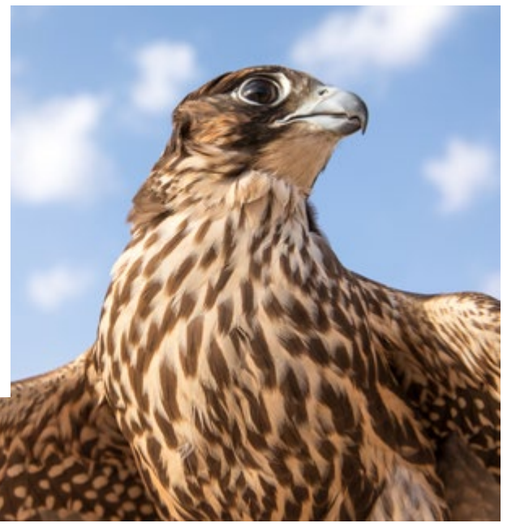

المستدامة تسهم بدورها في تعزيز صون التراث الثقافي وتشجيع الإبداع، وعلاوة على ذلك، فإن بعض الأهداف، مثل التعليم، أهداف تتعلق بالتنمية البشرية التي يمكن تحقيقها بشكل أكثر فعالية عبر الثقافة»[3].

والحديث عن الثقافة الإماراتية يبدأ من قبل قيام الدولة؛ إذ لا يمكن الفصل بين حقب التاريخ المتداخلة قبل تأسيس الدولة وبعده؛ فعلى الرغم من ارتباط تلك النهضة بالعديد من عوامل الانفتاح والتطور التي أوجدت معها روافد جديدة عززت من نشاط حركتها المتنامية، وأخذت بها إلى حالة من النضج الذي يتناسب مع مظاهر النهضة التي استطاعت الدولة أن تضع لها قواعد متينة، وأن توظف في ذلك مواردها الاقتصادية، فإنها لم تنفصل عن ثوابتها الحضارية التي استمدت منها واقعها الجديد، وإنما جعلت منها قاعدة لبناء ثقافي قائم على تلك الثوابت؛ ومن ثمَّ فإن الحالة الثقافية للمجتمع الإماراتي في كثير من أشكالها هي حالة نمو وتطور وليست نشوءاً، بما يستند إليه هذا المجتمع من مكونات ثقافته الإنسانية المادية والمعنوية، وبما ينتمي إليه من تقاليد راسخة. وبالنظر إلى مفهوم الثقافة الذي يتسع لكل ما يتربى عليه وجدان المجتمع في معتقداته ومفاهيمه الفكرية وتقاليده وقيمه الاجتماعية وآدابه الإنسانية، نجد أن ثقافة المجتمع الإماراتي تستمد مقومات بنائها من روافد الثقافة الإسلامية والعربية التي صاغت وجدانه وشكلت هويته، ومهدت لبناء حضارة تقوم على الحفاظ على أسس تلك المقومات والثوابت

بقدر ما تتطلع إلى المعاصرة والحداثة، وقد انعكست معطيات تلك الثقافة في السلوك الإنساني الذي يتسم به المجتمع، فكانت جزءاً من وعيه بدوره الأخلاقي المكتسب من قيم الدين، كالتسامح، والمعايشة، وتقبل الآخر باعتبار أن ذلك أحد مقومات شخصيته وهويته الحضارية[4]. ومع اهتمام دولة الإمارات العربية المتحدة بتمكين الثقافة وتفعيل دورها المجتمعي، فإن هناك محاور عدة أساسية، تتكئ عليها الدولة في جعل التنمية الثقافية بناءً مستداماً، نستعرض أبرزها في التالي:

أولاً: تعزيز منظومة القيم:

الإنسان هو الثروة الحقيقية لأي مجتمع والرهان الرابح لنجاحه، وهو غاية أي تطلع تنموي؛ وعلى الرغم مع أهمية حرص الدول على تلبية احتياجات أبنائها المادية التي تكفل لهم حياة مستقرة يستطيعون من خلالها تطوير معارفهم ومهاراتهم، فإن تعزيز الجانب الروحي/ الأخلاقي، يبقى جانباً مهمّاً في ضمان ارتباط الفرد بثقافته المجتمعية التي تتوارثها الأجيال لتكون سمة من السمات المشتركة بين أبناء المجتمع الواحد، حتى وإن تغيرت الأنماط والعادات المعيشية فإن القيم والثوابت والتقاليد السوية لا تتغير.

إن قوام استدامة الثقافة يتأتّى من خلال منظومة القيم التي لا يعرف التمسك بمفرداتها تباينات فكرية أو اختلافات بيئية أو مستويات عمرية أو مجتمعية، بحيث تتشكل معها طبيعتهم الإنسانية فكراً وسلوكاً وانتماءً، وتتعمق معها مفاهيم الرسوخ والتمكن في بنية المجتمع، بوصفها من حتمياته التي لا يقبل التمسك بها اهتزازاً أو تفريطاً.

وتأسيساً على هذه الأهمية، كان اهتمام دولة الإمارات العربية المتحدة منذ نشأتها بهذا العنصر المهم في تشكيل الوعي القيمي، وتأصيل الثوابت الأخلاقية في المجتمع، حيث جعلته جزءاً من دستورها المنظم لحركة الحياة كافة، إذ تنص المادة الثامنة منه على: «منظومة القيم في دولة الإمارات ستبقى قائمة على الانفتاح والتسامح، وحفظ الحقوق وترسيخ دولة العدالة، وحفظ الكرامة البشرية، واحترام الثقافات، وترسيخ الأخوة الإنسانية واحترام الهوية الوطنية، وستبقى الدولة داعمة عبر سياستها الخارجية لكل المبادرات والتعهدات والمنظمات العالمية الداعية للسلم والانفتاح والأخوة الإنسانية»[5].

وقد شهد الوعي الثقافي في المجتمع تطوراً كبيراً، نتيجة التحولات التي شهدها المجتمع على المستويات كافة، والعوامل الداخلة إليه مع التفاعل الحضاري، والانفتاح على مجتمعات وثقافات جديدة، ومع هذا التنوع الثقافي كان حرص الدولة على تنمية قيم

التسامح وقبول الآخر واحترام خصوصيته الثقافية، وتخصيص وزارة لنشر قيم التسامح بين فئات المجتمع كافة في ظل التعددية العرقية والعقائدية التي عرفها المجتمع مع توافد الجنسيات من شتى بقاع الأرض، وتكفلت القوانين بحماية المجتمع من أي مظاهر تخترق هذه المنظومة القيمية، بكراهية أو عنف أو تعصب، أو رفضٍ للآخر، التزاماً بتوجهات الدين الحنيف وإنسانيته.

ثانياً: العمل الثقافي المؤسسي:

يمثل انتشار المؤسسات الثقافية جزءاً من النهضة الشاملة بالدولة بما تعكسه من ملامح مستواها الفكري والثقافي، وبما تخلقه من مناخ رحب لتمكين الثقافة في بنية المجتمع، فضلاً عن دعم حركة الترجمة والتأليف والنشر التي كان لها أثر كبير في إثراء الوعي الثقافي والإبداعي للمثقف الإماراتي والعربي بشكل عام، كما قدمت المؤسسات الصحفية دوراً مهمّاً في النهضة الثقافية وتنامي النشاط الفكري في المجتمع، وهو ما يعد مؤشراً من مؤشرات هذا التطور والتنمية المستدامة في قطاعات الثقافة الإماراتية.

ويرتبط بهذا العمل الثقافي المؤسسي إنشاء المكتبات التي كان لها دور في إثارة الوعي الثقافي، من خلال توفير مصادر الاطلاع والتزود بالعلوم والمعارف المتاحة فيها، كما أن إنشاء تلك المكتبات قد عمل على تحفيز بعضهم للتأليف والإبداع، باعتبار أن توفر مصادر المعرفة مع وجود الاستعداد يشكلان مناخاً مناسباً لذلك. وقد تطورت المكتبات منذ بدايات النهضة الثقافية على يد بعض الرواد الذين عملوا على إنشاء تلك المكتبات بدافع حب العلم والأدب، حيث «ظهرت أشهر المكتبات في بيوت الرعيل الأول الذين قادوا حركة التنوير في البلاد، ثم ظهرت مكتبات رائدة في الثلاثينيات فتحت خصيصاً لتسهم في صقل الفكر الجديد»[6]، وتوالى بعد ذلك إنشاء المكتبات التي كانت نواة للنهضة الثقافية، إلى أن انتشرت المكتبات في أنحاء الإمارات، وواكبت النهضة الشاملة بالدولة، وأصبحت قلاعاً للمعرفة والنشاط الثقافي بها، التي صارت تشكل صروحها واجهات ثقافية ومعرفية وحضارية للدولة.

ثالثاً: استدامة الموروث الثقافي:

يشكّل الموروث الثقافي مصدراً مهمّاً من مصادر الثقافة الإماراتية؛ إذ يجسد خصوصيتها في عادات المجتمع وتقاليده، وقد أسهم في تنوع مصادر هذا الموروث، تنوعُ البيئة الجغرافية في مجتمع ما قبل النفط، إذ «نلاحظ أنه مقسم إلى أنماط سكانية أربعة، تعيش في بيئات جغرافية مختلفة، وهذا التنوع في البيئات

والسكان ساعد في تنوع الموروث في الإمارات»[7].

فهذا التنوع في البيئة بين ساحلية وصحراوية وجبلية وريفية، شكّل في مجموعه ملامح ثقافة مجتمعية، يربط بينها نظام قبلي له عاداته وتقاليده وقيمه، كان يمثل ميثاقاً اجتماعياً على اختلاف البيئات الجغرافية لهذا المجتمع، والمستويات الاجتماعية فيه، ويرتبط به اهتمامهم بثقافة معرفية ذات أصول ومرجعية عربية قويمة. فإلى جانب الموروث الثقافي المادي، تمثل العادات والتقاليد الإماراتية «السنع» جزءاً من منظومة القيم الإيجابية التي تشكل الثقافة المستدامة في الإمارات، وقد حرصت الجهات المعنية في الدولة، من مؤسسات وجمعيات تراثية، على إحياء هذه التقاليد والحفاظ عليها، حيث تقوم «بدور بارز في إظهار القيم الحضارية والتراثية والتاريخية للدولة والقيام بمسؤولياتها»[8].

فأحيت رياضات الأجداد وهواياتهم كسباق الهجن والقنص والتجديف، وأقامت المعارض التي تُعرِّف بالمشغولات اليدوية التراثية، وعمقت جسوراً متينة من التواصل بين الأجيال عبر إحياء العادات والتقاليد المجتمعية الأصيلة في نفوس الأبناء وسلوكهم، بالإضافة إلى تضمينها في المناهج التعليمية، لتكون جزءاً مما يتربى عليه النشء في مراحله الدراسية.

ويمكننا القول إن النهضة التي شهدتها الدولة مع تدفق الثورة النفطية وما صاحبه من تحولات اجتماعية واقتصادية لم تكن في واقع الأمر إلا عاملاً مهيئاً لصون موروثها المادي، وحماية تاريخها الثقافي عبر الأجيال المتعاقبة، فازداد معها حرصها على حماية إرثها من تلك المتغيرات حتى لا تمس جوهر هويتها وخصوصية ثقافتها، ولذلك سنّت التشريعات التي تضمن تنمية موروثها واستدامة ثقافتها.

رابعاً: المجالس والملتقيات الاجتماعية:

تعود المجالس في الإمارات إلى ما قبل الثلاثينيات ولا تزال تعقد حتى الآن؛ لأنها ترتبط بطبيعة المجتمع، وتدخل في صميم عاداته الاجتماعية، وقد حرص الحكام على عقد مجالسهم أو ما يعرف بالدواوين التي يفد إليها الوجهاء والأعيان والأدباء، ويتبادلون فيها الآراء، كما يفد إليها عامة الناس، ورافعو المظالم، وذوو الحاجات. وشكلت هذه الملتقيات الاجتماعية رافداً مبكراً في إثراء ثقافة الحوار، والتعرف إلى الرأي الآخر وتقبله، وهو ما ينعكس إيجابياً على المناخ الاجتماعي، كما أن هذه المجالس كانت سبباً في ظهور بوادر ثقافية، فمن مجلس الأديب إبراهيم المدفع انطلقت فكرة صحفه الثلاث، وفكرة إنشاء المكتبة الوطنية، وهي بوادر كان لها دورها البارز في دعم النهضة الثقافية.

وفي المجتمع الحديث تؤدي تلك المجالس المفتوحة دوراً مهماً في تعزيز الوعي، من خلال طرح الرؤى والأفكار، وتبادل الآراء حول العديد من القضايا والظواهر المجتمعية والاهتمامات المختلفة، ولاسيما في شهر رمضان الذي تعقد فيه مجالس رمضانية وخيام تسمى بأسماء أصحابها، وتعد منتدى حوارياً مفتوحاً، ويحرص على حضورها كثير من النخب والشخصيات العامة، ويمثل الحرص عليها جزءاً من ثقافة مجتمعية تعزز التواصل بين الأجيال من ناحية، ومختلف فئات المجتمع وأطيافه من ناحية أخرى.

خامساً: الثقافة الإبداعية الشعبية:

على الرغم مما تشهده الإمارات من نهضة أدبية في الإبداع الأدبي، لا سيما الشعر الفصيح منه، وظهور أسماء مهمة شكلت امتداداً لحركتها الإبداعية المبكرة التي أتت مع سالم العويس، وسلطان العويس، وخلفان بن مصبح وغيرهم، فإن القصيدة النبطية شكّلت، ولا تزال، حضوراً قوياً في المشهد الإبداعي الشعبي، ومن ثمَّ لا نقصد هنا استبعاد الإبداع باللغة الفصحى باعتباره وجهاً من وجوه الثقافة المستدامة، وإنما أردنا الاقتراب من الثقافة الشعبية الأقرب إلى التكوين المجتمعي، من فلكلورات

وفنون شعبية، ومظاهر النشاط الفكري الذي يتجسد في الشعر النبطي، والأهازيج، والمرويات والحكايات الموروثة.

وقد مهد لهذا المظهر الإبداعي في التنمية الثقافية المستدامة، الطبيعة البدوية للمجتمع الإماراتي، التي كانت مصدر إلهام للقرائح التي وافقت ميولاً فطرياً للشعر لدى أهل المنطقة، حيث ارتبطت تلك الحياة بأحد أشكال الشعر النبطي، وهو (التغرودة الإماراتية) التي كانت تعبيراً عن عديد من الأغراض والمعاني، وهي «تنتمي إلى منظومة الأوزان التي وضع أسسها الخليل بن أحمد الفراهيدي، ويبدو أن أصالة البادية الإماراتية، وعمق انتمائها إلى الثقافة العربية، ومحافظتها على إرثها الحضاري جعلت فنون هذه البادية موصولة بجذورها الراسخة في التربة العربية الخصبة»[9].

يضاف إلى ذلك، تشجيع الحكام للشعر واحتفاؤهم به، وتقريب الشعراء إليهم في مجالسهم، كل ذلك جعل للشعر والشعراء مكانة أسهمت في دعم الحركة الشعرية، وجعل الإبداع الشعبي جزءاً من ثقافة المجتمع المستدامة ■

* كاتب وأكاديمي مصري

الهوامش:

1. د. عبد الله بن عبد العزيز آل الشيخ، الاستدامة: التحديات والفرص، العبيكان للنشر، الرياض، 2020م، ص 16.
2. أجندة التنمية المستدامة 2030 لدولة الإمارات العربية المتحدة، الهيئة الاتحادية للتنافسية والإحصاء، دبي، 2018م، ص 12.
3. منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة، مؤشرات الثقافة 2030: أهداف التنمية المستدامة، منظمة اليونسكو، ط1، 2020م، ص 12.
4. ينظر في ذلك: د. عادل نيل، الاتجاه الوجداني في الشعر العربي بمنطقة الخليج: دراسة في القصيدة الإماراتية، دائرة الثقافة والإعلام، حكومة الشارقة، ط1، 2016م، ص 27.
5. دولة الإمارات العربية المتحدة، قرار رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة رقم (15) لسنة 2021 بشأن اعتماد المبادئ العشرة لدولة الإمارات العربية المتحدة، الجريدة الرسمية، العدد (713)، السنة الحادية والخمسون، بتاريخ 14/ 10/ 2021م.
6. عبد الله الطابور، ملامح التاريخ الثقافي في الإمارات، مجلة الرافد، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، العدد: (44)، إبريل، 2001م ، ص 22.
7. ملامح التاريخ الثقافي في الإمارات، عبد الله الطابور، مجلة الرافد، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، العدد: (44)، إبريل، 2001م، ص 20.
8. د. سالم حميد، البيت متوحد، مركز المزماة للدراسات والبحوث، دبي، ط1، 2014م، ص 214.
9. التغرودة الإماراتية.. دراسة علمية في فن التغرودة في التراث الشعبي الإماراتي، د. غسان الحسن، هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، أكاديمية الشعر، أبوظبي، ط1، 2008م، ص 25 بتصرف.

الاستدامة في الإمارات منهج حياة

محمد فاتح زغل

غالباً ما يتم تناول شخصية المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، طيب الله ثراه، كصانع لنهضة الإمارات العربية المتحدة في مجالات التراث، والتربية، والتنمية، والثقافة... دون استذكار لدوره الكبير في نقل المجتمع الإماراتي من «قوة بترولية» إلى معلمة تنموية مستدامة وعالمية، ودفاعه عن أهمية الاستثمار في المستقبل التكنولوجي والبيئي والخدماتي لإمارات المستقبل وفق تنمية مستدامة.

وللتذكير فقد خصصت مجلة «علوم إنسانية» الفرنسية ملفاً لـ«فهم التحولات التي يعرفها الشرق الأوسط خلال العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين» في عددها لشهري مايو ويونيو 2018، من أبرز النقاط التي تم التطرق إليها نجد الطفرة التي شهدتها الإمارات في المجالين التراثي والسياحي والمعماري والتنموي النهضوي. فقد تحولت الإمارات نحو عصر ذهبي جديد، منذ سبعينيات القرن الماضي، وتشكل التكنولوجيات الحديثة والاستثمار في القطاع التراثي والسياحي مرتكزاته الأساس، كما تؤكد المؤرخة الفرنسية «هيلين فرار» (Hélène Frouard).

وانطلاقاً من رؤية المغفور له الشيخ زايد حيث التمازج بين رهان التشبث بثوابت الأمة وتراثه وعاداته وتقاليده والانفتاح على الآخر والمستقبل، وانتهاء بأفق رؤية القيادة المستنيرة لصاحب السمو الشيخ محمد بن زايد آل نهيان، رئيس الدولة، حفظه الله ورعاه، بتحويل الإمارات إلى قبلة مستدامة عالمية في مجالات الحياة كافة من التراث وصولا إلى الفضاء. فقد خطت الإمارات خطوات سريعة في مجال التنمية المستدامة، وأصبحت نقطة جذب عالمية، إذ من كان يحلم بأن تتحول مدينة مثل «أبوظبي»؛ التي لم يكن عدد سكانها يتجاوز 2000 نسمة سنة 1950، إلى مدينة عالمية وذكية اليوم تتفوق على مدن أوروبية وأمريكية عديدة (باريس، نيويورك...)

من كان يحلم أن تسعى دولة الإمارات وبخطى حثيثة وطموحة لترسيخ مكانتها في مجال الفضاء بإرادة أبنائها وهمتهم وطموحهم الذي لا يعرف المستحيل.

قد قالها صاحب السمو الشيخ محمد بن زايد آل نهيان، رئيس الدولة: «الإمارات أصبحت الدولة الـ 11 في التاريخ التي تشارك في مهمة طويلة الأمد في الفضاء». وها هو اليوم سلطان النيادي الذي ولد في قرية أم غافة، التابعة لمدينة العين في دولة الإمارات العربية المتحدة. وتلقى تعليمه في مدرسة أم غافة الابتدائية يصبح اليوم أحد رواد الفضاء العالميين ويقيم في المحطة الفضائية العالمية.

لم يكن أحد يحلم أن تنجح الإمارات في تسويق تراثها عالمياً وجعله تراثاً مستداماً من خلال الترويج له والاحتفاء به والحفاظ على تاريخه، وتقاليد وعادات المجتمع، وضمان انتقال التقاليد الثقافية من جيل إلى جيل التي ساعدت على التواصل مع الجذور التراثية الأصيلة. وعلينا أن تذكر المؤسسات التراثية العاملة في الدولة والمتاحف الحكومية والخاصة وإدارات الآثار وبرامجها السنوية الثابتة كتراث مستدام حيث تنظم العديد من البرامج المستدامة منها:

- تنظيم المهرجانات الثقافية، وإنشاء المراكز التراثية والمتاحف والمعارض وورش العمل والاحتفاء بالفعاليات الدولية التراثية.
- دعم الحرفيين المحليين بالحرف التقليدية وإبقائها على قيد الحياة للأجيال القادمة.
- تدريس التراث الثقافي والسنع الإماراتي في الجامعات ودمجه في المناهج الدراسية.
- الحفاظ على المواقع والمعالم التاريخية وهي أجزاء مهمة من التراث المستدام، والتأكد من أن الأجيال القادمة يمكنها التعرف على هذا التاريخ وتقديره.
- إعداد برامج التراث المستدام التي تقوم به مؤسسات الدولة التراثية والجهات المتخصصة والجامعات والمعاهد، وتزويدها بالمهارات اللازمة للعمل في مجال التراث المتوسع والمتزايد التعقيد.
- تدريب الشباب الإماراتي في بيئة تراثية متعددة التخصصات لفهم التراث وتعيينه وتقييمه والحفاظ عليه وتطويره كم هو الحال في نادي تراث الإمارات.
- مواجهة التحديات التي تواجه مشغلي السياحة التراثية، واتخاذ القرارات التشاركية، وتقاسم المسؤولية والفوائد، وإشراك المجتمعات المدنية في العمليات المستدامة.
- إدارة مواقع التراث العاملة في دولة الإمارات وتطويرها لمواكبة التطورات العالمية وكذلك الوقوف على مواقع التراث العالمي والاستفادة منها في مجالات التطوير المستدام.

لا شك أن المجتمع الإماراتي يفهم ويقدر الفوائد التي يجلبها تراث الإمارات للأجيال، ولماذا يجب احترامه والاعتزاز به وتعزيزه كجزء من روح المجتمع وهويته. وإتاحة التراث للجميع باستخدام الموارد الرقمية والحملات الإعلامية ووضع الأرشيف الذي تملكه الدولة تحت تصرف الباحثين والمهتمين. ومع هذه الخطط والبرامج التراثية المستدامة فإن الاستدامة في التراث تواجه تحديات مستقبلية على المستويات المحلية والعالمية. ولذا فهي تفرض علينا إعادة النظر وطرح الأسئلة من جديد من أجل التخطيط المستدام وهي:

- ما هو التراث وما هو غير ذلك؟
- كيف نسجل التراث ونحدد أولوياته ونحميها للأجيال القادمة؟
- كيف يمكن للمجتمعات المدنية المشاركة بمسؤولية في إدارة التراث؟
- كيف ندير مشاريع التراث بحيث تكون مناسبة من حيث الشكل والحجم وإكمالها في الوقت المناسب؟
- كيف نشارك في إنشاء التراث ونقله بطرق مستدامة، وخلق قيمة طويلة الأمد للمؤسسات التراثية والصناعات الإبداعية؟

للإجابة على هذه الأسئلة؛ فإنه لا بد من إنشاء برنامج مخصص للإدارة التراثية المستدامة يتضمن منهجيات ومقاربات من مختلف التخصصات والمشاركة مع العلماء الذين يعملون في علم الآثار والأنثروبولوجيا والجغرافيا والتاريخ الفكري وعلم الجمال والمتاحف والدراسات الثقافية والتصميم الرقمي.

خلال نهاية سنة 2016، صنفت «منظمة السياحة العالمية» الإمارات العربية المتحدة ضمن الوجهات السياحية العشر الأكثر زيارة في العالم، وأدرجت مدينتي دبي وأبوظبي في قائمة أقطاب السياحة الفاخرة والمتميزة الجديدة. وتمت الإشارة كذلك إلى النمو الكبير الذي يعرفه القطاع الفندقي وقطاع الطيران والنقل الجوي والسياحة الترفيهية والسياحة التراثية خلال العقود الثلاث الأخيرة، بالشكل الذي أسهم في إحداث نقلة نوعية للدولة من الاعتماد على الاقتصاد النفطي غير المتجدد نحو الاقتصاد السياحي المستدام.

في الواقع، ما تعيشه الإمارات اليوم هو محصلة عمل عقود من الجهد والاستثمار في مشروع مجتمعي منفتح على العالم شكل تحقيق حلم الاتحاد في نهاية سنة 1971 منطلقة الأساس.

لقد استطاعت الإمارات أن تقدم نموذجاً عربياً أصيلاً للانفتاح على الحداثة والمستقبل دون التفريط في الهوية والأصالة والانتماء وهي اليوم نموذج عالمي جديد في التعايش والحوار والتفاهم بين مئات الجنسيات المختلفة.

من برج العرب، مروراً ببرج خليفة ووصولاً إلى «هايبرلوب» (أنابيب مغناطيسية لنقل الركاب بين مدينتي دبي وأبوظبي في أقل من 12 دقيقة)، إلى متحف اللوفر ومتاحف الدولة والقلاع والحصون التراثية القديمة والجوائز والمعارض الدولية والمؤتمرات العالمية ومراكز البحوث والجامعات المختلفة التي أصبحت محطات مستدامة يشهد التاريخ على عظمة هذه الدولة كمعلمة حضارية مستدامة تعبر عن قوة الوحدة المحلية ودور القيادة الرشيدة في صنع المعجزات. إن هندسة المستقبل بما هو مشروع منفتح على عدد لا نهائي من الإمكانات والفرص التنموية والإصلاحية يدعو إلى الاعتراف بعظمة وحكمة القيادة المستنيرة لدولة الإمارات منذ تولي القيادة المغفور له الشيخ زايد وانتهاء بصاحب السمو الشيخ محمد بن زايد آل نهيان، رئيس الدولة، حفظه الله، في جعل دولة الإمارات العربية المتحدة قوة اقتصادية وتنموية مستدامة تقدم الرمز والبرهان على قدرة القيادات المستنيرة على تحقيق هذا الانتقال من عالم الصحراء إلى عالم متحضر مستدام وإلى المجتمع المعلوماتي انطلاقاً من انفتاحها على الآخر وحفاظها على هويتها وتراثها المحلي، والاعتراف المتبادل بدور كل المجتمعات الإنسانية في صناعة اللحظات الإنسانية المجيدة. ■

* أكاديمي وباحث في التراث

«عام الاستدامة» وأهمية المحافظة على التراث

فاطمة عطفة

تقول حكمة الأجداد إن الشجرة لا يمكن أن تتخلى عن جذورها أو تحيا من دونها، ومن لا يهتم بماضيه ويهتدي بتجارب الآباء لا يتمكن من بناء المستقبل الذي يرجوه ويسعى إلى بنائه. وبناء المستقبل لا يتم إلا بجهود الحاضر واستدامة كنوز التراث والمحافظة عليها. في بيئة سليمة مستدامة، لتكون جزءاً من ثقافة الحاضر وأمل المستقبل. وحول أهمية الاستدامة وضرورة المحافظة على تراثنا، تقول الروائية آن الصافي: جغرافياً، أرضنا في خريطة الكوكب الأزرق زخرت بحضارات عريقة وثقافات متنوعة. والتنوع الثقافي لدى شعوب منطقتنا كنوز ودرر ربما لا يوجد ما يماثلها غزارة وتفرداً، وأنا أتحدث هنا عن نوعي التراث المادي وغير المادي، مبينة أن لدينا ثقافات أصيلة لها جماليات وخصوصيات تعرف بها، وإذا تأملنا في محيطنا نرى تفاصيل الموروثات في المناسبات الاجتماعية ومنها طقوس الزواج وإعداد الطعام بتنوعه والأواني والأثاث والأدوات والآليات المتبعة في كل حقل، وحتى القيم والأمثال والأساطير المحكية والمنقولة في الشعروالقصص والرسومات، أي في الآداب والفنون كم هي مذهلة وجميلة تجمع كل ذلك، وتراكم عبر الأجيال وحقبات عريقة سابقة. وتضيف الصافي أن الوضع السياسي والاقتصادي يتحكم في واقع المجتمعات أحياناً، وقد يحدث ما يحتم التنقل بهدف اقتصادي أو بيئي أو سياسي، وهذا الأمر مقلق لأنه يعرض الموروثات التي تناقلتها الأجيال عبر حقبات زمانية تليدة للخطر عبر التخريب والهدم والاندثار، ويمكن أن تتعرض إلى الاستلاب الثقافي وضياع تفاصيل مهمة باندثارها وفقد جماليات هذه الثقافات وخصوصيتها.

مصطلح استدامة الثقافة

وتعود الصافي إلى مصطلح استدامة الثقافة حين ظهر أول مرة في عام 1995 من قِبل اليونسكو، وترى أهمية منظومة الاستدامة والتنمية والمحافظة على الثقافة عملاً على استدامتها ووضعها ضمن الاستراتيجيات والسياسات المرادفة، وتؤكد أن السعي ما زال مستمراً لكي نجني النتائج المرجوة بشكل كبير فيما بعد، والمهم أن الالتفات لأهمية استدامة الثقافة تم بشكل جاد وجيد. أما عن مشروع الكتابة للمستقبل الذي تعمل عليه، فهي توضح أن استدامة الثقافة واحدة من القضايا التي تعمل على تناولها عبر النصوص الإبداعية إظهاراً لأهميتها وفوائدها لأجيال اليوم والغد، مع الحث على النهل من الموروث الثقافي والحث على الاهتمام بالثقافات الأصيلة. وتضرب مثلاً من كندا حيث إن السكان الأصليين ألفوا التعايش مع البيئة والطبيعة هناك على مر السنين، لكن بقدوم الهجرات التي دحرت وجودهم على أرضهم استحدثت بعض مسارات قنوات المياه وخالفت ما كان يتبعه السكان

حارب الظاهري

شعيب الحمادي

آن الصافي

الأصليون، وبعد عقود ظهرت النتيجة إذ كان ما فعلوه مدمراً للبيئة، وعادوا لدراسة إمكانية العودة لما كان يتبعه السكان الأصليون. في وينبيغ آرت غاليري في الصيف الماضي أقيم معرض يحتوي قصصاً وصوراً وأدوات وموروثات لما تبقى ونجا من ممتلكات السكان الأصليين ولم تمسه يد المستعمر. وتتابع الروائية الصافي موضحة أن من الممكن أن تكون استراتيجية استدامة التراث مدرجة في جميع سياسات الدول، عبر التعليم وإقامة المهرجانات والمؤتمرات وتخصيص الصروح التي تعد متاحف، وفي الوقت ذاته تتم عبرها أرشفة الإرث الإنساني، وتطويع العلم والتقنيات الحديثة في مصلحة هذه الاستراتيجيات حتى تبقى استدامة الثقافة بحد ذاتها ثقافة للمجتمعات جميعها وتعمل عليها في كل حقل. وهذا يقتضي أن نكون واعين بقيمة ما لدينا بشكل أكبر وأكثر عمقاً، وعلينا جميعاً أفراداً ومؤسسات أن نحرص على دعم البحث والتنقيب والدراسة في حقل الثقافة والعمل على استدامتها بالسبل الممكنة كلها، ففي ذلك فوائد جمة منها الاقتصادية والعلمية، ومن المؤكد أن استدامة الثقافة وصون كنوز التراث مسؤولية تقع على عاتقنا جميعاً، حيث سيسجل التاريخ سعينا للحفاظ عليها دون تهاون أو تقصير.

شعار عام الاستدامة «اليوم للغد»

وحول أهمية الاستدامة الثقافية، يقول الكاتب محمد شعيب الحمادي: منذ قيام الدولة تكرّس الإمارات توجهاتها وخططها وعملها لمستقبل أبنائها، فأصبحنا في دولة الإمارات كما نحن عليه الآن. لذا كرست الدولة عام 2023 للاستدامة، حيث أعلنت «عام الاستدامة»، تحت شعار «اليوم للغد». ونرى أن «عام الاستدامة» في الدولة يتضمن مبادرات فردية وأنشطة اجتماعية ويتم تسليط الضوء على تراث دولة الإمارات من خلال دعم المؤسسات للمشاريع التي تهدف إلى الاستدامة. ويضيف الحمادي أننا نملك تراثاً غنياً يكمن في العادات المستمدة من البيئة الصحراوية، وحِرَفاً كانت ولا تزال مصدر الحياة لمن عاشوا في صحراء المنطقة أو شواطئ الخليج الدافئة والغنية بالتقاليد التي نعتز بها، مؤكداً أن من المهم أن نكون جزءاً من الخطط التي ترسمها الدولة لمستقبل أبنائنا وأحفادنا، وأنا أنظر بتقدير كبير للمزارعين الذين يهتمون بالبيئة ويحافظون على جمالها ويباشرون في زراعة المنتجات التي تحتاجها الدولة من الحبوب والخضروات والفواكه، ولا يتركون المزارع خاوية أو عارية من

غطائها الأخضر المفيد، لافتاً الانتباه إلى أهمية الاستفادة من المخلفات الزراعية من خلال إعادة التدوير الذي يساعد على الإنتاج ويحافظ على البيئة كما خلقها الله ناصعة لا يشوبها أي إهمال من رمي المخلفات أو حرقها أو دفنها دون معالجة. ويلتفت الحمادي إلى أهمية المحافظة على تراثنا البحري راجياً من الصيادين عدم مخالفة الأصول في الصيد والالتزام بتوجيهات المتخصصين في معرفة مواسم الصيد وأنواع السمك والبُعد عن الصيد الجائر والمحافظة على نظافة البحر وعدم رمي المخلفات التي تؤذي الحياة البحرية، موضحاً أن تراثنا يسافر معنا من الماضي إلى الحاضر، وعلينا أن نساعد على استمرار سفره إلى مستقبل أبنائنا، ويرى أننا جميعاً مسؤولون عن الاستدامة في شتى مجالات الحياة. وفي هذا السياق يبين أن «عام الاستدامة» يهدف إلى إبراز الجهود التي تقوم بها دولة الإمارات العربية المتحدة في تعزيز العمل الجماعي الدولي لمعالجة التحديات التي تواجهنا لتأمين الاستدامة والمحافظة على دورها في البحث عن حلول مبتكرة يستفيد منها الجميع.

الإمارات و«عام الاستدامة»

وفي لقاء مع الكاتب حارب الظاهري أكد أن الاستدامة تعني التنمية بمفهومها الشامل، وتلبي حاجات الحاضر دون المساس بقدرات الأجيال القادمة. فمن هذا المنطلق أطلقت الإمارات «عام الاستدامة»، وهو بلا شك عام جميل لما يحمله من

فضاءات تلامس الحياة بتجلياتها ومواعيدها وقضاياها كلها التي تمس الماضي والحاضر والمستقبل. ويكتب لنا هذا العام جمالية ثقافية واجتماعية تشغل حياتنا التي باتت تؤسس بشكل علمي وثقافي بمساراتها الزمنية، ومن الطبيعي أن يكون للنماء الثقافي والاجتماعي مؤثراته وتفاعله الحقيقي في بث الحياة من جديد، وفي المحافظة على الموروث المتعدد في جوانبه، ولا نرسخ المفاهيم الكبيرة في حياة المجتمعات إلا برؤى ثابتة تحقق رؤية الاستدامة التي تنسجم مع الفضاءات الثقافية، وأولها الموروث الثقافي المعتنى به في تحولاته الجميلة والمحافظة عليه في سجل الفكر والأدب وترجمة معانيه في عقول النشء. ويوضح الظاهري أن الموروث هكذا يستديم في حياة الأجيال بالمعنى الكبير، وقد سبقت الإمارات الدول بالمحافظة على مكوناتها وموروثها الثقافي، وسجلت كثيراً منه في التراث العالمي، وما زال هناك ما تعمل عليه الإمارات في ترجمة الخصوصية التاريخية كمنجز ثقافي بمنصة التعريفات الثقافية العالمية. ويتابع الظاهري أن الإمارات أكدت الكثير من منجزاتها العلمية، ومنها: في عالم الفضاء فكان هذا المنجز قائماً على المعرفات الثقافية الإماراتية، والرهان على اللغة العربية ضمن اللغات العالمية، وهي الوعاء الحقيقي للتراث والثقافة بأنماطها المختلفة.

ويتم ذلك بالتخطيط السليم للاستفادة من البيئة وعواملها، من الهواء والطاقة الشمسية وتجدد علاقة الإنسان بالبيئة النظيفة، كما هي مشاريع الحد من التلوث والمشاركة في المنظمات الدولية، مبيناً أن الإمارات عنصر فعال في كثير من التجارب العالمية والعلمية، وقد عملت منذ زمن في بلورة هذه الأفكار أمام الأجيال لترجمتها خير ترجمة، والدال على ذلك محطة براكة التي كانت منذ إنشائها منعطفاً تاريخياً في المنطقة ومبادرة مهمة في كيفية التعامل مع المستقبل القريب والبعيد، فكتبت الإمارات التاريخ في بلورة الطاقة النووية في خدمة الإنسان وبيئته. ولدينا منظور جميل سيؤتي ثمار هذه المشاريع من نواحٍ عدة حياتية، كما أن المحافظة على البيئة البحرية والصحراوية لم تكن إلا منطلقاً مع بداية قيام الإمارات، حيث عملت على الحد من التصحر وأقامت التجارب الزراعية في بحوثها للتقليل من تأثير المناخ في الحياة، وقامت بالكثير من عملية استمطار السحب إدراكاً منها في خلق بيئة تتجدد من خلال محطات الاستدامة بمفاهيمها المتعددة ■

* إعلامية وصحفية من سوريا

استدامة في البنيان .. نهج وتراث

مريم سلطان المزروعي

إن التراث هو ركيزة المستقبل، وذخيرة الأجيال، ومستودع حكمة الأجداد ومعارف الأسلاف الأوائل، ولا يمكن من دونه تحديد خطى واضحة وثابتة إلى المستقبل من غير أن نربط ما بين مواضيع التراث حتى تتوافق مع معطيات المستقبل، وتعطي صورة جميلة منه للأجيال القادمة، ولكي نضمن وصول التراث إلى الأجيال القادمة تأتي هنا دور الاستدامة، وهذا لا يأتي إلا بتكاتف الجهود وتضافرها لإيصال التراث إلى القمة بحلة مبدعة جميلة تتوافق مع المعطيات وتنسجم معها، في بدايات عام 2023 أعلن رئيس الدولة، صاحب السمو الشيخ محمد بن زايد آل نهيان - حفظه الله - أن هذا العام «عام الاستدامة»، وعليه وُضعت الأهداف التي هي الركيزة والمؤشر الذي منه سوف ننطلق منها إلى العالمية بـ«استدامة التراث»، ويهدف «عام الاستدامة» إلى نقاط عدة يركز ويبحث عليها في شعاره «اليوم للغد»، ويمثل تجسيداً لاهتمام سموه البالغ بتعزيز البيئة ومفهوم الاستدامة الذي يعَد من أولويات دولة الإمارات العربية المتحدة؛ حيث إنه يعزز موجات التغير المناخي. وتتمتع الاستدامة استراتيجياً باحتوائها على ركائز عدة أساسية، وُضعت أهدافها من ضمن خطط الخمسين عاماً المقبلة:

1. تسليط الضوء على تراث دولة الإمارات العربية المتحدة الغني في مجال الممارسات المستدامة، منذ عهد الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، رحمه الله وطيّب ثراه.
2. نشر الوعي حول قضايا الاستدامة البيئية.
3. تشجيع المشاركة المجتمعية في تحقيق استدامة التنمية.
4. دعم الاستراتيجيات الوطنية في هذا المجال نحو بناء مستقبل أكثر رخاءً وازدهاراً.
5. إبراز الجهود التي تقوم بها دولة الإمارات العربية المتحدة في تعزيز العمل الجماعي الدولي لمعالجة تحديات الاستدامة ودورها في البحث عن الحلول المبتكرة ليستفيد منها الجميع على الساحة الدولية.
6. استدامة التراث في المهرجانات والفعاليات التراثية والتغييرات والتطورات التي شهدت الأنشطة والفعاليات.

التراث هو شكل ثقافي أو أسلوب في الحياة أو نمط تعبيري مادي وغير مادي أو معنوي يستمر عبر الزمن وينتقل من جيل إلى آخر، وإن استمراريته تعدّ قيّمة في حد ذاتها، يذكر المهندس عبدالرحمن مخلوف - رحمه الله - في كتاب «العمارة التقليدية والحضرية في دولة الإمارات»، في مقالة تحت عنوان: «أبوظبي لمحات عن رحلة تحديثها يقدمها أحد شهود العصر»: قبل التعرض لعملية تحديث أبوظبي لابد من القول إن المدن المُنْشَأة تمر بخطوات ومراحل وظيفية واجتماعية، وهي مرحلة تهيئة البيئة للحياة

والعمل، ومرحلة الإنشاء والتطوير الشامل لعناصر المدينة ومجتمعها، ومرحلة التوازن الوظيفي والاجتماعي للمدينة، ومن الواضح أن هذه الخطوت لا تنتهي إحداها لتبدأ التي تليها، ولكنها خطوات متوازية متداخلة، تقوم فيما بينها علاقات تبادلية. لقد قام الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - باختيار مواقع العناصر العمرانية، ومناطق الاستعمالات المتنوعة مثل المصفح، والمدينة الرياضية، والمطار الدولي، وشاطىء الراحة، ومن أهم هذه المعالم حاجز الأمواج أو ما يعرف حالياً باسم «الكاسر» في كورنيش أبوظبي، وكان السبب وراء إقامة هذا الحاجز هو الأمواج العالية التي كانت تضرب شواطئ أبوظبي وتغطي الكورنيش كله بالمياه وخاصة عند دوار الساعة عند بداية تفرع طريق المطار من جهة الكورنيش، ويعتبر حالياً من أهم الملامح السياحية للمدينة، ومن هذه الأمور نتبين إحاطة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، الشاملة والعميقة بجميع أبعاد العمل العمراني، وما تحقق خلاله من إنجازات رائعة، ونتبين كيف وكم تسامى بها إلى مرتبة بناء حضارة إنسانية متكاملة». إن مدينة أبوظبي تعّد من المدن الجميلة بالمقاييس كلها، وأرض خصبة محملة بمخزون الذكريات؛ تشكلت بها العديد من المعالم التي عكست طبيعة المدينة والحياة فيها، من النواحي جميعها التراثية والثقافية والبيئية، ويمثّل بقاؤها شاهداً على تفردها صناعةً وممارسةً، فهي حصيلة ما أنتجه الأسلاف في تفاعلهم من المحيط الطبيعي، تتجسّد فيه خبرة الماضي مجتمعة في مجال محدّد، وهي كذلك دليل على قدرتها على التكيّف مع المعطيات الطبيعيّة، وإن هذه المعالم ما هي إلا نتاج عمل وخبرة، وإن الموقع وخبرة السّكان تتبلور من خلال ملاحظة إمكانات المواد وكسب المهارات، كنماذج المنازل التقليدية التي تعطي للإنسان الأساس اللازم للتشكيل والتفاعل المكاني المتكامل والمتواصل، والمدخل لاستدامة عمائرنا التراثية، من قدرة توليدية لأشكال جديدة تفيد العملية التصميمة والممارسة المعمارية كلها، ما يعكس تقنيات العصر، وبطرح هذه التقنيات يتحقق التوازن التعبيري التبادلي بين التراث المحلي من جهة وتقنيات العصر من جهة أخرى، فالقيمة في السكن التقليدي تنوعت وتطورت ما بين بيوت الخيام إلى بيوت العرش (العريش) وبيوت البراجيل (برج التهوية) المصنوع من الطين أو الصاروج الذي يُبنى فوق البيت، ومن البيوت الشعبية التي بُنيت في الفرجان والأحياء كمدينة «بارهوز أو باورهوس» إلى الفلل والقصور، وهذا يعتبر إبداعاً مشحوناً بالإرث الحضاري للمجتمع في فترة من الفترات، وجزءاً من ذاكرة محلية جماعية، يعكس الهوية بتفاصيلها كلها، ومجموع الخبرات تعتبر مكتسبات، تنقل الخبر من جيل إلى جيل آخر، وتقدم مجموعة من القيم الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية التي تمثلها مسيرة تشكُّل ساكنها الذي عايش هذه الخبرات والقيم، لتحقيق المعادلة ما بين الشكل والمضمون، إن المحافظة على هذه البيوت مثلها مثل عمليات الترميم والتجديد في المبنى الواحد وتحويله إلى مَعْلَم يمكن للزوار والسياح زيارته أو يوضع في المتاحف والمزارات السياحية، والعمل على إعادة بنائه كرمز من رموز المعالم الأثرية. إن اندماج الماضي الأصيل بالحاضر يستحق المحافظة عليه والدفاع عنه ضد أي تغييرات سريعة. وقد تولت دائرة الثقافة والسياحة مسؤولية حفظ الإرث الثقافي والتاريخي لإمارة أبوظبي والاحتفاء به، من خلال إعداد برنامج واسع شمل جوانب عدة كتنظيم الفعاليات الثقافية والمهرجانات، مثل: مهرجان قصر الحصن، ومهرجان الحِرَف والصناعات التقليدية في سوق القطارة التراثي في العين، ومهرجان أم الأم، وإقامة المعارض الفنية المؤقتة على مستوى الإمارة من أرض المعارض إلى منارة السعديات، كما عملت على تطوير المتاحف بأنواعها، وهذا كله قد تم وضعه في دائرةٍ وإطارٍ وخطوات] واضحةٍ محلياً وعالمياً، بهدف تعزيز الحوار ما بين الثقافات والترويج لإمارة أبوظبي باعتبارها واجهة ثقافية سياحية رائدة وجاذبة للسياح والزوار والمقيمين، والسعي للتعريف بقصة تطور أبوظبي وسردها للربط ما بين الأبناء والآباء والأجداد من أجل وضع أسس قوية لبناء المستقبل. هناك الكثير من المناطق السياحية في الإمارة التي اعتمد معظمها في منظمة «اليونسكو للتراث العالمي» كمدينة العين بمواقعها الأثرية وأفلاجها وقلاعها وحضارة حفيت، وهناك 12 موقعاً مرشحاً للدخول إلى القائمة من أم النار إلى السبخة الساحلية في أبوظبي

جنوب جزر الضبعية أبو الأبيض، ومن المواقع الأثرية والمباني التاريخية والمراكز المجتمعية إلى حوار الحضارات فكانت جهات ملهمة تتحدث عن تاريخ أمة وصلت في الوقت الحالي إلى العالمية بقيم التسامح والتعايش الإنساني عندما تم افتتاح «بيت العائلة الإبراهيمية»، الذي يعتبر رمزاً للتفاهم المتبادل والتعايش المتناغم والسلام بين مختلف أبناء الديانات وأصحاب النوايا الحسنة. فهذا المشروع تضمن مسجداً وكنيسة وكنيساً يهودياً ومركزاً تعليمياً، ويقام في جزيرة السعديات التي تمثل قلب الثقافة النابض بالحياة.

ويحترم التقاليد ويحتفي بالتعايش والشعائر الدينية. يقول يوري لوتمان: «إن ما يحدث اليوم من تطورات فكرية وتكنولوجية وعلمية، شملت جوانب الحياة المختلفة؛ كان لها بالغ الأثر على النتاج المعماري والحياة الاجتماعية، والثقافية والفنية فيها، وأصبحت العمارة المعاصرة مجرد انعكاسات لعمارة غريبة لها مفاهيمها ورموزها وأشكالها وإيحاءاتها الخاصة». وإن تصاميم المنازل مستمد من طرز موغلة في الحداثة في تضارب مع الذوق التقليدي، يتم الانسجام بينها من خلال التعامل مع اللون والشكل وتقاسيم الفضاء الداخلي للمسكن وتهيئته، مواد وطرز وزخارف، وعند الربط ما بين التصميمات العمرانية والمعمارية بالبيئة الطبيعية الخاصة بالمجتمع وبالمنطقة؛ حيث يؤدي ذلك إلى استمرارية تفاعل الناس مع الطبيعة والبيئة، واحترامهم لمدلولاتهما الرمزية، وإن التوق إلى ماضي الأمكنة، يؤدي إلى أن تسكن الذكريات وصور الزمان المفارق، وهو دعوة إلى التّمكن من الماضي في إعادة استحضاره وإيوائه وتجديده. تذكر الدكتورة ابتسام الكتبي في مقالة «نموذج دولة الإمارات في بناء القوة - رؤية محمد بن زايد»: «لا تزال تلك البصمة حتى يومنا مستمرة، وقد تركزت في جوانب عديدة، منها: توسيع حجم

الاقتصاد الإماراتي، وقيادة النهضة التنموية والعمرانية والثقافية في العاصمة أبوظبي خلال العقدين الماضيين، فغدت شواطىء أبوظبي وسواحلها ومنطقة كاسر الأمواج والكورنيش والجزر الأكثر بُعداً شيئاً مختلفاً وجذاباً، نقل العاصمة إلى عهد جديد، عكس تحولاتها السريعة واحتضانها للتطور الاقتصادي والتوسع العمراني والتنوع الثقافي، انتظم ذلك كله في قوانين وإصلاحات وتشريعات حديثة ومتجددة، ومع العقد الأول من الألفية الحالية وجدنا نمواً إماراتياً متواصلاً في إجمالي ناتج القطاعات الاقتصادية غير النفطية، وبالتحديد قطاع التجارة والصناعات التحويلية والتشييد والعقارات... إن الروح التي تسري في رؤية صاحب السمو الشيخ محمد بن زايد آل نهيان لتقوية موقع الإمارات ومكانتها وريادتها تستند إلى إبداء درجات عالية من المرونة وسرعة التكيّف مع المتغيرات الإقليمية والدولية، من أجل ترسيخ تفكير إيجابي يقوم على محاولة تحويل التحديات إلى فرص، والإيمان بأن ثمة فرصاً تستحق المخاطرة من أجل نيل ثمارها، وأن الحذر غير المبرر إزاءها سيفوّتها» ■

* كاتبة من الإمارات

التراث المُستدام.. ركنٌ رابعٌ للاستدامة

خالد صالح ملكاوي

تشغل فكرة «الاستدامة» بال كل من تقلقه معطيات الوضع الراهن والاستجابة لمتطلباته، ويؤرقه التطلع إلى تطورات المستقبل، والإسهام في تعزيزها، وتمكين الحصول على الاحتياجات المرتبطة بها، حتى غدا هذا القلق والأرق عالميين يشغلان العالم بأسره، وصارت الاستدامة هي الأمل المنشود الذي يستدعي قمماً ويحرك أمماً، وتُرسَم له الاستراتيجيات وتُعَد الخطط، من أجل تنمية تقوم على التوازن بين الاستدامة البيئية والاقتصادية والاجتماعية، إضافة إلى استدامة التراث الثقافي التي غدت، مؤخراً، من الركائز المهمة في الاستدامة الشاملة. يرتبط مصطلح «استدامة» بمفاهيم التنمية في العالم المعاصر، وظهور ما يعرف اليوم بالتنمية الشاملة المستدامة. والاستدامة في جوهرها هي شأن تنموي جماعي، تمارسه الدول وحكوماتها، خاصة المستنيرة منها. ما يجعل التنمية المستدامة مرتبطة بشكل وثيق بمقولات التنمية والتحديث الاقتصادي والاجتماعي والبشري، وتتطلب أن تكون المجتمعات قادرة بوعي أن تدير مسيرة استدامتها بطرقها ووسائلها الخاصة بها، للوصول إلى توفير احتياجاتها الحالية دون المساس بقدرات الأجيال بالمستقبل في أن تلبي احتياجاتها.

فالاستدامة هي نموذج حياة، يضبط تلبية حاجات الحاضر دون المساس بقدرات الأجيال المستقبلية على تلبية حاجاتها الخاصة. فيقوم هذا النموذج المنشود على إمكانات الجيل الحالي في تحقيق الاستدامة من ناحية، وإمكانات الأجيال القادمة وقدرتها على الاستمرار في ذلك من ناحية أخرى. فهو يعني العمل على تحقيق التنمية المستدامة التي تستهدف مواءمة التنمية الاجتماعية والاقتصادية مع الأولويات البيئية، من أجل الحد من التدهور البيئي الحالي وتغير المناخ مع الحفاظ على الموارد الطبيعية قدر الإمكان بما لا يتعدى قدرتها على التجدد من أجل مستقبل الأجيال القادمة، والعمل على تحقيق تنمية طويلة الأمد. ولعل أبرز تعريف لمفهوم «الاستدامة» هو ذاك الذي ورد في وثيقة الأمم المتحدة الصادرة عام 1987م، بعنوان «مستقبلنا المشترك»، إذ تقول الوثيقة: «الاستدامة هي التنمية التي تستجيب لاحتياجات الوضع الراهن، مع الأخذ في الاعتبار الإمكانات المطلوبة من أجيال المستقبل لتأمين متطلباتها». ما يعني أن جوهر الاستدامة هو حماية أرضنا ومواردنا وبعضنا بعضاً، من أجل غدٍ أفضل.

التراث وركائز الاستدامة

صحيح أن مفهوم الاستدامة يبدو في ظاهره ملازماً للبيئة نظراً لما يتهدد بيئتنا من مخاطر صارخة تحيق بالمناخ وبالموارد الطبيعية، وصحيح أن التنمية الاقتصادية والتنمية الاجتماعية شكلتا الركنين الآخرين للاستدامة أيضاً، غير أن واقع الاستدامة وثيق العرى بالتنمية الثقافية التي تتماهى في أهميتها مع بقية الأركان، وهي من ركائز تحقيق الاستدامة، ودون التنمية الناجعة في أي من هذه الركائز يعني أن الاستدامة منقوصة، بل هي تنمية عرجاء ولا ترقى لأن توسَم بالاستدامة.

وقد ظل التراث الثقافي طويلاً على أطراف السياسات البيئية، وصُنّفت الاستدامة الثقافية دائماً ضمن الركن الاجتماعي لأركان الاستدامة الثلاثة، إلا أنه، مع التطورات الأخيرة في مجال الاستدامة، تطورت الاعتبارات لجعل الاستدامة الثقافية ركيزة خاصة بها، نظراً لأهميتها المتزايدة في المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والبيئية، لاسيما أن أهمية الاستدامة الثقافية تكمن في قوتها المؤثرة على الناس الذين هم غاية الاستدامة ووسيلتها؛ فالقرارات الخادمة للاستدامة التي تُتَّخذ في سياق المجتمع تنقلها بشدة معتقدات ذلك المجتمع التي يحملها موروث المجتمع الثقافي.

فالتراث المستدام يشكل اليوم أصلاً أساسياً للتحول البيئي. وتعتمد التنمية المستدامة على تشجيع التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ودعمها معاً. وإن البحث في التنمية المستدامة اليوم يتم ربطه بالاقتصاد وتعريفه بدراسة الثقافات وعلم النفس، باعتبار أن للعديد من العناصر التراثية أهمية اقتصادية كبرى، كونها من أهم الموارد الاقتصادية إن أُحْسِنَ توظيفها وأُتْقِن العمل على استدامتها. وبعيداً عن التقليل من أهمية المضامين التي تختزنها العناصر التراثية بأبعادها الوطنية والحضارية والتاريخية، التي يشكل الحفاظ عليها وتعزيزها

في النفوس وتعريف الآخرين بها غاية عليا في مفهوم «التراث المستدام»، ثمة من يُرجع هذا المفهوم إلى وجهة نظر اقتصادية ثقافية، فيشير، على سبيل المثال، إلى التخوف من تهدُّم الآثار والمباني التراثية بعد عمليات ترميم تكلّف الملايين، لذا كان من الضروري الوصول إلى أفضل الطرق للمحافظة على الآثار والمباني واستدامتها، والعمل على جعلها دائماً في أفضل صورة لجذب العديد من السائحين للتعرُّف إلى تراث وتقاليد شعب هذه المباني التي تشهد على جانب من حضارته، وتعرض بعضاً من تراثه، وتحتضن صوراً من إبداعاته.

ولا يعيب وجهة النظر الاقتصادية الثقافية هذه أمراً، مادامت في إطار الاستدامة الصحيحة؛ فالعائد المادي إما أن يذهب إلى اقتصاد الدولة، وإما أن يسهم في الحفاظ على المباني نفسها، وإعادة ترميمها وتطويرها، وبالتالي الحفاظ على استدامتها، وتفعيل دورها في جانب حيوي متعلق بمفهوم «السياحة الثقافية والاستدامة».

من التراث المستدام

وتتشابك في نسيج هذا المفهوم مفردات ومعطيات متعددة تتغذى من آليات الاستدامة وترفدها في الوقت نفسه؛ إذ يتضمن المفهوم التفسير والعرض والترويج للمادة الثقافية، والمتاحف التراثية والاستدامة، والترويج والتسويق للتراث العمراني، والبُعد الاقتصادي وأثره على استدامة السياحة الثقافية، والتوازن بين التنمية المستدامة ومتطلبات السياحة والحفاظ على التراث العمراني والسياحة وأثرها على الحفاظ على التراث العمراني.

وفي هذا الأمر، تبرز أهمية المباني الأثرية والتراثية، وهي الأكثر وضوحاً في عكس ما تتلقاه من استدامة في الحفاظ عليها وبثّ الحياة بين جنباتها، وكذلك في إبراز ثمار الاستدامة ونتائجها التي عنَتْها عمليات الحفاظ والسياسات وآليات العمل التي شملت هذه المباني ورَعَتْ حمايتها وديمومة حيويتها.

ومع تطور المفاهيم في حقل الحفاظ على المباني الأثرية والتراثية تحوَّل المفهوم الأولي تدريجياً من حماية المباني التاريخية إلى مفهوم الحفاظ المستدام، ليشمل عملية الإبقاء وصون المنشأ جنباً إلى جنب، مع الأخذ في الاعتبار إدراك القيم المتعلقة به وبسيرته، وعلاقته بنسيجه الحضري وخصائص مجتمعه الموجودة ضمنها وارتباطاته بها. وغدت عملية الحفاظ على التراث واستدامته في المباني التراثية ذات مستويات متعددة، تبعاً لحجم التراث ونوعه وأهميته، فصارت تشمل الحفاظ على العناصر التراثية، والحفاظ على المبنى الواحد، عبر عمليات الترميم والتجديد للمباني التراثية وتحويلها إلى متاحف أو مزارات سياحية، والحفاظ على مجموعة من المباني، أو منطقة تراثية كاملة. فلم تعد عملية الحفاظ على المباني التراثية تقتصر على الحماية، بل صارتمة سياسات لعملية الحفاظ، تتضمن الحفاظ

الوقائي والحفاظ العلاجي الذي يشمل الحماية والحفظ والتدعيم الإنشائي والترميم والاستعادة وإعادة التأهيل والاستنساخ وإعادة الإنشاء، كما تشمل آليات ودرجات تَدَخُّل أخرى كسياسات التجديد والصقل والإصلاح والاحتفاظ والاسترجاع والاستبدال وإعادة التطوير وإعادة الأحياء وإعادة التمثيل، وبالتالي استنطاق التراث، كي يتاح للزائر أن يعيش ما حملته هذه المباني في طيات عمرها من صفحات تاريخية هي جزء من موروث ثمين. وكما أن المباني التراثية تشكل إحدى صور استدامة التراث، فإن للانتفاع بالأنشطة السياحية المتعلقة بالتراث الثقافي غير المادي صوراً أخرى من صور الاستدامة؛ إذ يُعدّ تنوُّع التقاليد والفعاليات الاحتفالية وفنون الأداء والمهارات المتعلقة بالحرف اليدوية التقليدية وغيرها من مجالات التراث الثقافي غير المادي رافعة قوية لجذب السياح على الصعيد الوطني والإقليمي والدولي. ويمكن لهذه الأنشطة السياحية أن تدرَّ الدخل وتستحدث فرص عمل وتنمّي الشعور بالاعتزاز لدى الجماعات المحلية في الوقت ذاته، شريطة ممارستها باحترام المبادئ الأخلاقية ومبادئ المسؤولية تجاه التراث الحي والأشخاص المعنيين. وللموروث الثقافي دور رئيسي يؤديه في التحول الرقمي المسؤول والمستدام، إذ ينشط القطاع الثقافي في مجال المسؤولية البيئية الرقمية. وقد شهد العالم مثل هذا النشاط خلال فترة العزل التي فرضتها جائحة كورونا مؤخراً، فولَّدت الجائحة استخدامات متطورة من الواقع الافتراضي لكثير من مكونات الموروث الثقافي. كما أن ثمة مؤسسة دولية وضعت من أهم أهدافها ربط المعرفة من مختلف المجالات من أجل جعل الوسائل التكنولوجية متاحة لاستخلاص إمكانات التراث في عالم التكنولوجيا الرقمية.

فقد أطلق مركز إيكروم (المركز الدولي لدراسة صون الممتلكات الثقافية وترميمها) الذي تحظى الإمارات دون غيرها بمركز إقليمي له في الشارقة، مبادرة «التراث الرقمي المستدام»، كي تستفيد منظمات التراث من البيئة الرقمية بطرق عدة. يتضمن ذلك وسيلة للتفاعل مع المستخدمين والمستفيدين والجماهير؛ من أجل الحفاظ على محتوى التراث في المستقبل، وكذلك لاستكشاف الاستخدامات المبتكرة لدراسة التراث وتحليله.

الإمارات.. نموذج الاستدامة

وتعد دولة الإمارات العربية المتحدة نموذجاً مثالياً يُحتذى به في تعزيز مفهوم الاستدامة؛ فهي من أكثر دول العالم سعياً لخدمة الاستدامة، وذلك بجهودها واستراتيجياتها الملهمة ومبادراتها

الريادية، وبسياساتها وتشريعاتها السبّاقة، وباستثمارها السياحي للمناطق التراثية ورفع الوعي بقيمتها، وبسبل تنمية التراث العمراني واستدامته، وباستنهاض همم وعزائم مكونات المجتمعات المحلية لتشجيع المشاركة المجتمعية، إذ تعلن العام الحالي عاماً للاستدامة، تعزيزاً لسجلّها الثري في الحفاظ على الاستدامة، ما بوأها مكانة ريادية عالمية؛ فهي شريك ملتزم ومسؤول وموثوق به على المستوى الدولي، وهي في موقع مثالي لتعزيز الإجماع الدولي على تصميم وتنفيذ حلول مبتكرة وعملية.

وكانت الإمارات قد شهدت خلال العقود الماضية تحوّلاً بارزاً في إطار عملية التنمية الثقافية واستدامة التراث وتعزيز جهود الحفاظ على هوية شعب الإمارات وثقافته، وذلك من خلال ما زرعه المؤسس المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان «طيّب الله ثراه»، من تمسُّك بالتراث واعتزازبه، بالتوازي مع تعزيز مكانة الإمارات كإحدى أكثر دول العالم تطوراً حضارياً وانفتاحاً فاعلاً على العالم وثقافاته وحضاراته وتأثيراً إيجابياً في الحوار بين الثقافات المختلفة. وتُوّجت الجهود الكبيرة التي قادتها الدولة منذ عام 2005م. في إطار حرصها على صون وإحياء واستدامة مقوّمات التراث الإماراتي الأصيل، بالحصول على أهم اعتراف عالمي بمشروعية جهودها وغناها الحضاري، وذلك بتسجيلها العديد من عناصر موروثها الثقافي في القائمة التمثيلية للتراث الثقافي غير المادي للبشرية في منظمة اليونسكو، هذه المنظمة التي أصبحت الإمارات ثاني أكبر داعم عربي لها، عبر علاقة بدأت منذ تأسيس الدولة، حيث كان التركيز ينصبُّ على ملف التربية لأهميته، آنذاك، فيما يتم التركيز الآن على ملف الموروث الثقافي، أحد ركائز الاستدامة التي ينشدها العالم.

* باحث وإعلامي

التراث في حياة الشعوب

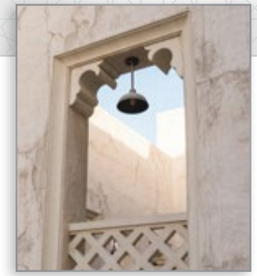

موزة سيف المطوع
باحثة وإعلامية إماراتية

يمثل التراث هوية البلدان التي بها تعرف، فدائماً ما تجد معظم الشعوب تتفاخر وتتغنى بإرثها الثقافي والمادي، وتسلط الإعلام عليهما، فإبراز الخلفية التاريخية يمد الدولة بثقل وقوة تاريخية حضارية ومكانية مهمة يجعل حضورها وأهميتها أكبر أمام الجميع. فقد أدركت الدول أهمية التراث فروّجت له واهتمت بإبرازه محلياً وعالمياً، ونمّت الحس الوطني والانتماء الاجتماعي واستطاعت جذب اهتمام المهتمين بالموروثات الثقافية والفكرية والمقتنيات الأثرية، التي أسهمت في دعم الدولة تجارياً من خلال زيادة نسبة السياح لتصبح ركناً مهماً في الدعم التجاري والحضاري والثقافي.

موروث الدول يتمثل في انتقال العادات والتقاليد والعلوم والآداب والفنون والمورثات الدينية والاجتماعية التي تختص بها كل دولة أو جماعة، ونتيجة لإيلاء التراث الاهتمام الذي يستحقه تم الحفاظ على هذا الإرث وأصبح في مأمن من الاندثار أو فقد هويته في ظل تلاقيه مع ثقافات الدول الأخرى الناتج من التطور السريع الحاصل في العالم، فتجد مشاريع معمارية ضخمة مستوحاة من التراث، ومعارض عالمية أسهمت في تقريب المجتمعات ثقافياً وفكرياً، مع الاهتمام بتشجيع المجتمع على الحفاظ عليه وبتنشئة أجيال متشربة بحب تراثها مما ضمن استدامته وسهولة انتقاله للأجيال القادمة ليمثل ركيزة أساسية لاستمرار مسيرة الأجيال.

اهتمت دولة الإمارات العربية المتحدة بالتراث وأولته اهتماماً بالغاً، وأنشأت المراكز واستقطبت الأجداد وحافظي التراث، ودعمت الباحثين واهتمت ببحوثهم لتوثيق التراث، وبالآثار التاريخية وعملت على صيانتها والحفاظ عليها وتحويل ما هو مناسب منها لمتاحف ومراكز لعقد المؤتمرات والدورات وكذلك تهيئتها لاستقبال الطلبة ومحبي التراث والسياح للتعرف عن قرب على الآثار التاريخية.

تراث الإمارات له خصوصية جميلة ومتنوعة من الحياة البرية والجبلية والبحرية وتم الاهتمام بتقديمه بصورة جميلة تتمثل فيه روح الأصالة فمن المباني التاريخية والقلاع والحصون والمساجد إلى إحياء التراث غير المادي من الفنون الشعبية والمعتقدات الشعبية والخرايف والأمثال والألغاز وعادات الزواج والمناسبات المختلفة، ومهارات عديدة مثل حياكة السدو وحرفة التلي والأزياء التراثية وسعف الخوص وإدخاله في خطوط الموضة، وبناء السفن والمراكب والغوص ومرافئ الصيد والاستمتاع بسباقات القوارب الشراعية وسباقات التجديف وسباق الهجن، وفن التغرودة وهو الشعر البدوي التقليدي المُغنّى على ظهور الإبل وفنون الأداء الشعبي مثل العيّالة والرّزيف والشلّة والونّة والشعر النبطي، وفن الصقّارة وهو الصيد بالصقور، ومجلس الضيافة والقهوة العربية بأصولها، والرعي وتربية الإبل والزراعة والأفلاج والنخلة المعطاءة بمنتجاتها المتنوعة، وصناعة الأواني النحاسية والفخار وبيوت القفل وصناعة الأدوية الشعبية والعطور وصناعة البهارات والتنوع في الأكلات والأصناف الغذائية وغيرها الكثير ■

إطلالة على محاور عام الاستدامة في دولة الإمارات

علي تهامي

لدولة الإمارات رؤى استراتيجية واضحة، وخريطة طريق مُحددة لتحقيق إنجازات نوعية شاملة في شتى القطاعات الحيوية التي من شأنها تعزيز ازدهار الدولة بشكل مستدام، وضمان بناء مستقبل راسخ لأجيالها بعيداً عن الاعتماد على الموارد النفطية.

وتسعى دولة الإمارات العربية المتحدة إلى مواكبة التطورات العلمية، ومواجهة التحديات المحيطة بها من أجل تنفيذ السياسات التي تُعنى بتطبيق الاستدامة، ونتيجة لذلك فقد تم تبنّي العديد من البرامج والخطط والاستراتيجيات قصيرة وبعيدة المدى من أجل تحقيق تلك المساعي.

وقد شهدت الإمارات في الفترة الأخيرة إنجازات كبيرة على صعيد المؤشرات الدولية في القطاعات المختلفة.

وشكّل إعلان رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة صاحب السمو الشيخ محمد بن زايد آل نهيان عام 2023 «عام الاستدامة» تحت شعار «اليوم للغد» تتويجاً لمسيرة الدولة الزاخرة في مجال الاستدامة والحفاظ على البيئة، ونقطة تحول في دفع الجهود الدولية من أجل تعزيز العمل المناخي.

وقد شملت الخطط والاستراتيجيات والتوجهات الخاصة بعام الاستدامة، التراث المستدام، ومنهجياته، والسياحة الثقافية، فضلاً عن الحلول الذكية للحفاظ على التراث.

ويهدف «عام الاستدامة»، من خلال مبادراته وفعالياته وأنشطته المتنوعة، إلى تسليط الضوء على تراث دولة الإمارات الغني في مجال الممارسات المستدامة، منذ عهد المؤسس الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - رحمه الله - إضافة إلى نشر الوعي حول قضايا الاستدامة البيئية وتشجيع المشاركة المجتمعية في تحقيق استدامة التنمية، ودعم الاستراتيجيات الوطنية في هذا المجال نحو بناء مستقبل أكثر رخاءً وازدهاراً.

كما يهدف عام الاستدامة إلى إبراز الجهود التي تقوم بها الإمارات العربية المتحدة لتعزيز العمل الجماعي الدولي لمعالجة تحديات الاستدامة، ودورها في البحث عن حلول مبتكرة يستفيد منها الجميع على الساحة الدولية، وخاصة في مجالات الطاقة والتغير المناخي وغيرها، وفق ما نقلت صحيفة «البيان».

ويهدف «عام الاستدامة» إلى تسليط الضوء على تراث الإمارات، ونشر الوعي حول قضايا الاستدامة البيئية، وإبراز الجهود لتعزيز العمل الجماعي الدولي.

ويشرف على مبادرات «عام الاستدامة» كلٌّ من نائب رئيس مجلس الوزراء، وزير ديوان الرئاسة الشيخ منصور بن زايد آل نهيان، والشيخة مريم بنت محمد بن زايد آل نهيان.

وبهذه المناسبة، أكّد الشيخ محمد بن زايد آل نهيان أنّ الاستدامة قضية جوهرية في مجتمع الإمارات منذ القدم، مشيراً إلى أنّ بلاده قدّمت منذ إنشائها نموذجاً متميزاً في مجال الحفاظ على البيئة وصيانة الموارد، وكان المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - رحمه الله وطيّب الله ثراه - قائداً عالمياً ورائداً في مجال العمل البيئي والمناخي، وترك بصمات مشهودة في هذا المجال، ونحن اليوم نسير على نهجه.

وأضاف صاحب السمو الشيخ محمد، في تصريح نقلته وكالة أنباء الإمارات (وام): «أنّ الشعار الذي جرى اختياره لعام الاستدامة «اليوم للغد» يجسّد نهج الإمارات وأهدافها ورؤيتها في مجال الاستدامة ومسؤوليتها في مواجهة التحديات؛ فمن خلال عملنا وجهودنا ومبادراتنا اليوم نصنع الغد الأفضل لنا ولأبنائنا وأحفادنا، لنترك إرثاً إيجابياً للأجيال المقبلة، كما ترك لنا الآباء والأجداد». وأكد صاحب السمو الشيخ محمد بن زايد أنّ ما يكسب «عام الاستدامة» أهمية خاصة أنّه عام تستضيف فيه دولة الإمارات أكبر حدث دولي في مجال العمل المناخي، وهو مؤتمر الأطراف في اتفاقية الأمم المتحدة الإطارية بشأن تغير المناخ «كوب 28»، حيث تعمل أبوظبي على جعله حدثاً فارقاً في مسيرة العالم نحو التصدي لخطر التغير المناخي، داعياً أفراد المجتمع ومؤسساته إلى التفاعل الإيجابي مع مبادرات «عام الاستدامة» ونشاطاته لتحقيق الأهداف المرجوة منها.

ويأتي إعلان «عام الاستدامة» في ختام فعاليات «أسبوع أبوظبي للاستدامة» 2023، بمشاركة عدد كبير من قادة الدول والمسؤولين المعنيين بقضية الاستدامة، ما يؤكد دور دولة الإمارات العربية المتحدة المحوري في تعزيز الوعي الدولي بهذه القضية، وما يرتبط بها من تحديات وأولويات.

وفي السياق ذاته، قال رئيس المجلس الوطني الاتحادي، صقر غباش: إنّ إعلان رئيس الدولة الشيخ محمد بن زايد آل نهيان عام 2023 هو عام الاستدامة، يجسّد اهتمام الرئيس بأنّ الاستدامة أولوية مهمّة لدى دولة الإمارات العربية المتحدة، ويؤكد ريادة الدولة في الحفاظ على البيئة ومواجهة التغير المناخي، حيث تعتبر الاستدامة من الركائز الأساسية لاستراتيجيات الدولة وخططها، وضمن رؤيتها لل (50) عاماً المقبلة، للمساهمة في توفير فرص نمو مستدام ولمستقبل أفضل للأجيال القادمة، وذلك وفقاً لما نقلته وسائل إعلام إماراتية.

وقال غباش: «إنّ عام الاستدامة يجسّد مسيرة حافلة من العطاء منذ تأسيس الدولة على يد المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، طيّب الله ثراه، حيث وضعت الدولة التنمية المستدامة ركيزة أساسية في مسيرتها، حتى باتت دولة فاعلة في مجال الطاقة النظيفة ومواجهة التغيرات المناخية، فكانت الإمارات أول دولة في المنطقة تعلن استراتيجية وطنية لتحقيق الحياد المناخي بحلول عام 2050، كما تحتضن الدولة (3) محطة تعتبر من أكبر محطات الطاقة الشمسية في العالم وبأقل تكلفة، وهي أول دولة في المنطقة تستخدم الطاقة النووية السلمية في إنتاج الكهرباء الصديقة للبيئة».

هذا، وأكد متخصصون في مجالات البيئة والاستدامة والاقتصاد أنّ الإعلان بشأن تخصيص عام 2023 ليكون عاماً للاستدامة في الإمارات يأتي سعياً لتعزيز وتيرة التنمية المستدامة وتسريعها محلياً، مستنداً إلى نجاحات محلية حققتها الدولة بشأن الحفاظ على البيئة واستدامة مواردها خلال الأعوام الماضية، والحلول الابتكارية التي أسهمت في نشرها في العديد من المجالات والقطاعات المرتبطة بالبيئة؛ وأهمها جهود تحول الطاقة ومواجهة التغير المناخي، مشيرين إلى أنّ مسيرة الإمارات وضعت الاستدامة وصداقة البيئة وحمايتها، والعمل على مواجهة التحديات العالمية، وخاصة تغير المناخ، في قلب اهتمامها، وحراكها للنمو الاقتصادي.

ويحظى مفهوم التراث المستدام، باهتمام متزايد ورعاية خاصة من دولة الإمارات العربية المتحدة، وخاصة تلك السياسات والاستراتيجيات والإرشادات العامة للتراث المستدام، والتشريعات والمبادئ التوجيهية والمعايير وقواعد السلوك للتراث المستدام، والمعاهدات والمواثيق الدولية والمفاهيم المتطورة في مجال استدامة التراث الثقافي، والمشهد الثقافي

والمنهج المتكامل في التعامل مع المناطق التاريخية، والتراث اللامادي وطرق الحفاظ عليه، إضافة إلى الدراسات المتعلقة بالنتائج والآثار للمشاريع التنموية في مراكز المناطق التاريخية.

وقد امتد ذلك الاهتمام بالتراث المستدام إلى المنهجيات وأساليب التعامل لتحقيق تراث مستدام، مع الاهتمام بالأبحاث والدراسات الحديثة للبيئة التراثية المستدامة، والأبعاد والجوانب الحضرية لاستدامة المناطق التاريخية، والمفهوم المتغير للأصالة والسلامة وانعكاساته على مواقع التراث العالمي، وإدارة المناطق التاريخية وتنميتها وتطويرها إلى جانب الشراكة والتعاون بين المؤسسات العامة والخاصة، إضافة إلى التفسير والعرض والترويج للمادة الثقافية، والمتاحف التراثية والاستدامة، والترويج والتسويق للتراث العمراني، والبُعد الاقتصادي وأثره في استدامة السياحة الثقافية، والتوازن بين التنمية المستدامة ومتطلبات السياحة، والحفاظ على التراث العمراني والسياحة وأثرها في الحفاظ على التراث بمفهومه العام، مع الاهتمام بالحلول الذكية للحفاظ على التراث والمنهجيات والأساليب الذكية لصونه أيضاً، والتدريب والتعليم وبناء القدرات والإمكانيات، واستخدام التقنيات الحديثة والتطبيقات لإيجاد حلول ذكية للحفاظ على التراث، والممارسات المستدامة ضمن وسائل الإعلام الاجتماعية المتعلقة بالمواقع التاريخية ■

* إعلامي من مصر

الذكاء الاصطناعي والاستدامة

صديق جوهر

إن التنمية المستدامة في تعريف الاتحاد الأوروبي تعني توفير احتياجات الأجيال الحالية دون تعريض قدرة الأجيال المستقبلية على تلبية احتياجاتها الخاصة للخطر. وبعبارة أخرى، تحسين نوعية الحياة للجميع في الوقت الراهن ولأجيال قادمة. إن التنمية المستدامة تقدم رؤيةً للتقدم توحد الأهداف الآنية وطويلة الأجل وتدمج العملين المحلي والعالمي، وتعتبر القضايا الاجتماعية والاقتصادية والبيئية مكونات مترابطة لا تنفصم هدفها خدمة التقدم البشري بشكل عام. والاستدامة في النظم البيولوجية تعني العمر الطويل حيث تؤثر مكونات الأنظمة بعضها في بعض، وتوازن النظام بأكمله هو شرط البقاء والاستمرارية. في الواقع لن تتحقق التنمية المستدامة من خلال السياسات فقط، بل يجب أن يتبنّاها المجتمع بأسره كمبدأ يوجه الخيارات العديدة التي يتخذها كل مواطن في كل يوم، فضلاً عن القرارات السياسية والاقتصادية الكبيرة التي يجب اتخاذها لمواجهة تأثير الأنشطة البشرية المختلفة على توازن النظم البيئية الطبيعية. وهذا الأمر يتطلب تغييرات عميقة في التفكير وفي الهياكل الاقتصادية والاجتماعية والسلوكية وفي أنماط الاستهلاك والإنتاج.

يمكن اعتبار التنمية المستدامة عملية تهدف إلى تحقيق أهداف التنمية البشرية مع الحفاظ على قدرة النظم الطبيعية على توفير الموارد المطلوبة وتعزيز خدمات النظام الإيكولوجي التي يعتمد عليها الاقتصاد والمجتمع. وتحتاج عمليات الاستدامة التنموية استخداماً ذكياً لتقنيات الذكاء الاصطناعي إلى جانب الاستخدام المكثف للمعرفة المتاحة - الفردية والجماعية - المرتبطة بالمجالات ذات الصلة، حيث إن التكنولوجيا قادرة على تقديم مساعدات كبيرة في القطاع الإيكولوجي. ولذلك يجب أن تتطور طرائق التفكير الحديثة التي تستهدف إيجاد حلول للمشكلات المعقدة على المستويات المحلية والدولية كافة. ويُعد إدخال المبادئ البيئية في تصميم المنتجات والخدمات باستخدام التفكير البديل والمحاكيات خطوة رائدة إلى الأمام، ومع ذلك، يجب أن تتطور الأدوات التقليدية (باستخدام تقنيات الذكاء الاصطناعي) من أجل البحث عن طرق جديدة لتشجيع الناس على التفكير والتصرف بشكل مختلف والتصدي للتحديات كافة، وتعلم فن اختيار التقنيات المناسبة وإدارة وتطبيق المعرفة من خلال الخبرات المتاحة. وتتطلب الاستدامة مستوى معرفياً قائماً على استراتيجيات مدروسة لتحديد الأهداف وتقسيمها إلى مهام ويجب أن تتوافق كل مهمة مع نموذج تفكير محدد يستخدم المعرفة المتاحة لتحقيق الهدف المنشود في ظل تطويع آليات الذكاء الاصطناعي لخدمة الاستدامة.

الذكاء الاصطناعي والاستدامة

منذ الثمانينيات من القرن الماضي أثبتت العديد من التطبيقات في مجالات الطب والكيمياء والصناعة والتمويل والتسويق وغيرها أن الذكاء الاصطناعي قادر على مساعدة الإنسان في تخطي العديد من العقبات. لقد حددت الأمم المتحدة أهداف التنمية المستدامة السبعة عشر ويمكن تحقيق هذه الأهداف بمساعدة منهجيات الذكاء الاصطناعي وتقنياته الملائمة. على سبيل المثال يمكن تحقيق الهدف الأول للاستدامة وهو مرتبط «بتطوير السلوك البشري» من خلال إدارة أفضل للمواهب وعن طريق التعليم ثم التوظيف وريادة الأعمال. بالنسبة إلى الهدف الثاني «القضاء على الجوع وتحقيق الأمن الغذائي والتغذية المحسنة وتعزيز الزراعة المستدامة» يمكن للذكاء الاصطناعي تقديم مساهمة في هذا المجال من خلال الزراعة الذكية والجمع بين المعرفة السابقة حول دورة المحاصيل والتخصيب والتسميد الطبيعي والتعايش بين النباتات مع تقنيات التحسين المختلفة والتنبؤ والاستخدام الذكي للمياه والتجميع والتوزيع الأمثل للمحاصيل المزروعة. ولقد بدأ المركز الفرنسي للبحوث الزراعية بالاستفادة من العلوم الزراعية، حيث تم الجمع بين إدارة المعرفة الزراعية وتقنيات الذكاء الاصطناعي ذات الصلة. كما جرى العمل على تجنب هدر المياه والطعام خاصة في البلدان المتقدمة مع التركيز على تغيير سلوكيات البشر من خلال برامج تجمع بين المعرفة والمتعة وبدلاً من تقديم طعام جاهز لمرتاديه يسعى المركز إلى تعليمهم كيف يعملون من أجل الحصول على غذائهم بأنفسهم تصديقاً للمثل القائل: لو أعطيت رجلاً سمكة فأنت تطعمه ليوم واحد ولكن لو علمته الصيد فأنت تطعمه مدى الحياة. يتطلب تحقيق الهدف الثالث للاستدامة «ضمان حياة صحية وتعزيز الرفاهية للجميع في جميع الأعمار» التثقيف حول الوصول إلى الرفاهية من خلال الاعتماد على البيئة المحيطة بنا. ويتطلب الأمر التعريف بأهمية عمليات التغذية وكيفية الوصول إلى قاعدة المعرفة حول الطبخ الصحي باستخدام المكونات المحلية المتاحة والعلاج بالنباتات الأساسية علاوة على ممارسة الرياضة ما يساعد في تحقيق هذا الهدف. لقد قدم الذكاء الاصطناعي مساهمة كبيرة في تطوير النظم الصحية من خلال الاكتشاف المبكر للأمراض الخطيرة، والجراحة الروبوتية، والتشخيص المخبري وتطوير اللقاحات وغيرها. وبفضل البحوث المدعومة بتقنيات الذكاء الاصطناعي تتوافر بالفعل «قطع غيار» بشرية اصطناعية مثل البنكرياس الاصطناعي ويتقدم البحث بشأنها. من أجل تحقيق الهدف الرابع للاستدامة وهو «ضمان تعليم جيد ومنصف وشامل وتعزيز فرص التعلم مدى الحياة للجميع» يجب تعزيز المعرفة عبر استخدام التكنولوجيا الحديثة. ففي السنوات الأخيرة تزايدت ممارسة التعلم عبر الإنترنت المدعوم بالذكاء الاصطناعي كما سرعت أوبئة «كوفيد»

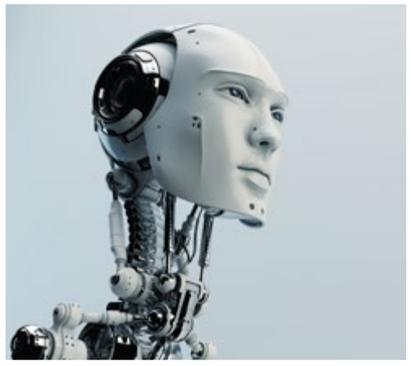

من الاستخدام المكثف للتكنولوجيا في قطاعي التعليم والتعلم، وعقدت العديد من المؤتمرات عبر الإنترنت. ولكن ما يجب تطويره بشكل أفضل هو التقييم المبكر للمواهب من خلال استخدام الأنظمة الذكية والتفاعل بين الإنسان والآلة أثناء التعلم وتكييف البرامج التعليمية لتتناسب مع مستويات الطلبة. بالنسبة إلى الشباب فقد تساعدهم أنظمة مطابقة المواهب والاهتمامات مع الاحتمالات المهنية بما في ذلك المهن الجديدة التي أنشأها الذكاء الاصطناعي من أجل اختيار التعليم الذي يحلمون به وصولاً إلى الوظائف المناسبة حيث يؤثر التعليم في تحقيق الأهداف والتوظيف بشكل لائق. يمكن للذكاء الاصطناعي المساهمة في إنجاز الهدف الخامس للاستدامة وهو «تحقيق المساواة بين الجنسين وتمكين النساء والفتيات» من خلال التعليم وإدارة المواهب بشكل أفضل بصرف النظر عن الجنس والنوع. ومع ذلك فإن التحدي الأكبر يكمن في تعزيز طرق التفكير الناقد وتطوير المواهب النسائية وجذب الفتيات للدراسات والمهن العلمية والتخصصات التقنية. وقد تلعب الشبكات الاجتماعية ووسائل الاتصال الأخرى دوراً محورياً في تحقيق هذا الهدف. وفي سياق متصل يمكن تحقيق الهدف السادس للاستدامة وهو «ضمان توفير المياه والصرف الصحي للجميع والإدارة المستدامة لهذين المرفقين» من خلال الاستخدام الأمثل للمياه. كذلك يمكن تحقيق الهدف السابع للاستدامة وهو «ضمان حصول الجميع بتكلفة ميسورة على طاقة حديثة وموثوقة ومستدامة» من خلال تطبيق تقنيات الذكاء الاصطناعي والجمع الأمثل بين الطاقة الطبيعية والأحفورية وكذلك يجب توعية المواطنين فيما يخص كيفية التعامل مع نفايات الطاقة. وتتطلب معالجة هذه الأمور التفكير النقدي والقدرة على إيجاد

أذكى طريقة لأداء الأنشطة كافة ذات الصلة. لا يزال من الصعب للغاية تحقيق الهدف الثامن للاستدامة وهو «تعزيز النمو الاقتصادي المطرد والشامل والمستدام وتوفير العمل المنتج واللائق للجميع». أكبر عائق هنا هو الجشع البشري، ورغبة بعضهم في الثراء السريع على حساب الآخرين واستغلال القوة العاملة الرخيصة والأشخاص المحتاجين للوظائف. يمكن تصحيح هذا الموقف عن طريق البحث عن العمالة المناسبة من خلال الشبكات الاجتماعية. أما تحقيق الهدف التاسع للاستدامة وهو «بناء بنية تحتية مرنة وتعزيز التصنيع الشامل والمستدام وتعزيز الابتكار» فإنه أمر يسير إلى حد ما ولكنه يتطلب تنظيماً أفضل للنظم البيئية المبتكرة علاوة على إدارة المواهب بشكل مناسب، وتعزيز القدرات البشرية المحلية. بالنسبة إلى عملية الابتكار فإن التحول الرقمي يؤدي دوراً مهماً في العملية برمتها حيث تساعد طرق تفكير الذكاء الاصطناعي في تنظيم عمليات الابتكار وتنفيذها باستخدام التقنيات المناسبة. أما الهدف العاشر للاستدامة وهو «الحد من عدم المساواة داخل البلدان وفيما بينها» فإنه هدف طموح للغاية ويتطلب آليات جديدة غير تلك التي تتبعها البلدان ذات الصلة ويتطلب إنجاز هذا الهدف حكمة وتواضعاً من قادة العالم في ظل إدارة عالمية فعالة مع الاستفادة من تطبيقات الذكاء الاصطناعي لتحسين الأوضاع على المستوى العالمي.

على الصعيد نفسه يمكن الاستفادة من تقنيات الذكاء الاصطناعي المطبقة في المدن الذكية في تحقيق الهدف الحادي عشر للاستدامه وهو «تحويل المدن والمستوطنات البشرية إلى مجتمعات آمنة ومرنة وقابلة للاستمرار». إضافة إلى ذلك يمكن للذكاء الاصطناعي المساهمة في تحقيق الهدف الثاني عشر للاستدامة وهو «ضمان أنماط الاستهلاك والإنتاج المستدامة»، حيث تؤدي مناهج الابتكار البيئي والتصميم الصديق للبيئة المدعومة بالذكاء الاصطناعي والتفكير البديل إلى استخدامات حكيمة للمواد الخام وترشيد استخدامها خاصة في الأجهزة الإلكترونية والاستعاضة بمنتجات وخدمات بديلة ومستدامة. أما الهدف الثالث عشر للاستدامة وهو «اتخاذ إجراءات عاجلة لمكافحة تغير المناخ وآثاره» فإنه يعالج مشكلات مترابطة ومعقدة للغاية ويتطلب التعامل مع هذا التحدي فهماً عميقاً ونمذجة للمكونات المؤثرة فيه وعلاقاتها المتبادلة قبل التخطيط للإجراءات المستقبلية ووضع مقاييس مناسبة وفعالة للتقليل من البصمة الكربونية. في هذا السياق قد تساعد منهجية

المحاكاة التي تعمل بالذكاء الاصطناعي في الحوكمة العالمية للتغير المناخي. بالنسبة إلى الهدف الرابع عشر للاستدامة وهو «الحفاظ على المحيطات والبحار والموارد البحرية واستخدامها على نحو مستدام لتحقيق التنمية المستدامة» فإن تحقيقه يشكل تحدياً هائلاً، حيث إن الحياة البحرية في المحيطات يجب أن تظل مستدامة من خلال استخدام الروبوتات التي تعمل بتقنيات الذكاء الاصطناعي. تعمل هذه الروبوتات للحفاظ على التوازن البيئي من خلال إزالة المواد البلاستيكية والقضاء على الأعشاب والأسماك الضارة بالبيئة. وتتطلب العناية بالمحيطات الجمع بين المعرفة والخبرة في المجالات ذات الصلة. من ناحية أخرى يساعد الذكاء الاصطناعي في تحقيق الهدف الخامس عشر للاستدامة وهو «حماية واستعادة وتعزيز الاستخدام المستدام للنظم الإيكولوجية الأرضية، وإدارة الغابات على نحو مستدام، ومكافحة التصحر، ووقف تدهور الأراضي ووقف فقدان التنوع البيولوجي». يمكن للذكاء الاصطناعي المساهمة في التخطيط والتحسين العمراني من أجل ترشيد ممارسة الأعمال التجارية التي تبحث عن ربح سريع على حساب البيئة حيث يشتري المستثمرون الأرض بأسعار منخفضة ويبنون منازل للبيع تدمر التنوع البيولوجي. يكمن حل تلك المشكلة في تغيير التوجهات والتركيز على الابتكار وجعل الاستثمار في الابتكار أكثر جاذبية من الاستثمار في المباني. ومن المعروف أن أجهزة المحاكاة القائمة على الذكاء الاصطناعي تمتلك القدرة على إظهار مثل هذه التأثيرات ومن ثم تغيير الأولويات الاستثمارية.

يمكن للذكاء الاصطناعي المساعدة في إنجاز الهدف السادس عشر للاستدامة وهو «تعزيز المجتمعات السلمية والشاملة من أجل التنمية المستدامة وتوفير الوصول إلى العدالة للجميع وبناء مؤسسات فعالة وخاضعة للمساءلة على جميع المستويات» من خلال البرامج الذكية التي تسعى إلى تغيير السلوكيات على المستويات جميعها على أنت تكون مرتبطة بالسياسة والتعليم وتتولى وسائل الإعلام الترويج لها. كذلك يمكن للذكاء الاصطناعي المشاركة في تحقيق الهدف السابع عشر للاستدامة وهو «تعزيز وتنشيط الشراكة العالمية من أجل التنمية المستدامة» من خلال تقديم حوافز مثل الاستثمار في الابتكار المستدام. لقد تم بالفعل استخدام تقنيات الذكاء الاصطناعي في مبادرات مثيرة للاهتمام مثل كوكب الأرض، والإيكولوجيا الزراعية والعديد من المشاريع المتعلقة بالحفاظ على التنوع البيولوجي وأعمال النمذجة الأخرى. وفي النهاية يمكن لتطبيقات الذكاء الاصطناعي أن تكون بمثابة مصدر إلهام يتم من خلالها تصميم قاعدة ممتدة للمعرفة وتجميع الخبرات. كذلك يمكن أن تشكل المدن الذكية مثالاً لنماذج أولية للتنمية المستدامة ليس للمدن فقط، ولكن لتطبيق نهج شامل يتضمن قرى ذكية ومستقلة، ومدن ومناطق أصغر أو أكبر حجماً. إن الاستغلال الأمثل لتقنيات الذكاء الاصطناعي قد تساعد في تحقيق العديد من أهداف الأمم المتحدة للاستدامة في شتى المجالات ■

* أكاديمي وناقد - خبير الترجمة في الأرشيف والمكتبة الوطنية

الموازنة بين التنمية والتطور وتعزيز استدامة التراث في دولة الإمارات

«التراث المستدام» جذور التاريخ في حضور المستقبل

حمزة قناوي

لايدرك الكثيرون أهمية مصطلح «الاستدامة» Sustainability، فقد يظنونه أحد المصطلحات الاقتصادية محدودة التأثير، أو التي تتخذ طابعاً برتوكولياً في تعاون الدول بعضها مع بعض، أو حتى في تصريحات الأمم المتحدة، والجهات التابعة لها، فهو مصطلحٌ ربما يوحي بأن له تكلفة اقتصادية أقل من المعتاد، ولا ننكر أن خفوت إدراك هذا المصطلح وعدم الوعي بأهميته مشكلةٌ تنمويةٌ عالميةٌ، فالبشرية جميعاً في مجتمعاتها العمرانية المختلفة، قد لا تعطيه أهميته المتوجبة في أولوياتها، إلا أن دولة الإمارات العربية المتحدة كانت سبّاقة- كعادتها- بإعلانها عامَ 2023 عاماً للاستدامة، وهو ما يعد علامةً فارقةً على مدى الوعي التقدمي الذي تحلت به دولة الإمارات وإدراكها مدى أهمية القضية في إطارها العام من ناحية، ثم في أحد الجوانب المميزة لطبيعة فكرة الاستدامة والمؤسِسة لخصوصيتها وهو «التراث المستدام».

في عام 1983 اختارت الأمم المتحدة رئيس الوزراء النرويجي السابق جرو هارلم برونتلاند Gro Harlem Brundtland لإدارة اللجنة العالمية الجديدة للبيئة والتنمية، وهي اللجنة التي اهتمت بأمور عدة، منها دراسة مستوى المعيشة في العديد من البلدان، وسبل مكافحة الفقر، والصحة البيئية والعدالة الاجتماعية وغيرها من القضايا، وبعد أربعة أعوام من الدراسة، توصلت هذه اللجنة إلى ضرورة إيجاد تنمية تتصف بأنها: «تنمية تلبي احتياجات الحاضر، دون المساس بقدرة الأجيال القادمة في المستقبل على تلبية احتياجاتها الخاصة»[1]، وهذا النوع من التنمية هو ما يسمى بـ«التنمية المستدامة».

الأمر إذن له علاقة باحتمالية «بقائنا» في مقابل احتمالية «انقراض البشر»، فالبيئة المحيطة بنا التي قد نتخيل أنها تتلقى الاستخدام الجائر لها في صمتٍ، هي في الحقيقة ترد لنا - من خلال الأنظمة الأيكولوجية - هذا التعامل غير الرشيد أضعافاً مضاعفة، دون أن ندرك ذلك، ودون أن نقدّرَ مدى خُطورتِه، وبقدرِ ما يبدو الأمر أنه بسيطٌ في مظهره، إلا أنه متنوعٌ ومتعددُ الآفاق من حيث الموضوعات والجوانب والأسس التي يمكن تناول الأمر من خلالها، فالبنك الدولي مثلاً يرى أن عملية التنمية المستدامة تتكون من خمسة مكونات: رأس المال النقدي، ورأس المال المادي، ورأس المال البشري، ورأس المال الاجتماعي، ورأس المال الطبيعي[2]. فتركيز البنك الدولي على العناصر السابق ذكرها هو تركيزٌ من حيث «رأس المال»، وهو أمر طبيعي في ظل تخصصه ودوره، دون أن يغفل ذلك الآثار النفسية والاجتماعية المترتبة على ذلك، لكن لو تناولت جهة أخرى -

مختلفةً في الأولوية والمفهوم - الأمر من جهتها؛ فإنه سيختلف ولا شك؛ على سبيل المثال فإن جامعة ألبيرتا الكندية، ترى أنه يجدر النظر للأمر من منظور التكامل بين ثلاث زوايا، هي: البيئة والمجتمع والاقتصاد[3]، ويجدر تحقيق الاستدامة من خلال هذه الزوايا الثلاث وعِبرها، بمعنى العمل على وجود استدامة وبقاء لكل من البيئة والمجتمع والاقتصاد، وكذلك مراعاة التوازن بين هذه العناصر الثلاثة، فلا يتم الجور على البيئة لحساب الاقتصاد، ولا إغفال الجوانب البيئية وجودة الحياة، لحسابات أخرى، وإنما يجدر العمل على تحقيق التوزان الذي يضمن استدامة هذه الجوانب وبقاءها؛ إذ دون التكامل بينها لا يمكن تحقيق استراتيجية تنمية مستدامة. إذن لا يتعلق الأمر بكمية استخدام الموارد، وإنما بكيفية استخدام هذه الموارد أيضاً، فكيف وكم نستهلك ما حولنا من موارد لتحسين جودة حياتنا، مع اعتبار ألا يؤدي هذا الاستخدام إلى استهلاك موارد الكوكب من

ناحية، أو التأثير فيه بشكل قد نظن أن به حفاظاً على الموارد، بينما هو على المدى الطويل قد يؤدي لعكس النتائج المستهدفة، وهذه الفرضيات أدت إلى إجراء العديد من الدراسات والبحوث التي عملت في مختلف مجالات النشاط الإنساني للبحث عن الاستدامة فيه، ومهما كان الاختلاف بين نشاطٍ وآخر، إلا أنه بدا واضحاً أن إنسان العصر الحديث يحتاج «إلى تبنّي أسلوب جديد في التفكير والتعامل مع البيئة المحيطة، والموارد الطبيعية ... فالاستدامة صفة متلازمة مع التنمية وظاهرة تنموية مستمرة ومتجددة تهدف إلى بناء الحياة في الوقت الحاضر واستمرارها في المستقبل من دون إهمال معطيات الماضي»[4]، ومن ثم ففي كل مجال من مجالات النشاط الإنساني؛ ظهر باحثون متخصصون في البحث حول كيفية تحقيق الاستدامة في هذا النشاط تحديداً. لم يكن مستغرباً إذن أن نسمع عن أن «كل مجالٍ مقرون في النهاية بالاستدامة»، فهناك الزراعة المستدامة، والصناعة المستدامة، والطاقة المستدامة، والشوارع المستدامة، والبيوت المستدامة، والصيد المستدام، وهكذا، بدأ هذا المصطلح يُلحَق بجوانب الأنشطة الإنسانية التي يتم فيها استخدام أو استهلاك الموارد الطبيعية بشكل مباشر أو غير مباشر، إلى أن بدأ مصطلح آخر في الظهور، بعنوان «الاستدامة الثقافية»، وهو مصطلحٌ له بُعدان، أحدهما متعلق بنشر مفهوم الاستدامة بين الناس، والآخر، أن الثقافة - ثقافة الماضي خاصة - مثل كل عنصرٍ من حولنا عرضة للانقراض ما لم نعاملها بمفهوم «الاستدامة» أيضاً، ما أود أن أشير إليه هنا، أنني لا أتحدث عن الثقافة في حد ذاتها، وإنما عن مكوّنات الثقافة، لذا يغنينا التعرف عن مكونات الثقافة عن تعريفها، وتلك

المكونات تنقسم إلى نوعين: مادية وغير مادية، ومن بين المادية هناك المكونات التراثية، ومنها الجوانب العمرانية، والمواقع التاريخية، والآثار والحفريات وغيرها. وأهم ما يجدر أن ننتبه له في هذا السياق هو «القيمة»: «القيمة تعني كل ما تقدر قيمته من قِبل المجتمع، وإذا ارتبطت هذه القيمة بالتراث فهي تعني عندئذٍ ما خلّف السلف من إرث مادي أو معنوي يستحق الإبقاء عليه وحمايته والحفاظ عليه ممتداً عبر الأجيال المتعاقبة، وكل قديم لا يكون بالضرورة محتوياً على قيم تراثية، فما لم يرَ المجتمع هذه القيم فإن التراث الحاوي لها يصبح غير ذي قيمة وسرعان ما يتوارى إلى أن يزول إلى الأبد، لذلك لا بد من الإدراك الواعي للقيم الكامنة في التراث المعماري لكي تتحدد بموضوعية أهمية الحفاظ على التراث الحاوي لها ومدى أهميه استدامتها»[5].

إن دولة الإمارات العربية إحدى الدول الرائدة في مجال استدامة التراث أو «التراث المستدام»، أي تحديد الجوانب التراثية التي يجب أن نحتفظ بها للأجيال القادمة، والعمل بما توصل إليه العلم الحديث من اكتشافات واختراعات لحفظ هذا التراث وتسليمه بأمانة للأجيال القادمة. وبما أن هذا التراث في حد ذاته متنوع، فإن جوانب استدامته متنوعة أيضاً، فهناك التراث المادي وغير المادي، والتراث المادي في دولة الإمارات حافل وشديد الثراء، يتمثل في المنشآت العمرانية القديمة، والأماكن التراثية، والاكتشافات الأثرية، مثل مدينة الذيد التي تحفل بالمعالم التراثية، وقصر الحصن في أبوظبي، وقصر المويجعي، والقرى التراثية المتعددة مثل القرية التراثية في أبوظبي، والقرية التراثية في العين، والقرية التراثية في الفجيرة، وحصن الفهيدي في دبي، وكنيسة ودير صير بني ياس في أبوظبي، وقرية المربعة ومدافن جبل حفيت المنتسبة إلى العصر البرونزي، وبدع بنت سعود وحديقة آثار الهيلي في العين، ومواقع بينونة الأحفورية وموقع جميرا الأثري وحصن حتا في دبي، ووادي الحلو على طريق الشارقة - كلباء، وقرية نجد المقصار التاريخية في خورفكان، وموقع الثقيبة الأثري في الذيد بالشارقة أيضاً.

إن القرى التراثية المنتشرة في إمارات الدولة المختلفة، تمثل تجربةً رائدةً وحيةً شديدة الثراء، كأننا ننطلق في كبسولة زمنية نشاهد حياة ولدت واستمرت منذ قرون قبل أن تمضي، ومع ذلك فالأمر يحتاج إلى تعمق النظر في جوانب الاستدامة التراثية.

أحد الجوانب الأكثر تنوعاً وتعقيداً فيما يخص الاستدامة هو الجانب التراثي المادي، فهناك مسائل تقنية تخص النواحي المادية المتعلقة بخفض أضرار التأثير في الأماكن التراثية، مثل تشغيل المواقع التراثية بالطاقة المتجددة، وخفض البصمة الكربونية في هذه المواقع، وهو ما حققته الإمارات بالعمل على استراتيجية نوعيةٍ تقدر طبيعة الاستدامة وتضعها في أولويات نشاطها الثقافي المتعامل مع التراث.

إن المقولة الحكيمة وشديدة العمق للمغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، رحمه الله: «من ليس له ماضٍ ليس له حاضر» مثلت أحد جسور بناء الهوية السليمة لدولة الإمارات، هذه الهوية التي تنظر للعالم نظرة الإفادة والإسهام، والتراث يمثل مصدرَ تعليم للأجيال القادمة أيضاً، فعندما يشاهد الأبناء مقدار ما بذله الأجداد من تعب وعرق وتخطيط وجهد، حتى يصلوا للواقع المتقدم الذي يعيشون فيه، يكتسبون خبرة حية مباشرة بما أنجزه الأجداد في الماضي من بناء وعمارة وصناعة وحرف، إضافةً إلى اكتسابهم الصلابة أيضاً، فالجانب المعنوي في بناء الشخصية أمرٌ له أهميته الكبرى في هذا الصدد. وقد استطاعت دولة الإمارات تحقيق التوازن بين التطور السريع والتنمية الشاملة من جهة، والحفاظ على العادات والتقاليد والآثار المادية فيما يخص «التراث المستدام»، كما عززت التراث

غير المادي، من حكمٍ وأمثالٍ وشعرٍ وعرفٍ وتقاليدَ (مثل رقصة العيالة وفن العازي والمجلس وفن الرزفة والأداء وصناعة التلي والسدو والتغرودة، ومهارات الصيد بالسلوقي، والصقّارة، وهي من ركائز التراث غير المادي في البيئة الإماراتية، والقهوة العربية وأصول تقديمها)، وهنا نشير إلى ريادة الإمارات في استخدام التكنولوجيا الحديثة في التوثيق، وفي إتاحة سبل وطرق الاطلاع على التراث غير المادي، وهو جانب آخر من جوانب الاستدامة.

كما أنها استطاعت تصميم وتنفيذ استراتيجية شاملة وضعت «التراث المستدام» نصب عينها، هذه الاستراتيجية يتكامل فيها المعنى الثقافي الذي ينشر ثقافة الاستدامة من ناحية، ويدقق الاختيارات في القيمة الثقافية لما هو تراثي وتاريخي من ناحية ثانية، وينشر الوعي المجتمعي، ويتخذ الإجراءات المادية

الحديثة التي كشفت عنها الدراسات المعاصرة التي تخفف الانبعاثات الكربونية، واستخدام التقنيات التي تحافظ على البقاء المعماري للأثر التراثي والتاريخي، واستقطاب سياحة نوعية مهتمة بمبدأ الاستدامة كأسلوب حياة، وكل ذلك يمضي على قدم وساق مع رؤية أكبر تنهض بدولة الإمارات، ولا تغفل التكامل بين جوانب الاستدامة في مختلف العناصر الأخرى، وتكاملها مع جودة الحياة ورفاهيتها من ناحية سابعة. إذن تتأرجح الكفة بين «استدامة التراث»، و«تراث الاستدامة»، مع مواصلة التطور الحديث وقد استطاعت دولة الإمارات أن تحقق التوازن المأمول بين الجانبين؛ بين السعي إلى التطور والتجديد والتنمية والتكنولوجيا الحديثة، والحفاظ على البيئة، وفي المسافة بينهما تراث ثري، وتاريخٌ عميقٌ وحافل، كانت محفزةً جميعاً على إعلانِ عامِ 2023 عاماً للاستدامة في دولة الإمارات، في تجربةٍ فريدةٍ، لم تتكرر في كثيرٍ من مناطق العالم ■

* ناقد وأكاديمي مصري

الهوامش:

1. Our Common Future: Report of the World Commission on Environment and Development". UN Documents. n.d. Web. Retriev ed 27 June 2013. <http://www.un-documents.net/ocf-02.htm>

2 . مجيد أحمد إبراهيم: الطاقات المتجددة ودورها في حماية البيئة لأجل التنمية المستدامة، مجلة تكريت للحقوق، العدد 29، 2016م، تكريت، ص 352.

3. See: "What is Sustainability?". Prepare by: office of Sustainability. University of Alberta, Canda, 2014, p.2

4. أماني محمد نمر وآخرون: الحفاظ المستدام على المباني التاريخية في فلسطين: حالة دراسية: تجربة مركزرواق، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، 2017م، ص 15.

5. رانية عبد اللطيف أحمد غنام وآخرون: مدخل للحفاظ المستدام على المباني الأثرية: دراسة حالة المباني التراثية المدنية بمدينة فوه - محافظة كفر الشيخ، مجلة العمارة والفنون والعلوم الإنسانية، ع 27، القاهرة، 2021م، ص 758.

استلهام تجربة البيوت التراثية في الاستدامة في البناء الحديث

الأمير كمال فرج

الاستدامة مصطلح له دلالته، سواء من ناحية اللفظ أو المعنى، فمن ناحية اللفظ يعني استمرار الشيء ودوامه، ومن ناحية المعنى، فللكلمة مدلول بيئي يعني حفظ نوعية الحياة التي نعيشها على المدى الطويل، وهذا يعني حفظ الثروات الطبيعية، والاستخدام المسؤول للموارد البيئية. والاستدامة ضرورة حياتية في كل مكان وزمان، فيجب ألا يقتصر الاهتمام بها على جزء دون الآخر، وهو مسؤولية جماعية لا يمكن أن نلقيها على كاهل الحكومات أيضاً، إذ إن الفرد منوط بها، ونتائجها تشمل الحاضر والمستقبل، لأنها تحفظ الموارد الطبيعية والبيئية حالياً، كما تحفظها للأجيال القادمة مستقبلاً. لذلك كانت الاستدامة هدفاً إنسانياً ينطوي على الإيثار، والعمل الجماعي، وتنفيذ التكليف الإلهي بإعمار الأرض.

فيما ركزت الأهداف الإنمائية للألفية الجديدة للأمم المتحدة التي اعتمدها المجتمع الدولي عام 2000 على إنهاء الفقر المدقع، ووقف انتشار مرض الإيدز ، وتوفير التعليم الإبتدائي لجميع الأطفال بحلول عام 2015[1]، واعتمدت الدول الأعضاء في الأمم المتحدة عام 2015 أهداف التنمية المستدامة (SDGs)، التي تُعرف باسم الأهداف العالمية أيضاً، وكانت دعوة للعمل على إنهاء الفقروحماية الكوكب وضمان تمتع جميع الناس بالسلام والازدهار بحلول عام 2030).

وبالنظر إلى دور الاستدامة في حماية الممتلكات والمجتمعات الإنسانية، والموارد الطبيعية، وخاصة الأماكن والأبنية، يمكن للتراث أن يقدم مساهمة فعالة مهمة في التنمية المستدامة عبر أبعادها المختلفة أيضاً.

وأولت دولة الإمارات العربية المتحدة قضية الاستدامة اهتماماً خاصاً، منذ عهد المؤسس المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، طيّب الله ثراه، ومؤخراً، أعلن صاحب السمو الشيخ محمد بن زايد آل نهيان، رئيس الدولة، حفظه الله، 2023 «عام الاستدامة»، تحت شعار «اليوم للغد»، ويهدف إلى تسليط الضوء على تراث دولة الإمارات العربية المتحدة الغني في مجال الممارسات المستدامة.

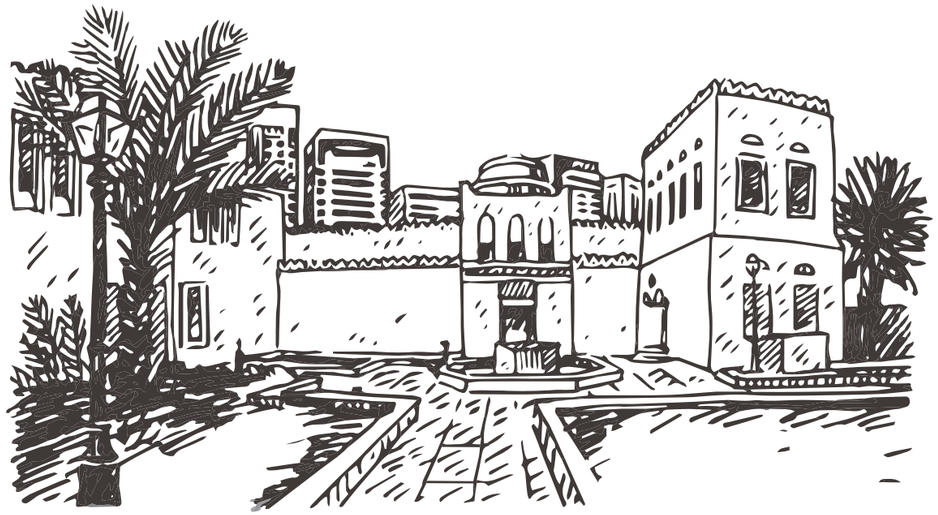

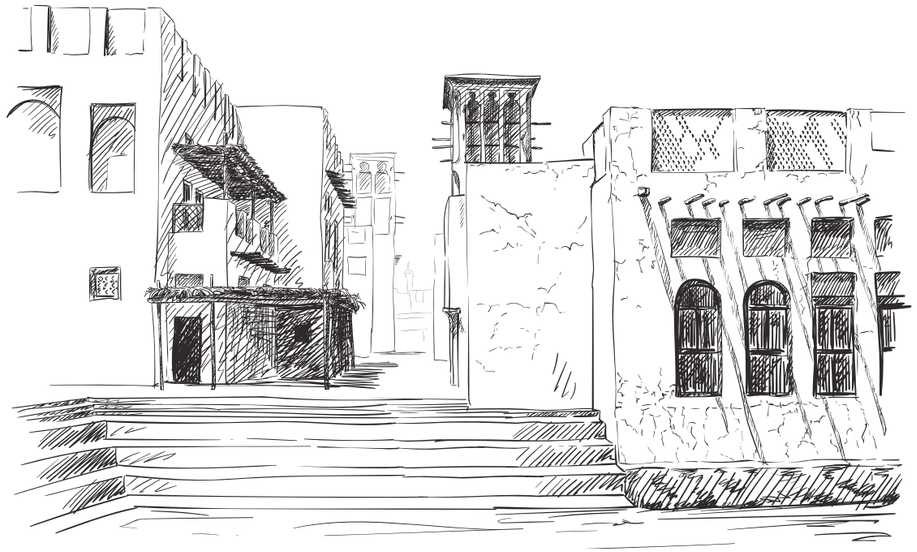

وإذا نظرنا إلى قضية التراث المستدام، والمخاطر التي تهدده، سنلاحظ أن هناك أربعة محاور لتفعيل الاستدامة في المناطق التراثية، هي:

1. الحفاظ على الأماكن التراثية

أول محور في تحقيق التراث المستدام هو الحفاظ على التراث نفسه، ليظل هذا التراث قائماً مصاناً، في ظل التهديدات الكثيرة التي تحيق به، كالكوارث الطبيعية، والزلازل الكبرى، والفيضانات، والحرائق، والكوارث التي يصنعها الإنسان مثل التدمير والنهب والاتجار غير المشروع حول العالم، والزحف العمراني، والإنشاءات الجديدة سيئة التصميم، والنزاعات المسلحة. وتشمل جهود الحفاظ على التراث الحفاظ على الأبنية التراثية والمناطق المحمية والموارد الطبيعية من أنهار وجبال ومواقع تحتوي على مجموعات التنوع البيولوجي البري والبحري، ويعتبر الحفاظ على كل ذلك مساهمة أساسية في الاستدامة البيئية. وتقوم منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) بدور مهم في حماية التراث، من خلال تشجيع بلدان العالم على حماية التراثين الثقافي والطبيعي والحفاظ عليهما، وتجسد ذلك في الاتفاقية الدولية المعروفة باسم «اتفاقية حماية التراث العالمي الثقافي والطبيعي»، التي اعتمدتها منظمة «اليونسكو» في عام 1972[3]، والتي صدرت بموافقة 193 دولة من بين 195 دولة من الدول الأعضاء في منظمة «اليونسكو». وإذا رصدنا الاتفاقيات العالمية المتعلقة بالبيئة سنلاحظ أن هناك 74 اتفاقية، اتفاقيتان عامتان، و72 اتفاقية محددة، الاتفاقيات العامة هي: اتفاقية «آرهوس» بشأن الوصول إلى المعلومات والمشاركة العامة في صنع القرار والوصول إلى العدالة في المسائل البيئية، آرهوس، 1998، واتفاقية «إسبو» بشأن تقييم الأثر البيئي في سياق عابر للحدود، إسبو، 1991.

أما الاتفاقيات المحددة فتشمل اتفاقيات الغلاف الجوي، واتفاقيات موارد المياه العذبة، واتفاقيات المواد الخطرة، والاتفاقيات العالمية للبيئة البحرية، والاتفاقيات الإقليمية للبيئة البحرية، واتفاقيات الموارد الحية البحرية، واتفاقيات الحفاظ على الطبيعة والموارد الحية الأرضية، واتفاقيات التلوث الضوضائي[4]. وفي مجال الحفاظ على التراث، هناك العديد من الاتفاقيات والمعاهدات مثل اتفاقية حماية التراث الثقافي غير المادي لعام 2003[5]، واتفاقية حماية التراث الثقافي المغمور بالمياه التي اعتمدت في 2 نوفمبر 2001[6].

2. تطبيق الاستدامة التراثية

اهتمت الحكومة الإماراتية بالاقتصاد المستدام، وشجعت الاستدامة في الأبنية الحديثة، واستخدام مواد تخفف من الأثر البيئي، ولأن الحديد من المساهمين الرئيسيين في البصمة الكربونية، يشجع المتخصصون باستخدام مواد أخرى مثل

قضبان التسليح المصنوعة من البوليمر المقوّى بألياف البازلت، والتي تنتجها منشأة في إمارة رأس الخيمة[7].

وتقلل قضبان البوليمر المقوى بألياف البازلت من النفايات والضرر البيئي، حيث إن معدّلات انبعاث غازثاني أكسيد الكربون الذي تسببه ألياف البازلت أقل 74 % مقارنة بالحديد.

في الاتجاه نفسه، اهتمت الدولة بالتراث المستدام، بتشجيع الإجراءات والحلول الذكية للحفاظ على التراث وتوفير عوامل الاستدامة فيه. وتتميز البيوت القديمة بمراعاة بعض المعايير البيئية، ما يجعلها نموذجاً أولياً للاستدامة، وقد يعتقد بعضهم أن ذلك تم صدفة بشكل عفوي أو فطري، ولكن التراث يؤكد أن القدماء على مر العصور .رغم افتقارهم للأدوات المناسبة .نجحوا في استغلال الموارد الطبيعية المتاحة أفضل استغلال، وكانت لديهم ثقافة شعبية فطرية تدفعهم للتفكير وابتكار الحلول، وكان ضيق الخيارات أمامهم دافعاً للاستغلال الأمثل للموارد المتاحة. ومردّ ذلك يعود إلى ذكائهم وبُعد نظرهم، إضافة إلى التجارب والدروس التي أخذوها عن الأسلاف، وقراءاتهم ومعارفهم الحديثة المكتسبة أيضاً.

لذلك تميزت البيوت التراثية بأنها راعت إلى حد ما الظروف البيئية المحيطة، ونجحت في استغلال الموارد الطبيعية، فكانت مواد البناء بسيطة لا تضر البيئة من ناحية، وتوفر الطقس الداخلي الملائم من ناحية أخرى، وراعى البناؤون القدامى منافذ دخول الهواء والضوء، وكان من نتيجة ذلك تكيّف الأبنية مع درجات الحرارة العالية، في زمن لم توجد فيه مكيفات أو أدوات تبريد حديثة. وبالنظر إلى البيوت القديمة في الإمارات نلاحظ أنها بنيت أحياناً من الطين مع إضافة مواد طبيعية، مثل: القش والقواقع البحرية، والطين عازل طبيعي، فهو دافئ في الشتاء وبارد في الصيف، وفي أحيان أخرى بنيت البيوت من الحجر الذي يتميز بالقوة والدفء في الشتاء، والبرودة صيفاً، مع استخدام أخشاب الأشجار المتوافرة في البيئة كالسدر والشريش والسمر، فتميّزت هذه البيوت بالدفء شتاءً والبرودة صيفاً.

ومن السمات المعمارية للبيوت القديمة في الإمارات البراجيل، وهي بناء مرتفع مربع الشكل كان يُبنى على سطح الغرف الرئيسية، ويقام بين زواياه الأربع جداران متقاطعان يقسمان الفراغ إلى أربع فتحات مثلثة بأسلوب يسمح بالتقاط الهواء من الجهات جميعها، وكانت البراجيل بمثابة أبراج تهوية أو ملاقف هواء توفر التهوية والتبريد.

ولاشك أن تجربة البيوت التراثية والمقومات البيئية التي توافرت فيها يمكن أن تستلهم، وتطبق في أبنية حديثة تتوافر فيها مقومات الاستدامة. ولعل تجربة المهندس حسن فتحي (1900 - 1989) يمكن أن يُحتذى بها، فقد استفاد من السمات العمرانية القديمة في تطوير قرى جديدة تتوافر فيها مقومات الاستدامة.

عُرف فتحي باهتمامه بالبُعد البيئي في العمارة الحديثة، حيث كان يضع في اعتباره الطقس، والصحة العامة، ومهارات الحرف القديمة، والبيئة المحيطة.

اشتُهر بطرازه المعماري الذي استمده من العمارة الريفية النوبية المبنية بالطوب اللبن، ومن البيوت والقصور في القاهرة القديمة في العصرين المملوكي والعثماني[8].

ومن أقوال حسن فتحي: إن «طبيعة المناخ المحلي تفرض طراز البيت، ومن الخطأ نقل الأفكار من بلد إلى آخر دون أي اعتبار للظروف المناخية والتقاليد الاجتماعية المحلية»[9].

كان فتحي يرفض أساليب البناء الحديثة التي تعتمد على واجهات الألمنيوم والزجاج التي تمتص الحرارة، وينادي باستخدام مواد تقليدية تعكس الحرارة وتوفر البرودة لقاطنها، فقام بدمج حوائط من الحجارة الكشفية وأشكال الفناء التقليدية لتوفير التبريد السلبي.

ونجح فتحي في تطبيق أفكاره رغم المعارضة الشديدة لها من أنصار البناء الحديث، فقام عام 1981 بتصميم قرية «دار الإسلام»، وهي مستوطنة في ولاية «نيومكسيكو» في الولايات المتحدة الأمريكية شيدت بالطوب اللبن على أيدي البنائين النوبيين، وأدهشت الأمريكيين، بحوائطها الطينية ومبانيها ذات القباب والأقبية. كما قام بتصميم قرية القرنة في محافظة الأقصر لتقطنها 3200 أسرة، وكانت تطبيقاً لفكرة البناء الشعبي الذي أسسه بما يُعرف بـ«عمارة الفقراء»[10].

3. التوعية «الاستدامة توجيه ديني»

الاستدامة مطلب حيوي للأفراد والجماعات يتحدد من خلاله مستقبل البشر، وهي قبل أن تكون مهمة رسمية تضطلع بها الحكومات والهيئات المتخصصة، هي في الأساس مسؤولية الفرد والمجتمع، لذلك تبرز أهمية التوعية.

ويلاحظ أن حملات التوعية ركزت على خطورة تغير المناخ والتدهور البيئي، والآثار المترتبة عليهما، ولكن ينسى كثيرون أن الاستدامة في الأساس توجيه ديني.

لقد اهتم الإسلام بالنظافة، وجعل الطهارة شرطاً لصحة الصلاة، قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[11]، وحثّ على الزينة عند الذهاب إلى الصلاة وعدم الإسراف، يقول تعالى: (يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا)[12]، كما دعا تعالى إلى تطهير الثياب، يقول في كتابه الحكيم: (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ)[13]، وهذه كلها وصايا بيئية.

كما حثّ القرآن الكريم المسلم على أن يأكل ويشرب من رزق الله، وحرّم الإفساد في الأرض، وحثّ على الحفاظ على البيئة وحمايتها، قال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[14].

وحرّم الله إفساد الأرض، ويشمل ذلك سلوكيات عديدة يمكن اختصارها في كل من يضر البيئة والأرض، قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[15].

ورغّب الإسلام في الغرس والزرع، فقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: (ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة)[16].

كما حثّ تعالى على التشجير في الظروف والأزمان كلها، حتى لو قامت الساعة، وحتى في أصعب المواقف، ففي حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي رواه الشيخان في صحيحهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها»[17].

كما حرّم الإسلام الإسراف في استخدام المياه، وهي من الموارد الطبيعية، حتى مع توافرها بكثرة، ففي الحديث أن النبي ﷺ مر بسعد بن أبي وقاص وهو يتوضأ فقال: «ما هذا السرف؟»، فقال أفي الوضوء إسراف؟ قال: (نَعَمْ، وَإِنْ كُنْتَ عَلَى نَهْرٍ جَارٍ)[18].

وفيما حث الإسلام على الزراعة والتشجير، نهى في المقابل عن قطع الشجر، فعن رسول الله ﷺ: (لا تَقْطَعُوا الشَّجَرَ، فَإِنَّهُ عِصْمَةٌ لِلْمَوَاشِي فِي الْجَدْبِ)[19].

حتى في الحروب، كان النبي - ﷺ - يوصي بالحفاظ على البيئة وعدم قطع الشجر، وعدم تخريب البناء العامر، قال ﷺ: (لا تقطعوا شجرة.. ولا تقتلوا امرأة ولا صبياً ولا وليداً ولا شيخاً كبيراً ولا مريضاً.. لا تمثلوا بالجثث.. ولا تسرفوا في القتل.. ولا تهدموا معبداً ولا تخربوا بناءً عامراً.. حتى البعير والبقر لا تذبح إلا للأكل)[20].

وهذا كله يؤكد أن الاستدامة توجيه ديني، قبل أن يكون مطلباً اجتماعياً وبيئياً، به تتحقق سلامة الأرض ومصالح البلاد والعباد، ونظراً إلى دور الإنسان الأساسي، والمسؤولية الجماعية في ذلك، فإن للتوعية دوراً مهماً، مع التركيز على البُعد الديني في القضية لأنه الأقوى والأوقع تأثيراً.

4. الأسس الاقتصادية للاستدامة

العمران نشاط أساسي في كل مجتمع، به يتمكّن الإنسان ويستقر، وهو نشاط مستمر يتوسع باتساع رقعة السكان، لذلك من الأهمية بمكان مراعاة الاستدامة فيه، وبالنظر إلى أن أساليب العمارة الخاطئة قد تؤدي إلى التلوث البصري والاكتظاظ السكاني والتهور البيئي فإن استدامة المباني تكون قضية ملحة. والعمارة المستدامة أو العمارة الخضراء هي تصميم المباني

بأسلوب يراعي القواعد البيئة، مثل: تقليل استهلاك الطاقة، واستخدام المواد المناسبة، وتوظيف الموارد بطرق ذكية، مع تقليل من تأثيرات الإنشاء على البيئة، ومراعاة الانسجام مع البيئة المحيطة. وتحقيق ذلك يستلزم وضع أسس اقتصادية للاستدامة في مناطق التراث العمراني، وذلك من شأنه أن يضمن للعملية الاستمرارية، وهو أمر ضروري لحصد النتائج بشكل دائم ومستمر. و»هناك عشرة أسس اقتصادية للاستدامة في مناطق التراث العمراني، وهي: تفعيل دور الإحياء الاقتصادي في المبنى التراثي، وتوفير رأس المال اللازم للاستثمار، والاستخدام الكفء لأدوات السياسة النقدية والمالية، والشراكة المثمرة مع القطاع الخاص، وتقليل التكلفة من خلال المشاركة الاجتماعية، والشراكة المتوازنة مع الأطراف والقوى الفاعلة «توزيع الأعباء الاقتصادية»، وتحقيق الكفاءة الاقتصادية في استثمار المبنى التراثي، ومراعاة اقتصاديات البيئة، وضمان عدالة توزيع الأرباح للأطراف المشاركة، واستدامة الوظيفة الاقتصادية والحماية القانونية»[21].

ومن المحاور السابقة نخلص إلى أن تفعيل الاستدامة في المناطق التراثية يستلزم الاستعانة بالجمع بين النظرية والتطبيق، والجهد الحكومي والقطاع الخاص والعمل التطوعي الفردي، والأساليب الحديثة وأنظمة البناء القديمة، وهذا من شأنه أن يجعل من قضية الاستدامة مسؤولية جماعية يشترك في تنفيذها الجميع ■

* صحفي وباحث مصري

المراجع والهوامش:

1. موقع الأمم المتحدة: www.un.org.
2. المركز الاتحادي للتنافسية والإحصاء: www.fcsc.gov.ae .
3. نص اتفاقية حماية التراث الثقافي والطبيعي موقع اليونسكو: https://whc.unesco.org/archive/convention-arb.pdf .
4. قائمة الاتفاقيات والمعاهدات البيئية.مصطفى القاضي: www.linkedin.com .
5. نص اتفاقية حماية التراث الثقافي غير المادي لعام 2003: https://ich.unesco.org/doc/src/01852-AR.pdf .
6. اتفاقية حماية التراث الثقافي المغمور بالمياه تدخل حيز التنفيذ مع بداية العام. أخبار الأمم المتحدة: https://news.un.org .
7. الشركة العربية لألياف البازلت منشأة لإنتاج قضبان التسليح BFRP Rebar، تقع في إمارة الفجيرة، وهي الأولى من نوعها في المنطقة العربية والثانية على مستوى العالم من حيث الطاقة الإنتاجية.
8. حسن فتحي: https://ar.wikipedia.org .
9. عمارة الطين حسن فتحي من الفشل إلى النجاح، صبحي الشاروني، مجلة العربي، العدد 402.
10. موسوعة ويكيبيديا: https://ar.wikipedia.org/wiki .
11. القرآن الكريم - سورة البقرة - الآية 222.
12. القرآن الكريم - سورة الأعراف - الآية 31.
13. القرآن الكريم - سورة المدثر - الآية 1.
14. القرآن الكريم - سورة البقرة - آية 60.
15. القرآن الكريم - سورة الأعراف - آية 56.
16. الموسوعة الحديثة: https://www.dorar.net .
17. المصدر السابق نفسه.
18. المصدر السابق نفسه.
19. المصدر السابق نفسه.
20. المصدر السابق نفسه.
21. آليات تفعيل الأسس الاقتصادية للاستدامة في مناطق التراث العمراني، الدكتور محمد محمود عبدالله يوسف، المجلة الدولية للعلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد 16، أكتوبر 2020.

فاطمة سلطان المزروعي

استطاعت دولة الإمارات العربية المتحدة في سنوات قليلة أن تحقق المعجزات، وقد تجاوزت جميع آراء خبراء الاقتصاد والمحللين والمهندسين العالميين الذين أجمعوا على أنه لا يمكن زراعة أرض قاحلة، تشكو من شح المياه، أن تنتج محاصيل زراعية، ولم يتوقعوا أن تصبح بلاد صحراوية ذات مناخ شديد الحرارة موطناً للسياحة، فضلاً عن أن تكون منافساً قوياً في واحدة من أهم مجالات الاستثمار، وهو تنافس دولي يتم بين دول تملك مقومات بيئية تساعدها على الظفر والنجاح.

أقول إن أكثر العقول تفاؤلاً هي تلك التي أعطت الإمارات نسباً متدنية من الأعداد المليونية التي تسافر بين أقطار الأرض سنوياً بحثاً عن الترفيه وتغيير الجو، والتمتع خلال إجازاتهم.

بلادنا تقف اليوم كواحدة من أهم الوجهات السياحية، وواحدة من أكبر الأسواق نمواً في هذا المجال، وواحدة من أعظم الدول التي تمكنت من تحقيق ثورة بكل ما تعني الكلمة في مجال السياحة، وهذه ليست كلمات إنشائية أو كلمات مديح خالية من الجوهر أو الدلالة، ذلك أن الأرقام والإحصاءات التي نسمعها يومياً خير شاهد وبرهان على نجاح كبير ومنقطع النظير في أي مكان من العالم وينظر الخبراء اليوم لمستقبل السياحة الثقافية في الإمارات بمزيد من التفاؤل، خاصة أن الثقافة باتت تمثل أحد أبرز عناصر القوة الناعمة، وتحظى بأشكال الاهتمام والرعاية والدعم كلها من القيادة الرشيدة، كما أن دولة الإمارات العربية المتحدة اليوم تشجع على قيم التسامح واحتضان مختلف ثقافات العالم في بيئة مثالية من التعايش وتقبل الآخر.. لقد كشفت إحصاءات حديثة بأن عدد المنشآت الصغيرة والمتوسطة التي يشملها قطاع الصناعات الثقافية والإبداعية في الدولة، تجاوز 36 ألف منشأة.. لقد تميزت الثقافة في الإمارات بالغنى والتنوع والتعدد، وقد تمثلت في وجود العديد من المعالم

والمواقع الأثرية والتراثية، مروراً بعشرات الأنشطة والفعاليات الثقافية والمهرجانات التي تستضيفها الدولة سنوياً، إضافة إلى عشرات الصروح المعرفية والفنية والتراثية والعلمية والعمرانية منها المتاحف. تلعب المتاحف أهمية كبيرة في تنمية السياحة الثقافية المستدامة ولديها دور كبير في تنمية الاقتصاد المحلي والقومي، كونها من أهم الوسائل التي تربط الماضي بالحاضر وتجسد ذاكرة المجتمع المعرفي، لقد استطاعت المتاحف باعتبارها مؤسسة مجتمعية وثقافية وتعليمية أن يكون لديها أدوار مهمة وجديدة وأصبح لديها تأثير بجميع المتغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها، وتطورت وأصبحت تنسجم مع رغبات الزوار ومتطلباتهم واستطاعت أن تحقق الاستدامة في خلق قيمة اجتماعية وثقافية واقتصادية للحفاظ على التراث وتحسين جودة الخدمات وتلبية احتياجات فئات المجتمع، كما استطاعت خلق قيمة ثقافية لمستخدميها وقيمة اقتصادية لها. نجد اليوم الكثير من المتاحف استطاعت أن تستفيد من الذكاء الاصطناعي والتطور الرقمي والانطلاق نحو المستقبل والاستفادة من الطاقات الإبداعية المتجددة، وأصبحت الثقافة الدافع الأساسي لمثل هذه السياحة التي اتخذت من المواقع التاريخية والمتاحف والآثار مقصداً أساسياً لها، لقد برزت أهمية السياحة الثقافية في الفترة الأخيرة كونها عنصراً من العناصر التي تحظى بشعبية كبيرة بالنسبة إلى الحكومات، فهي مصدر اقتصادي وسياحي وثقافي مهم كونها واحدة من أهم عناصر السياحة بالإضافة إلى العناصر الأخرى مثل: (المسارح، والفنون، والمعارض، والمهرجانات الثقافية والفنية).

- إن ارتباط الاستدامة البيئية بالمتاحف، يكمن في تحقيق الاستخدام الأمثل للموارد، وإنشاء البيئة الصديقة من حيث الالتزام بالمعايير العالمية للإضاءة والتحكم في السلامة والأمن وتقليل النفايات واستغلال الموارد اللازمة لتطوير نشاطها مثل: أنظمة ومواد البناء، والمعدات والمياه والورق، فيما ترتبط الاستدامة الحضارية للمتاحف بإبراز عناصر الفن والجمال والتميز والإبداع والأصالة عبر مسيرة التاريخ الحضاري والإنساني، فهي تغذي روح الانتماء والهوية للشعوب بتمسكها بحضاراتها وتراثها الذي لا ينفصل .

ومن أهم المتاحف في دولة الإمارات

- المتاحف في أبوظبي، ومنها: متحف اللوفر الذي يحضن الكثير من الحضارات والثقافات منذ فجر التاريخ وصولاً إلى الفنون المعاصرة، ومتحف العين الوطني، ومتحف دلما، ومتحف قصر العين، وحصن الجاهلي، وقصر المويجعي. كما تحتضن أبوظبي في المنطقة الثقافية في جزيرة السعديات متاحف، مثل: متحف زايد، والمتحف البحري، ومتحف جوجنهايم أبوظبي، وتقدم مفهوماً جديداً للمتاحف في العالم لتشجيع السياحة الثقافية .

- في دبي، هناك الكثير من المتاحف المتميزة منها: متحف الاتحاد، الذي يروي للعالم قصة تأسيس دولة الإمارات العربية المتحدة عبر معارض تفاعلية حية، وبرامج تعليمية متنوعة، ومعروضات مختلفة تضم وثائق وصوراً تاريخية توثق أحداث تأسيس الدولة وتستكشف تسلسلها الزمني وصولاً إلى إعلان دولة الإمارات. ومتحف الشندغة على ضفة خور دبي فيقع في حي الشندغة التاريخي، ويعرض تاريخ دبي وإرثها الثقافي والتجاري العالمي. ومتحف المستقبل الذي أضاف مفهوماً جديداً للمتاحف وغيّر وظيفتها الأزلية بتناول المستقبل والسعي نحو الإبداع والابتكار والاكتشافات العلمية والتشجيع على الرؤية المستقبلية، فهو مركز عالمي لالتقاء أعظم العقول البشرية وسوف يقود الحراك العلمي والحضاري على مستوى العالم.

وفي إمارة الشارقة هناك الكثير من المتاحف المتخصصة، مثل: متحف الشارقة للتراث، ومتحف الشارقة العلمي، ومتحف الشارقة البحري، ومتحف الشارقة للفنون، ومتحف الشارقة للخط، ومتحف الشارقة للحضارة الإسلامية، ومتحف الشارقة للآثار.

- وفي إمارة عجمان، متحف عجمان الوطني الذي يقف شاهداً على الإرث العريق بمبناه التاريخي المتمثل بحصن عجمان الذي يعود تأسيسه إلى أكثر من قرنين من الزمن وتحديداً إلى عام 1820، ويقع بالقرب من كورنيش عجمان في منطقة البستان..

- ومتحف أم القيوين الوطني الذي يتخذ من حصن آل علي الذي تأسس عام 1768 مقراً لعرض مقتنيات أثرية يعود تاريخها إلى آلاف السنين تم اكتشافها في موقعي الدور وتل الأبرق الأثريين، وتسليط الضوء على حياة الأولين وطرق صيد اللؤلؤ وأدواته .

- وفي إمارة رأس الخيمة، يتخذ متحف رأس الخيمة الوطني من مبنى تاريخي يعود تأسيسه إلى عام 1621 مقراً له، حيث يعرض لُقىً أثرية من أربعة مواقع أثري: وهي جلفار، والجزيرة الحمراء، وشمل، ومنطقة ضاية.

ويحتوي متحف رأس الخيمة الوطني على قطع أثرية قيّمة تحكي تاريخاً يعود إلى 7000 سنة، وهناك الكثير من الأعمال والقطع الأثرية المعروضة تحتوي على إرث المنطقة وتعبّر الرسوم التوضيحية والتركيبات الفنية عن الحياة التي كانت موجودة في تلك الحقبة ويمكن للزائر أن يراها ويتعرف عليها.

وفي الفجيرة يعرض متحف الفجيرة أكثر من 3 آلاف قطعة أثرية، والمتحف مزود بأجهزة عرض وشاشات إلكترونية للتعريف بالقطع المعروضة. ويضم المتحف قاعتين للآثار وثلاث قاعات للتراث كما أعلنت الفجيرة عن خطة لإنشاء متحف التاريخ الدولي الأول من نوعه في منطقة الشرق الأوسط، لعرض القطع الأثرية النادرة من العصور القديمة لمختلف حضارات العالم السابقة.

إن متاحف دولة الإمارات كلها، تسعى إلى تعزيز دورها في تفعيل السياحة الثقافية بشكل مستدام عبر عرض تجاربها ومعروضاتها ومقتنياتها وفعالياتها المتنوعة لترافق الزوار والسيّاح وترسم هوية سياحية موحدة للدولة، مستخدمة وسائل تقنية إبداعية وابتكارات رقمية جديدة، هدفها ترسيخ سمعة الإمارات العالمية وجعلها مقصداً دولياً في سياحة المتاحف.

كما أن لدينا اليوم عشرات من المتاحف الشخصية التي تحتاج إلى تفعيل عبر المنصات الذكية ما سوف يؤدي إلى نشر التفاعل والانسجام بين المتاحف بعضها مع بعض ويحقق نسبة عالية من الزوار ولا ننسى أهمية مشاركة المجتمع في التفاعل معها، فهناك الكثير من أصحاب المتاحف الشخصية ممن لديهم تجارب ثرية ومتنوعة في جمع هذه القطع الفنية والفريدة يمكن لهم مشاركة المجتمع لتجاربهم ولن نستطيع نشر مثل تلك الثقافة إلا في حالة التعاون، والحوار مع المعنيين من الجهات الثقافية والأثرية والفنية وإعادة النظر في قوانين المجال الثقافي بالإضافة إلى المتخصصين وأمناء المتاحف والخبراء لمناقشة مستقبل هذه المتاحف وكيف يمكنها مواكبة العصر الرقمي. لقد أصبحت السياحة الثقافية اليوم تشكل أحد القطاعات الحيوية المستدامة في دعم الاقتصاد المحلي بفضل قدرتها على جذب ملايين السياح والزوار من مختلف دول العالم، نعم إنهم يختارون الإمارات لأنها تميزت بتقدير الإنسان واحترامه، لأنها جعلت من قيمها وموروثها نهجاً ونبراساً في أعمالها ومشاريعها فنجحت في كسب القلوب والعقول، والمجال الثقافي السياحي رغم تعقيده وصعوبة التنافس فيه إلا أننا نجحنا، ومشاريعنا الأخرى التنموية بحول الله تعالى سيكون النجاح والتوفيق حليفنا فيها ■

رئيس قسم الأرشيفات التاريخية - الأرشيف الوطني

استدامة التراث...
صيانة للهوية من الذوبان واستدعاء أصالة الروح

مجدي أبوزيد

منذ أن أطلقت الأمم المتحدة مصطلح «الاستدامة» في ثمانينيات القرن الماضي، وهو لم يعد من كلمات الوجاهة اللفظية أو الرفاهية الثقافية، بل أسلوب حياة وجسر حتمي بين متطلبات الحاضر وحماية المستقبل. صار أمانة مصيرية من اللحظة الراهنة إلى اللحظات الآتية أو التالية. وارتبط مصطلح الاستدامة حصراً بالاقتصاد والبيئة والمجتمع، لكن هناك استدامة أخرى لا تقل أهمية وضرورة لارتباطها بذاكرة الإنسان، وهي استدامة التراث. وإن كانت الكثير من الدول تقيم المتاحف ومعارض الأيقونات القديمة وما تبقّى من تاريخها، فمن المؤلم أنه تم إدخالها فيما يسمى بالسياحة التراثية.. لا غير. لكن الخوف بدأ يتسلل إلى الدول والحكومات والشعوب جراء التطور التكنولوجي والثورة الرقمية التي بدأ بريقها يخطف أبصارنا من تاريخنا وهويتنا، لذلك من حقنا أن نطالب بأن يكون ماضينا جزءاً من جينات الذاكرة، لنتجنّب الذوبان في بحر التطور العمراني والسلعي، وانفتاح السموات الفضائية بكل ما تحمله من إملاءات أو ملاحقات قيمية. ومنذ أن أطلق صاحب السمو الشيخ محمد بن زايد آل نهيان، رئيس الدولة - حفظه الله - عام 2023 عاماً للاستدامة، حتى استنفرت دولة الإمارات العربية المتحدة لتكون الاستدامة ركيزة الحاضر والمستقبل. لكن ما هو التراث؟ هو «ثروة كبيرة من الآداب والقيم والعادات والتقاليد والمعارف الشعبية والثقافة المادية والفنون والكلمات والموسيقى». ولا يمكن أن ننكر أن دولة الإمارات العربية المتحدة انتهت لأهمية تراثها، فسعت إلى إقامة المهرجانات والمتاحف والفعاليات التي تحتفي بتاريخ الدولة، وإن كان الأمر يحتاج إلى بعض التوصيات والملاحظات سوف نأتي عليها لاحقاً.

مهرجانات

تحرص دولة الإمارات العربية المتحدة على إقامة العديد من المهرجانات والفعاليات السنوية التي تحتفي بالتراث المحلي، قد يكون أبرزها سباقات القوارب الشراعية، وسباقات الهجن، وغيرها. ولعل أهم هذه الفعاليات مهرجان الشيخ زايد آل نهيان التراثي، ومهرجان قصر الحصن، ومهرجان العوافي برأس الخيمة، وفعاليات أيام الشارقة التراثية.

وهذه المهرجانات تتضمن العديد من تراث الدولة، مثل المشغولات والصناعات اليدوية التراثية، والعبايات، والشيل، والتمور، والدِّلال، والحلويات والأكلات الشعبية منها اللقيمات، وخبز الرقاق، والعيالة، واليولة، والأغاني القديمة، وغيرها. ومن المهم هنا، أن نشير إلى الدور الفعّال الذي يلعبه «نادي تراث الإمارات» في استدامة تراث الدولة، عبر مشاركاته في معارض أبوظبي للصيد والفروسية، واستضافة متخصصين للحديث عن ثقافة الإمارات، سواء عبر عرض أفلام مصورة أو عروض أوراق عمل وكتب تاريخية عن الدولة، وكان آخرها مشاركته في فعاليات الدورة الثانية من مهرجان التراث البحري في شهر فبراير الماضي في أبوظبي، حيث نظم سباق أبوظبي لقوارب التجديف التراثية فئة 40 قدماً.

وهذه المهرجانات لها قيمة كبيرة لدى أبناء الإمارات وبناتها، خاصة حين يشاهدون ما وصلت إليه الدولة من تطور نوعي منذ بنائها على يد مؤسسها الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - بعد رحلة كفاح وتحدٍ للصعوبات صارت مضرباً للأمثال وسط الأمم المعاصرة. ومن الرائع ملاحظة إقبال زوار هذه الفعاليات وهم يقبلون على تناول الأكلات الشعبية، والمشاركة في رقصة العيالة ومسابقات اليولة. وهذا الأمر يسهم في تغذية ذاكرة الأجيال بمراحل مهمة من تاريخ بلادهم كي يتيقنوا أنها لم تنشأ من فراغ، وأن لها جذوراً في تربة التاريخ.

الموروث الشعبي

وإذا كانت دولة الإمارات العربية المتحدة قد قطعت شوطاً كبيراً في استدامة اقتصادها وبيئتها ومجتمعها، فإن استدامة التراث لا يقل أهمية عن الاستدامات السابقة، حيث إن «الموروث الشعبي الإماراتي وعاء غني من أوعية الثقافة، ينطلق منه الفرد المواطن للحفاظ على هويته الذاتية وشخصيته المتميزة، ولترسيخ إدراكه ووعيه إزاء مسؤولياته أمام المجتمع وأفراده»، وهو ما يجعل الإماراتي بصدد ولاء عميق تجاه وطنه بجانب حاضره المشرق. ولا نبالغ بالقول إن هناك دولاً عديدة - دون ذكر أسماء - تحاول السطو على جزء من ماضي بعض البلاد التي قد لا تتمتع بالتطور الذي تعيشه تلك الدول مدعية التاريخ.

من جانب آخر، أكد الباحث الإماراتي نجيب الشامسي، أن الاهتمام بالمناطق التراثية وترميمها وصيانتها، وما تعززه من تكريس للهوية وحفظ للانتماء، يخلق حركة اقتصادية، تخدم في المقام الأول سكان هذه المناطق وتحفزهم على التمسك بعاداتهم وتقاليدهم، التي كان يظنها بعضهم موروثات عفا عليها الزمن، مشيراً إلى إنجازات صاحب السمو حاكم الشارقة، حيث استعاد التراث بإنشاء وإحياء الأسواق القديمة والمباني والمناطق التراثية، وغيرها. من جانب آخر، تُعنى دائرة الثقافة والسياحة في أبوظبي بمسؤولية الكشف عن آثار الكشف عن الحضارات القديمة في الإمارة، إلى جانب توثيق سلامة المباني التاريخية وحفظها وضمانها. وتعتبر مدينة العين ضمن المواقع التي تحتضن آثاراً تراثية مدرجة على قوائم اليونسكو للتراث المادي. وفي السياق نفسه، فقد أدرجت اليونسكو «الصقارة» صيد الصقور ضمن التراث غير المادي للإمارات.

توصيات وملاحظات

والحقيقة أن الحديث عن التراث المادي وغير المادي في الإمارات يستحق صفحات وصفحات، وأن الاحتفاء بهذه العراقة والأصالة يتبوأ مكانة بارزة في فعاليات الدولة وأنشطتها وثقافتها، وهو ما يحقق مفهوم الاستدامة في أحد جوانبها، لكن يبقى جانب آخر لابد من الإشارة إليه وهو ضرورة أن يكون تراث الإمارات جزءاً لا يغيب عن ذاكرة الأجيال الحالية والمقبلة، التي نرى بالإمكان تحقيقه كالتالي:

أولاً: أن يتم إدماج لمحات من تراث الإمارات في مناهج التعليم خاصة للصفوف الأولى، من خلال طبعها في كتب أو كتيبات شرط أن تكون ضمن درجات التقييم وليست ترفيهية.

ثانياً: تخصيص حصص أسبوعية أو شهرية في المدارس والحضانات والرياض، يتم خلالها تنظيم أنشطة تتناول بعض العادات والتقاليد الأصيلة مثل «السنع»، وآداب شرب القهوة، وتوفير أكلات شعبية وشرح تاريخها وكيفية إعدادها لدى أمهاتنا وجداتنا.

ثالثاً: تنظيم رحلات مدرسية شهرياً لمختلف المواقع التاريخية والتراثية مع وجود مرشد أو مرشدة لشرح تاريخ الموقع ودوره في الماضي.

رابعاً: أن تتم استضافة متخصصين في المدارس والجامعات لشرح تاريخ الإمارات، وأهمية معرفة تراثنا للحفاظ على الهوية الوطنية، وكذلك أهمية التمسك بالعادات والتقاليد الأصيلة ودورها في إثراء الجانب الأخلاقي والسلوكي في حياة الطلبة والطالبات.

وأخيراً وليس آخراً، فإن استدامة التراث يجب ألا تنحصر في المشاهدات البصرية والترفيه السياحي، بل يجب أن تكون ضمن بناء العقل في القاعات الدراسية وأفنية المدارس ومناهجها ■

*كاتب من مصر

الحفاظ المستدام على التراث العمراني ..

البيت الغربي في الشارقة نموذجاً

خالد بن محمد القاسمي

يعتبر التراث العمراني، ولاسيما المباني التراثية، أحد أهم مقومات التراث نظراً إلى قيمته التاريخية والثقافية والحضارية التي لا يستهان بها، فهو يربط المجتمع في العصر الحديث بجذوره التاريخية ويمثل مراكز جذب سياحي وثقافي، والتراث العمراني ذو ثقل كبير، كما أن وجود المباني التاريخية والأثرية في المدن يعطي قيمة كبيرة لهذه المدن، ونظراً لأن المدن عناصر ديناميكية تنمو غالباً عمرانياً وسكانياً على مرّ العصور فقد تأثرت المناطق التاريخية بها بهذا النمو بشكل أو بآخر، حيث إن الكثير من المناطق والأماكن التاريخية تعرضت لتعديات مختلفة أدت إلى تدهور نسيجها الحضاري الأمر الذي جعل الجهات المعنية تهتم بعمليات الحفاظ عليها وإظهارها في كيانات عمرانية مستقلة، ولذا كان لا بد من العمل من أجل الحفاظ المستدام على هذا التراث، حتى يصل إلى الأجيال القادمة، لأنه يُعد حلقة وصل بين الماضي والمستقبل.

أولاً - مفهوم التراث العمراني:

«التراث العمراني هو كل ما شيَّده الإنسان من مدن وقرى وأحياء ومبانٍ وحدائق ذات قيمة أثرية أو معمارية أو عمرانية أو اقتصادية أو تاريخية أو علمية أو ثقافية أو وظيفية»، ويتم تحديد هذا التراث تحت ثلاثة مستويات كما يلي[1]:

1 - المباني التراثية: وتشمل المباني ذات الأهمية التاريخية والأثرية والفنية والعلمية والاجتماعية بما فيها الزخارف والأثاث الثابت المرتبط بها والبيئة المرتبطة بها.

2 - مناطق التراث العمراني: وتشمل المدن والقرى والأحياء ذات الأهمية التاريخية والأثرية والفنية والعلمية والاجتماعية بكل مكوناتها من نسيج عمراني وساحات عامة وطرق وأزقة وبنى تحتية وغيرها.

3 - مواقع التراث العمراني: وتشمل المباني المرتبطة ببيئة طبيعية متميزة على طبيعتها أو من صنع الإنسان.

ثانياً - مفهوم الحفاظ المستدام:

عند ظهور فكرة التنمية المستدامة في ثمانينيات القرن العشرين بدأ التطبيق لمفاهيم الاستدامة في مجالات مختلفة، ومنها مجال الحفاظ على المباني التراثية التاريخية، وعرف ذلك بالحفاظ المستدام. ويعني الحفاظ العمراني والمعماري: الجهد الفاعل والهادف إلى تحقيق استمرارية كل ما لديه قيمة من العناصر البيئية والبنائية المكونة لحيز أو مفرد كما يمكن تدقيق هذا المفهوم من أنه منظومة الأعمال والإجراءات الهادفة إلى منع التلف والتردي وإزالة أوجه التداعي والإبقاء على الموروث ذي القيمة للإنسانية وللأجيال المستقبلية.

البيت الغربي، المصدر موقع الخليج https://cutt.us/06VsG

وبما أن مفهوم الاستدامة يهدف إلى تحقيق أقصى استغلال وتحسين للصياغات التنموية في إطار القيود والمحددات على اختلاف أنواعها، فإن الحفاظ المستدام يتطلب التواصل لتحقيق كفاءة الاستخدام على أبعاد عدة متعلقة بالاقتصاد والبيئة والمجتمع والثقافة والتقنية،... إلخ، أي إن هدف عمليات الحفاظ بحسب مفهوم الاستدامة أصبح استخدام الموروث الحضاري والتاريخي لتلبية احتياجات الحاضر، والمحافظة على أكبر قدر ممكن منه وتوصيله للأجيال القادمة[2].

وتبرز أهمية مفهوم الحفاظ على الموروث الحضاري بوصفه المحدِّد لأسلوب التعامل مع الموروث العمراني، فهو يتعامل مع ذاكرة المجتمع من خلال إنقاذ المعالم التراثية والدلائل التاريخية، وضمان استمراريتها بفاعلية تجنبها الإهمال، ليتم بها استقراء هوية المجتمع وخصوصيته، وفي مطلع التسعينيات من القرن الماضي بدأت تظهر مشاكل في كيفية التعامل مع الأبنية التاريخية بمفهوم الحفاظ لذا ظهرت أفكار وأساليب جديدة ولاسيما بعد الثورة التكنولوجية التي سمحت بتنفيذ كثير منها فبدأت حقول جديدة بالظهور في مجال الحفاظ وأهمها الحفاظ المستدام[3].

ثالثاً - أهمية الحفاظ على التراث العمراني:

تبرز أهمية الحفاظ على التراث العمراني في جوانب عدة:

1 - الجانب التاريخي:

تعتبر الآثار تاريخاً من نوع خاص، فهي تاريخ مادي حي، وعليه فإن الآثار مصادر أساسية وحية لا يستغني عنها المؤرخ في الكتابة التاريخية فعن طريق الآثار يستطيع أن يؤكد أو ينفي بعض

الأحداث التاريخية التي تناولتها الكتب.
فهي تقدم للمؤرخ الدعم المادي في الكتابة لأن الأثر من منظوره دعامة مادية تحمل العديد من المعارف التاريخية والأثرية والفنية والحضارية[4].

2 - الجانب الاقتصادي:

فالتراث العمراني يُعد أحد الموارد الاقتصادية المستدامة؛ حيث يتيح الفرصة لتنويع موارد الاستثمار ودوامها، ومن الخصائص المميزة لمباني التراث العمراني القائمة أنها تمثل موارد يمكن استثمارها؛ وفي الوقت ذاته فإن المحافظة على التراث العمراني وإعادة توظيفه يحقق فرصاً استثمارية أخرى، تتحقق منها عوائد مالية واقتصادية بصورة متوازنة ومستدامة، فالتراث العمراني يعد وعاءً لمعظم أنشطة السياحة الثقافية[5].

3 - الجانب الاجتماعي:

التراث العمراني يغذي وينمي روح الانتماء والهوية للشعوب وهذا يعني إعادة الحياة إلى المواقع والمباني التاريخية ما يساعد على ربط المجتمعات بتراثها وثقافتها وله الأثر الفاعل في تواصل الأجيال من خلال ربط الماضي بالحاضر لاستشراف المستقبل أيضاً.

4 - الجانب الفني الجمالي:

تتمثل أهمية مواقع ومعالم التراث العمراني في أنها تحوي مباني قديمة ذات مفردات وعناصر عمرانية نادرة ومنفردة مستمده من أصالتها ومهارة صناعتها، والقيمة الجمالية هي المعيار الأكثر موضوعية لتحديد الأهمية[6].

رابعاً - أساليب الحفاظ على التراث العمراني:

يعتبر التراث كنزاً لا بد من الحفاظ علية وتوريثه للأجيال القادمة باعتبار أنه جزء محوري من هوية المدن، ويتم التعامل مع التراث من خلال مجموعة من الأساليب: حيث يتم اختيار واحد من هذه الأساليب أو أكثر، وذلك حسب وضعية المنطقة أو المبنى المراد الحفاظ عليه. وتتمثل هذه الأساليب في[7]:

1 - إعادة البناء والتعمير: يرتبط هذا الأسلوب بعمليات إعادة التخطيط، وتعمير المناطق التراثية المتدهورة، التي تستلزم عمليات إزالة أو تجديد واسعة النطاق وبشكل جذري، كما تهتم هذه السياسة بالبُعد الوظيفي والقيمة الاقتصادية للاستعمال فتعطي بذلك إمكانية الاستغلال بما يتناسب والتغيرات العمرانية والتكنولوجية.

2 - المحافظة على التراث: هي عملية مركبة تشمل تعيين، تصنيف، تسجيل، حماية، صيانة، ترميم، وإعادة تأهيل المدن والمناطق والمعالم التاريخية بعناصرها العمرانية كلها، المعمارية، والجمالية، والتاريخية، كما تشكل تحسين وتطوير مستوطنات الحياة القائمة باعتبارها المرآة العاكسة للتراث والقيم الثقافية، ومنع أي اعتداء عليها أو تشويهها بأي شكل من الأشكال.

3 - الترميم: يتميز أسلوب الحفاظ هذا عن غيره باهتمامه بالقيمة الثقافية والأثرية كأولوية أولى، بالنظر إلى القيمة الوظيفية والاقتصادية بحيث يتم إعادة العناصر المرممة إلى أصلها.

5 - الحماية: يرتبط هذا الأسلوب بأسلوب الترميم والتجديد، بل يتعداه إلى وضع معايير واشتراطات لاستغلال وإعادة توظيف المناطق التراثية لضمان صيانتها واستغلالها لأطول وقت ممكن، وبالتالي حمايتها من المؤثرات الخارجية البيئية منها والعمرانية التّي تؤثر سلباً فيها وفي محيطها.

6 - إعادة التأهيل: يهتم هذا الأسلوب بالمباني التاريخية كلها (من حيث ترميمها، وتجديدها، وحمايتها، وصيانتها، وإعادة استعمالها) ومحيطها العمراني من حيث تحسين طرقها وتزويدها بالبنية الأساسية (المرافق، والخدمات اللازمة) وذلك حتى تتكامل المناطق التاريخية مع المناطق الحديثة بالمدن.

7 - الصيانة: يتضمن هذا الأسلوب استدامة تكيف المنطقة الأثرية واستمراريتها، مع التغيرات السريعة والمستمرة الحادثة من حولها فهي تمزج بين اهتمامها بالنواحي المعمارية والعمرانية وكذا التغيرات الحضرية، والاجتماعية، والتكنولوجية.

ولعل من أهم مستويات الحفاظ على التراث العمراني: الحفاظ على المبنى الواحد، مثل عمليات الترميم للمباني التراثية وتحويلها إلى متاحف أو مزارات سياحية، بحيث يكون لهذا المبنى قيمة وأهمية ويكون إما بالعمل داخل هذا المبنى وإما بالعمل خارجه وإما بالاثنين معاً، ويكون لهذا المبنى على الأقل واجهة على المحيط أو أكثر وبالتالي يتم التفاعل مع الخارج والتأثر بالمحيط ومثال على ذلك المباني التي يتم تحويلها إلى متاحف[8].

خامساً - البيت الغربي نموذجاً للحفاظ المستدام على التراث العمراني:

1 - سياسة إمارة الشارقة فيما يخص الحفاظ المستدام على التراث العمراني:

تبذل حكومة الشارقة بناء على توجيهات صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي جهوداً كبيرة من أجل الحفاظ المستدام على التراث التاريخي والعمراني، الذي يتم من خلال إعادة الترميم والبناء، والعمل على وقف المشروعات كلها التي تشوه هذا الإرث التاريخي، وانطلاقاً من هذه الرؤية وبناء على توجيهات سموه بدأ العمل في منطقة الشارقة القديمة عام 1990، حيث تم ترميم عدد كبير من البيوت والمساجد والأسواق والأبراج والحصون[9]. ويقدر صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، قيمة البيوت التراثية، إذ حظيت بعنايته، وقرر وضع خطة لترميمها، وإعادة توظيفها، انطلاقاً من اقتناعه بأن فكرة ترميم الأثر لا تقتصر على ترميم الحوائط والمباني بل تتسع لتشمل تطوير العقول وتغذيتها عن طريق الأنشطة والفعاليات التي تحيي ذاكرة الوطن، ومن وحي هذه الفلسفة، تم تحويل بعض البيوت الأثرية بعد ترميمها إلى ما يعرف بمراكز الإبداع الفني، وبيوت الخطاطين، للمحافظة عليها وتعظيم استفادة المجتمع من أنشطتها، وهي رؤية حديثة للتعامل مع الأثر والبشر في آن، وهي تعتمد على المزج بين القيمة التاريخية للأثر، والإبداع الفني للإنسان بكل صوره[10]. ومن هذه البيوت «البيت الغربي».

2 - القيمة التاريخية والتراثية للبيت الغربي:

وتنبع القيمة التراثية للبيت الغربي ليس من كونه مجرد تراث عمراني فحسب، ولكن لقيمته التاريخية أيضاً؛ فهو بيت الشيخ سلطان بن صقر بن خالد القاسمي، الذي تولى حكم الشارقة في عام 1924م، وكان شاعراً، وله اطلاع حسن على الأدب العربي. وأحسن من هذا أنه كان يُعنى بالقضايا العربية، ويلم بها إلماماً جيداً[11]. ومن أهم الأحداث التي وقعت في عهده توقيع اتفاقية مع بريطانيا لإنشاء مطار مدني في الشارقة، كما حصل الإنجليز،

في عام 1951م، على ترخيص من نائبه الشيخ «محمد بن صقر» بتكوين قوة «ساحل عُمان» في الشارقة[12]. ولم يكن الشيخ «سلطان بن صقر القاسمي» مستبداً في حكمه، بل كان لديه هيئة تعاونه في القيام بشؤون الحكم، فقد كان شقيقه الشيخ «محمد بن صقر القاسمي» نائباً للحاكم، أما أخوه الشيخ «ماجد بن صقر القاسمي» فكان يجلس في سوق عرصة الفحم يستمع لشكاوى الناس ليحلها أو يدفع بها إلى قاضي البلد - ويُسمى الشرع - وكان يومها الشيخ «سيف بن محمد بن مجلاد المدفع»، الذي كان يتقاضى الناس لديه في مجلسه العامر. فكان يرسل الأحكام إلى الشيخ «سلطان بن صقر القاسمي» لتنفيذ ما جاء بها أو التصديق عليها. أما وزير الشيخ فكان السيد «إبراهيم بن محمد المدفع»، وينحصر عمله في المراسلات والعلاقات الرسمية مع الآخرين[13].

ترتبط النهضة بمفهومها العام ارتباطاً وثيقاً بوجود أشخاص تتوافر لديهم الفطرة الناضجة، والرغبة الدقيقة والحب الأصيل للوطن، وهذا ما حدث منذ أن تولى الشيخ «سلطان بن صقر القاسمي» الحكم في إمارة الشارقة عام 1924م، فقد بدأ يؤسس ويفتح المجال أمام العلماء والأدباء والمصلحين ورجالات البلاد لكي يشاركوا في عملية بناء الإنسان والنهوض بالمجتمع في المجالات كافة، وقد شهدت الشارقة في عهده ازدهاراً علمياً وثقافياً، وبدأت تشق طريقها نحو المستقبل معتمدة على روادها

ومثقفيها، ومصلحيها الذين وقفوا إلى جانب الحاكم مؤازرين[14].

وكان هو أول من نادى بمجانية التعليم؛ حيث خصص جزءاً من دخل الفرضة[15] لمدرسة الإصلاح لكي تفتح أبوابها وتستمر في عطائها، وبذلك أطلق على تلك المدرسة اسم «الإصلاح القاسمية»[16]. فإبان الحرب العالمية الثانية تم غلق المدرسة الإصلاح بسبب سوء الحالة الاقتصادية، ولكن ما انقضى عام واحد حتى لاحظ حاكم الشارقة الشيخ «سلطان بن صقر» الاستياء من الناس بسبب إغلاق المدرسة، وكان الشيخ سلطان أكثرهم سخطاً، لذلك طلب الشيخ سلطان بن صقر من الأستاذ محمد بن علي المحمود أن يعيد فتح المدرسة فوراً ودون تأجيل أوتأخير. وكان قد ازداد دخل الناس بسبب الانتعاش الذي حصل بعد توقف الحرب، وهنا اتصل الأستاذ محمد بن علي المحمود بالحاكم، وبيّن له أن الجمهور انتعش مادياً، ثم قدم اقتراحاً بأن يجمع في قصره كل المستطيعين بدعوة من سموه فيسهم كل واحد بقدر استطاعته بمبلغ من المال فيكون صندوقاً للمدرسة، ثم يضيف الحاكم على ذلك نسبة قليلة من دخل البلاد، حتى يصبح التعليم في المدرسة مجانياً، وقد استحسن الحاكم هذا الاقتراح، فأعلن على الفور دعوة الناس إلى قصره وقت الغروب، فاجتمع كثير من الناس على خير وبركة، فطُرح الأمر على بساط البحث وتقدم كل من استطاع متبرعاً بماله، ووضع الحاكم من دخل البلاد مبلغاً مناسباً، وبهذه المناسبة انتقلت مدرسة الإصلاح من بيت سالم إلى بيت بجوار القصر وأصبح التدريس فيها مجانياً، وأصبحت المدرسة تسمى الإصلاح القاسمية[17]. وفي يوم 23 مارس عام 1951م، توفي الشيخ «سلطان بن صقر» إثر عملية أجريت له في مستشفى «لندن كلينك» في لندن، وتقرر أن يدفن في الشارقة[18].

3 - وصف البيت الغربي والحفاظ المستدام على تراثه العمراني:

يقع البيت الغربي خارج منطقة السور القديم للشارقة، أي جنوب، وعلى شماله يقع بيت حمد المدفع، وبيت سعيد الشامسي (الطويل)، وبيت عبد الله بن سلطان القاسمي، وفي جانبه الشرقي يقع مسجد البدو، وبيت الشيخة نورة ويحده من الغرب بيت محمد بن ماجد المدفع. ويعتبر موقع البيت الغربي محطة للسيطرة والاطلاع ومتابعة ما يدور في الشارقة كمدينة والمناطق المجاورة؛ فجهة البيت الشمالية - ذات المدخل الرئيسي - تشرف على مدينة الشارقة داخل سورها، متابعة ما يحدث من عمليات التبادل التجاري عن طريق السفن الراسية في مينائه. أما الجانب الجنوبي المطل على الطرق والمسالك البرية التي كانت تأتي القوافل محملة بما تجود عليهم تلك المناطق من سلع، تلك القوافل كانت تمر قرب البيت للدخول إلى مدينة الشارقة للتبادل وبيع البضائع.

فالبيت إذن كان هو حصن الأمن والأمان للمدينة، ما زاد في حقل التجارة وتوافد التجار والبضائع وأمان سفنهم داخل المنطقة وخارجها[19]. تبلغ مساحة البيت 1290 متراً مربعاً، ومساحة الفناء 500 متر مربع. وتتميز أقسام البيت بالفصل وعزل بعض وحداته السكنية والخدمية بعضها عن بعض رغم تلاحم بناء البيت وتلاصقه وتداخل جدرانه وسطوحه. ويتألف من طابقين، ويتكون من مدخل رئيسي، ومدخل للحرس، ومدخل ثانوي خلف البيت، ويقع فناء البيت الغربي في الوسط، بينما تقع الوحدات المبنية كلها على مدار البيت بما يحيطه وبشكل متناظر على مستوى حجم الغرف وارتفاعها ومواقع الشبابيك بمقاساتها كلها، كما تنطبق تفاصيل السمك والارتفاع في بناء الجدران عليها جميعها، حيث بنيت من الحجر البحري والجص، والسقوف من الأخشاب الطبيعية. وتخطيط البيت الغربي مستطيل تتساوى

أضلاعه المتقابلة تقريباً، ويتألف البيت من طابقين حيث يضم الطابق الأرضي 32 وحدة سكنية وخدمية، تشمل الغرف، والأواوين، والحمامات، والزوايا والمداخل. أما الطابق الأول فوق الأرضي ففيه ثلاث غرف، تقع غرفتان في جانبه الغربي، وغرفة واحدة مع حمام في وسط جانبه الشمالي مخصصة للضيوف[20].

ولأهمية البيت الغربي التاريخية والتراثية، وجّه صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، بترميمه، وبناء على توجيهات سموه خضع البيت الغربي لعمليات ترميم، حرص القائمون عليها، على إبقائه بالتفاصيل الهندسية، واستخدام المواد الأولية ذاتها، مع إضافة عناصر البيوت الحديثة الأساسية كتمديدات الماء والكهرباء ومصارف الصرف الصحي، حيث تم الاعتماد في الترميم على المصادر الموثقة والصور التي تكشف عن شكل البيت قديماً، حرصاً في الإبقاء على مزاياه وشكله المعماري والهندسي كما كان، وما دعا إلى عمليات الترميم، هو بعض التغييرات التي شهدها، فغيرت بعض معالمه، حيث اختلطت الأواوين والغرف، وتم بناء الحواجز والأبواب الخارجية وتمديد الأسلاك الكهربائية العشوائية، وأنابيب المياه من قبل آخر سكانه، بالإضافة إلى انتشار النباتات الطفيلية، وعدم صرف المياه، ما نتج عن انهيار أجزاء من البيت وتآكله، وغير ذلك الكثير[21]. ويقوم البيت منذ عام 1997 بوظائف ثقافية، بعد إعادة بنائه على يد مهندسين وخبراء إدارة الحفاظ العمراني

والترميم بمعهد الشارقة للتراث، وأصبح البيت مقراً لإدارة التراث، وفي عام 2014، تمت إعادة صيانته وتأهيله لاستقبال الفعاليات التراثية والثقافية، وفي عام 2014 أصبح البيت الغربي مركز فعاليات التراث الثقافي، ويتضمن قسم الفعاليات والأنشطة التابع لمعهد الشارقة للتراث كإدارة، وتقام فيه على مدار العام العديد من الأنشطة والفعاليات التي يقصد منها إحياء تراث الشارقة وتاريخها، والتعريف بثقافات العالم للمجتمع، ففيه تقام أسابيع التراث الثقافي العالمي، الذي نستضيف فيه تراث دولة ما وثقافتها بعدد من عناصرها ومكوناتها، ونعرّف الجمهور عليها، وكانت البداية مع الدول العربية، كما يستضيف البيت المقهى الثقافي على مدى أيام الشارقة التراثية، ويقام فيه كذلك فعاليات متنوعة منها صناعات الحرف، حيث يعتبر البيت الغربي مركز أنشطة المجتمع[22]. وهكذا، فقد جاء الحفاظ المستدام للبيت الغربي تأكيداً لهوية دولة الإمارات، ومن خلاله تم ربط الماضي بالحاضر، لاسيما بعد إعادة توظيفه؛ إذ أصبح مركزاً لفعاليات التراث الثقافي التابع لمعهد الشارقة للتراث، تلك الفعاليات التي تهدف ليس إلى إحياء تراث الشارقة وتاريخها فحسب، بل والتعريف بثقافات العالم كلها للمجتمع الإماراتي ■

باحث في شؤون الخليج

الهوامش:

1. بروزة ملوكة. بحري أميرة: التنمية المستدامة في مناطق التراث العمراني (عرض تجربة تونس ورصد الواقع في الجزائر)، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، تصدر عن جامعة قاصدي مرباح ورقلة، الجزائر، ج7، ع 22، 3 مارس 2015. ص 217، 218.

2. علي محمد عامر: توفير الاحتياجات التعليمية لمدينة صنعاء القديمة وفقاً لمفهوم الحفاظ المستدام، مجلة الجامعة العربية الأمريكية للبحوث، فلسطين، المجلد 2، الإصدار 2، 2016.

3. باسم حسن هاشم الماجدي، حارث خليف الطائي: الحفاظ الوقائي المستدام للأبنية التاريخية، المجلة العراقية للهندسة المعمارية، الصادرة عن الجامعة العراقية للهندسة المعمارية، الصادرة عن الجامعة التكنولوجية، العراق، بغداد، ع 4، كانون أول/ديسمبر 2015. ص 309.

4. ذهبية شاقور: حماية التراث الثقافي في ضوء القانون الوطني والدولي، رسالة ماجستير، كلية الحقوق والعلوم السياسية، جامعة عبد الحميد بن باديس (مستغانم)، 2016/ 2017. ص 35.

5. Mahmoud Ahmed Darwish, Problematic of preserving the architectural heritage and its sustainability (Sheikh Sa'eed House in Dubai for example), International Journal of Innovation and Scientific Research, Volume 27, Issue 2, Nov. 2016,p 356.

6. حمرة غزلان، طويل كوثر: الحفاظ على التراث العمراني والمعماري من أجل تحقيق التنمية السياحية المستدامة.. دراسة حالة القصر العتيق بورقلة، رسالة ماجستير، معهد تسيير التقنيات الحضرية، جامعة بن مهيدي أم البواقي، 2015/ 2016. ص 25.

7. وزارة الشؤون البلدية والقروية، دليل المحافظة على التراث العمراني، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، 2005، ص 8.

8. رنا جوهر: متطلبات التطوير العمراني للأحياء التاريخية لتحقيق التنمية المستدامة (حالة دراسية حي السفاحية - مدينة حلب القديمة)، رسالة ماجستير، كلية الهندسة المعمارية، جامعة حلب، 2016، ص 34.

9. علي عفيفي علي غازي: حداثة الشارقة بين التراث والمعاصرة. مجلة شؤون اجتماعية، الصادرة عن جمعية الاجتماعيين في الشارقة، مج 31، ع 124، شتاء 2014. ص 209.

10. علي عفيفي علي غازي: جهود صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان القاسمي في الحفاظ على التراث. مجلة «شؤون اجتماعية»، الصادرة عن جمعية الاجتماعيين في الشارقة، مج 32، ع 125، خريف 2015. ص 161.

11. أحمد قاسم البوريني: الإمارات السبع على الساحل الأخضر. دار الحكمة، 1957. ص 176.

12. محمود بهجت سنان: إمارة الشارقة، وزارة الثقافة والإرشاد، بغداد، 1967. ص 32.

13. الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي: سرد الذات. منشورات القاسمي، ط1، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة، 2009. ص 26.

14. فاطمة الحاج عبد الله الجبروش: الخيار الثقافي، إنجازات مشروع الشيخ الدكتور سلطان القاسمي (1972 - 2009). الإمارات العربية المتحدة، 2013. ص 20.

15. الفرضة: الميناء أو مرسى السفن التجارية.

16. عبد الله علي الطابور: المحمود صفحات مضيئة في تاريخ الإمارات العربية المتحدة. إصدارات دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2000. ص 91.

17. عثمان صديق الحسين: الشيخ محمد بن علي المحمود. دائرة الثقافة والإعلام، حكومة الشارقة، الطبعة الأولى، 1998. ص 26.

18. الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي: سرد الذات، مصدرسابق، ص 81.

19. عبد الستار العزاوي: البيت الغربي..تحليل عناصره المعمارية وصيانتها، دائرة الثقافة والإعلام، حكومة الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة، 2004. ص 11 - 12.

20. المرجع السابق، ص 14 - 16.

21. لمزيد من التفاصيل حول عملية الترميم للبيت الغربي، انظر المرجع السابق، ص 79 - 108.

22. فدوى إبراهيم: البيت الغربي.. حاضن الثقافة في الماضي والحاضر، موقع جريدة الشارقة، بتاريخ 12 مايو 2016، على الرابط التالي: https://cutt.us/zhrel

إحياء أسواق الشارقة القديمة ...

نموذج لاستدامة الأماكن التاريخية

حماده عبد اللطيف

تعد الأسواق بأشكالها المختلفة من الظواهر الاجتماعية التي تلازم التجمعات البشرية، لأنها مكون مهم من مكونات المدن، وشريانها الحيوي، ومعلم أساسي من معالمها منذ القدم. وتستحوذ الأسواق على قدر كبير من اهتمام الناس، نظراً إلى ما توفره من فرص اتصال وتفاعل اجتماعي، بالإضافة إلى وظيفتها الأساسية كمرفق اقتصادي وتجاري. وقد ارتبطت الأسواق ارتباطاً كبيراً بالمدن حتى أصبحت جزءاً من تراثها، وفصلاً مهماً من فصول تاريخها، ومن ثم بدأ الاهتمام يتزايد بالأسواق التي لها طابع تاريخي وتراثي، وبذلت الجهود لإعادتها لوظيفتها التي أُنشئت من أجلها، مع الأخذ في الاعتبار الإبقاء على طابعها التاريخي الذي يضفي عليها نوعاً من الخصوصية يميزها عن غيرها من الأماكن والأسواق.

من هذا المنطلق حرصت إمارة الشارقة على إحياء أسواقها التاريخية، وإعادتها للعمل، في خطوة مهمة نحو استدامة الأماكن التاريخية، حيث إن الشارقة تمتلك عدداً من الأسواق التاريخية التي كان لها أثر كبير في تطور المدينة، وأسهمت بشكل مباشر في صياغة تاريخها، وكان مبدأ الاستدامة من العناصر الأساسية التي قامت عليها مبادرة إحياء الأسواق التاريخية والتراثية لمدينة الشارقة، حيث إن الهدف الأساسي من تلك المبادرة لم يكن ترميم تلك الأسواق من حيث الشكل التي كانت عليه سابقاً فقط، بل بالإضافة إلى ذلك أن تستعيد وظيفتها الفعلية إليها كمناطق تجارية تتم فيها عمليات البيع والشراء بشكل واقعي، وإعادتها للاستخدام مرة أخرى بالصورة نفسها التي كانت عليها من قبل؛ لتستمر تلك الأسواق في القيام بوظيفتها اقتصادياً واجتماعياً وحضارياً، هذا النوع من الاستدامة والاستمرارية يعزز الارتباط بتاريخ المكان وتراثه. كما يحفظ للأجيال القادمة

تاريخها، بالإضافة إلى كونها حلقة وصل بين ما مضى وما هو قائم. وبالفعل، فقد تمت إعادة العمل من جديد إلى بعضٍ من هذه الأسواق، وأصبحت عامرة بالبائعين والمشترين والمارة كما كانت في سابق عهدها، وهذه أمثلة من بعض الأسواق التاريخية لمدينة الشارقة التي أُعيدت للعمل مرة أخرى بطابعها القديم نفسها .

سوق العرصة

يعتبر سوق العرصة من أقدم الأسواق الشعبية في الشارقة وفي الإمارات بشكل عام، وسمي (سوق العرصة) بهذا الاسم، لأنه يقع بمحاذاة عرصة السوق، وهي أرض فضاء تقع بين بيت النابودة ومجلس النابودة في منطقة الشارقة القديمة المعرفة باسم (قلب الشارقة) وللسوق تسعة أبواب تغلق في المساء لتأمين الحماية اللازمة للمحال، وقد بنيت حول إحدى هذه البوابات مجموعة من الدكاكين امتدت فيما بعد لتشكل خطاً مستقيماً تتخلله الأزقة، وقد عرف السوق كمركز للتعامل التجاري منذ تشييده قبل ما يقرب من 180 عاماً، وكان باستمرار يعج بالحركة والنشاط طوال اليوم، تُعرض فيه المنتجات المختلفة من الحلي الفضية ومصنوعات الحرف اليدوية وصناديق التحف والخناجر

أعمال الحفريات والتنقيب في المنطقة الواقعة بين حصن الشارقة والكورنيش، والتي كشفت عن أساسات السوق القديم الذي يرجع تاريخه إلى فترة الخمسينيات من القرن الماضي، وكان يربط السوق المسقوف في منطقة المريجة بسوق الشيخ صقر بن محمد القاسمي في منطقة الشويهين، ومن ثم، تم اعتماد مشروع إعادة بناء السوق على الأساسات التي تم اكتشافها، وتسميته «سوق الشناصية» كما كان اسمه في السابق (نسبة إلى التجار القادمين من منطقة شناص)، وظهر سوق الشناصية في ثوب جديد وبطرازه السابق نفسه ليستقبل رواده وتنتعش فيه حركة البيع والشراء كما كانت من قبل.

سوق صقر

يقع سوق صقر في منطقة الشارقة القديمة بمحاذاة خور الشارقة، وكانت واجهته البحرية المطلة على مرفأ المراكب الشراعية التي تحمل بضاعتها إلى إيران وباكستان والهند، من العوامل المهمة التي أسهمت بشكل كبير في انتعاش حركة التجارة في السوق، وبخاصة تجارة الذهب، التي كان السوق واحداً من أهم مراكزها في الماضي، بالإضافة إلى تجارة المنسوجات العُمانية ولآلئ الخليج، وقت أن كانت تجارة اللؤلؤ الطبيعي من أهم الأنشطة التجارية في منطقة الخليج، ولم يقتصر السوق على عمليات البيع والشراء فقط، بل كان يعد من الأماكن المهمة التي يجتمع فيها الناس، حيث تعقد فيه الصفقات بين تجار اللؤلؤ، وتتم فيه الاتفاقات بين النواخذة والبحارة. وقد تم ترميم السوق وتجديده على أصله دون المساس بطابعه المعماري والتاريخي، وعادت متاجره لتفتح أبوابها من جديد، لتعود معها حركة البيع والشراء في الازدهار داخل السوق.

سوق الشناصية

يعتبر سوق الشناصية من أقدم الأسواق وأكثرها حيوية في الشارقة، فقد كان له دور كبير في حركة التجارة فيما مضى، حيث أهّله موقعه المواجه لخور الشارقة أن يكون مركزاً تجارياً مهماً يستقبل التجار والبضائع من أنحاء الخليج كافة، ونظراً إلى التوسع والتغير العمراني اللذين شهدتهما الشارقة بشكل عام، ومنطقة الشارقة القديمة على وجه الخصوص على مدى فترة زمنية كبيرة، اختفت معالم السوق تماماً وحل محله أبنيه جديدة، وأثناء تنفيذ المرحلة الأولى من مشروع تطوير قلب الشارقة، وبعد إجراء المسح الجيوفيزيائي للمنطقة، بدأت

والتوابل والأعشاب. أعيد افتتاح سوق صقر مرة أخرى بعد عمليات الترميم والتجديد التي نُفذت بدقة، حيث روعي فيها أن ينسجم السوق بعد ترميمه، مع طبيعة المكان الموجود فيه، وهو منطقة الشارقة القديمة (قلب الشارقة)، التي تتميز بطابعها التراثي والتاريخي، لذا فقد استخدمت في عملية الترميم المواد نفسها التي تم استخدامها عند بناء السوق في الماضي، والتي

كانت منتشرة في تلك الفترة ومستخدمة بكثرة في عمليات البناء، مثل الحجارة الحمراء الطبيعية التي تجمع من شاطئ البحر والتي تعرف محلياً بـ(الفاروش)، والحصى الكبير، بالإضافة إلى الجص الذي كان موجوداً عند المواضع المتبخرة من البحيرات الضحلة، كما كانت تستخدم جذوع الأشجار وسعف النخيل وبعض الأخشاب أيضاً، ومن ثم فقد ظهر السوق بعد تجديده وافتتاحه للجمهور، متسقاً ومتماشياً مع السياق العام للمكان، ولم يتخلَّ عن ملامحة التراثية.

جاءت تجربة الشارقة في إحياء أسواقها القديمة كواحدة من التجارب المهمة في مجال استدامة الأماكن التاريخية، والسعي الدائم لتستمر هذه الأماكن في القيام بدورها بشكل فعال، بالإضافة إلى المحافظة عليها وعلى هويتها وطابعها الخاص من المتغيرات المتلاحقة التي تحدث بشكل مستمر، تلك الأماكن التي أهّلتها طبيعتها المعمارية والبيئية أن تظل متاحة بأشكال مختلفة، وبكفاءة عالية خلال فترات زمنية طويلة، ما يعزز استمرارها في القيام بدورها الذي وجدت من أجله ■

* كاتب من مصر

باب العزلة

عبد الفتاح صبري
روائي وناقد مصري

الباب سيظل رمزاً عصياً على التحديد البسيط اليسير السهل في الظاهر سيوصف شكله طوله وعرضه وصنعته من حديد أو خشب وعن وظيفته سيوصم بأنه عاملُ أمان وحفظٌ للمنزل أو الدار من دخول الغرباء .. وسيتفنن بعضهم في أساليب الشرح عنه وعن ماهيته وعن أشكاله القديمة عبر التاريخ أو في ثقافة الحضارات والدول المختلفة وأهم الأبواب في التاريخ الإسلامي أو العربي مثلاً أو عن باب المعبد وشكله، وباب المسجد وعلوه، أو باب الكنيسة وزخرفته.. لكن سيظل الباب طلسماً أبدياً - ومثاراً للجدل والمناقشة والفحص والتمحيص... فالباب معجمياً يعني:

الباب: هو اسم

الجمع : أبواب وبيبان

الباب: مدخل البيت

الباب: ما يسد به المدخل من خشب أو نحوه

إذاً هو هنا بمعنى الإغلاق.. ما يسد به المدخل ولم نتكلم على أنه باب للفتح أو ضد الإغلاق..

الباب في مبنى السجن يمثل عتبة أولى نحو العزل .. والانعزال بالجبر بعيداً عن الناس عن الحياة عن الحيوات الطبيعية للإنسان عن الحيوات الإنسانية للفرد نفسه المحكوم عليه بالانعزال خلف باب صقيل فخيم الصناعة والمتانة والسمك والصلابة؛ ولقهر الفرد، ومقاوم بمزاليج ومفاتيح لأي محاولات لفتحه عنوة سواء من الداخل أو الخارج.. والباب في هذه الحالة يكون صلداً شديد القسوة مصنوعاً بتقانة عالية ومقاوماً للقلع والكسر، ومضاداً لأي محاولات للاقتحام والفتح من دون آليات الانضباط وتسلسل الأوامر والروتين - وكأن باب السجن يمثل سطوة القانون، وسطوة هيبة الدولة، وهيبة الشرطة في الدولة على مر العصور والأزمات والحضارات المختلفة - هذا الباب فخيم الصنعة يأخذ من الهيبة عظمته وقدرته على الحجز والقهر حينما يكون الإنسان الذي يقبع خلفه قد دخله عنوة دون سند قانوني أو دون محاكمة قانونية وشرعية تبيح للسلطة احتجازه فيكون هذا القابع خلفه مقهوراً في وقته وحريته ومسلوبة إرادته دون شرعية أو سند أو مسوغ. في هذه الحالة سيكون الباب رمز القهر ورمز سلطة غاشمة قاهرة ظالمة - الباب في حالة السجن في الأحوال كلها يمثل حالة خاصة لأنه رمز للقوة ولهيبة السلطة من جهة ويمثل رمزاً للقهر والعزل للخارج خلفه، وخاصة أن من بالداخل سيكون في أماكن متتالية أو حجرات متتالية كل منها يفضي لأخرى وكلها مفصولة بأبواب تلو أبواب - الباب هنا سيكون رمزاً عصياً على الانفكاك منه لأنه ليس باباً واحداً بل أبواب ولكل باب حارس ومفتاح غير الذي يليه أو يسبقه وكأنها متتالية من شفرات عصية على الفك لهذا الذي انعزل في مكامن السجن ليقضي وقته وفق أقانيم وشروط أخرى للحياة غير المعتادة، أهمها أنه سلب من حيواته، ومن حركته العامة في الحياة سواء كانت بسبب أو دون سبب بحكم وقانون وسند أو دون مبرر، المهم أنه مكان مظلم في إنسانيته؛ لأنه سالب للحرية والحركة، وله أساليبه في المعيشة المختلفة عن خارجه، ولذا فإن الباب هنا يشكل مساراً مهماً للتنزيل في دار العقاب.

الباب يفتح بميعاد ويغلق بميعاد، الخروج منه بميعاد والدخول منه بضوابط وأوقات في المكان الضيق الأكثر ضيقاً والذي سيضم فرداً ربما وحيداً أو حتى أفراد. هو مكان عزلة مصمم بخصائص تسهم في الإيذاء النفسي والجسدي لتنزيله كنوع من التأديب على ما اقترفه أو لعصيانه أو رفضه أشكال ما مفروضة عليه في حياته التي كانت، ولذلك فالباب هو الأداة الرئيسية في هذا المكان الهندسي بتصاميم نفسية خاصة يشكل فيها الباب رمزاً ومكانة عالية لسمت المكان كما يشكل رمزاً مضاداً لذلك لأنه رمز للحرية والانعتاق في حالة اجتيازه أيضاً - الباب في السجون أنواع وأشكال.. الباب الرئيسي للدار الحكومية الكبيرة في المساحة وعلو الجدران وحبكتها- ويشكل الباب رمزاً للقوة والجبروت وسطوة السلطة التي توفر الأمن والأمان للناس وتهيئ هذه الدور الكبيرة لإيواء الخارجين على السلطة والقانون والمتلاعبين بأمن وأمان الناس؛ ولذلك فضخامة هذه المباني وعلوها يشكل رمزاً لقوة الدولة وهيبتها، ويشكّل الباب رمزاً لعلو الهيبة وقوتها لذلك سنرى أبواباً ضخمة تمتلك المنعة والحصانة والقوة ضد المغيرين مثلاً من الخوارج الذين يطمحون أحياناً لكسرها للإفراج عمّن بالداخل عنوة. وتكتسب هذه الأبواب الهيبة والمنعة لسكان الداخل من النزلاء لتشكل لهم بُعداً نفسياً يسهم في عقابهم وفي الإقرار بضعفهم داخل أروقة المكان الذي يضمهم... أما أبواب العنابر الضيقة والأبواب التي تفضي إلى بعضهم فأبواب حديدية موغلة في المنعة والإغلاق بمزالج وسلاسل أيضاً كي تعطي الانطباع الأهم لدى النزيل الذي دخل هنا ليشعر بمدى خضوعه وانصياعه لقوة القانون وهيبته من ناحية ولتهيئته بالعقاب النفسي والبدني ومنع حركته وحريته من ناحية، إضافة إلى الضوابط الأخرى داخل عتمة المكان وتفاصيله.. الباب هنا عنصر مهم للضبط، ورمز مهم للقانون وللحرية أيضاً. ولذلك فإن هذه الأبواب اكتسبت عناية السلطات المتخصصة على مر التاريخ والعصور فاللافت للانتباه أن السجن مكان للعزل والاحتجاز موجود منذ فجر التاريخ وفي الحضارات البشرية كلها. فهو دليل دائم على وجود سلطة وقانون وإنسان غير منضبط يحتاج إلى عزله عن المجتمع إما عقاباً على اقترافاته وإما تحييده وإبعاده عن الجماعة حتى تنجو من تأثيره ومن شرور أعماله وأقواله وأفكاره - في الحضارة المصرية القديمة الفرعونية كان السجن موجوداً ووثقها القرآن الكريم في سورة يوسف... وفي الحضارات الأخرى. ومن اطلع على قصص التراث العربية سيجد ذكر السجن وأبوابه، ولمن قرأ ألف ليلة وليلة سيرى أشكالاً وأنواعاً للسجون وأبوابها التي وصفت بالمنعة والقوة... وحين الإمعان في التاريخ سنرى كيف كانت السجون في العصور القديمة أقبية تحت الأرض أو تحت المباني المشيدة تدخل من أبواب سرية عصية على الناس العادية التي لا تدرك أن هنا باباً ربما من حجر... وكانت ممرات تفضي إلى ممرات، وأبواباً تفضي إلى أبواب إمعاناً في الحجز وعدم التخطي السهل أو اليسر في الخروج تغميضاً للداخل المحجوز والمعزول بأمر السلطان أو القانون عن التسرب من المكان أو الهروب منه. وفي تلك الحقب كان الأسير المعزول تربط أقدامه في سلسلة أو سلاسل لإعاقة حركته وعدم تمكّنه من الهروب ورغم ذلك كان للباب هيبته ومناعته وقوته وكان الباب حارساً متيناً وأميناً لهذه الأقبية.

وفي السجون كما قلنا هناك أنواع وأشكال للباب... وكما أوردنا الباب الرئيسي الكبير والمدخل الأهم للمبنى العظيم ومدى هيبته ومكانته وعلوه وضخامة شكله.. ثم باب الزنزانة الداخلية الذي غالباً ما يكون من الحديد لسبك المتانة ودرء التفكير في الاجتياز أو العبث بالباب ومحاولة إخضاعه بالكسر أو الفتح عنوة؛ لأنه من حديد عصي على المحاولات الفردية للانقضاض عليه أو حتى الجماعية إن غلب ظن أكثر من نزيل في التخلص من وظيفة الباب المانعة والحارسة بالقوة أو الإكراه.

سيظل هناك باب ثالث مختلف وتماماً عن هذين النوعين. إنه باب مدير المكان الكبير باب الضابط الكبير المسؤول عن المكان وكذلك أبواب غرف ضباط المكان المشرفين على النزلاء ستكتشف أنه باب خشبي فخيم الشكل معالج بألوان وحشوات تدل على عظمة صاحبه وعظيم مكانته، ويسهم بهدوء صنعته ولين سمته وحلو معالجته في إضفاء الزهو والبهاء والفخامة على صاحب الرأي والنهي في المكان الفخيم الكبير، الذي يشكل واجهة السلطة وبهاء القوة ونعومة سيطرتها من خلال عظمة يكتسبها بالقانون الذي جعل هذا المكان كله ملك يمينه... والباب جزء من رسم لوحة البهاء وترجمان لبعض عظمة الشخصية القابعة خلفه؟ يعطي دلالة على المكانة من خلال جمالياته وليونته والذي ينزلق وينفتح بيسر وسهولة عكس تلك الأبواب الخشنة الأخرى في المكان ■

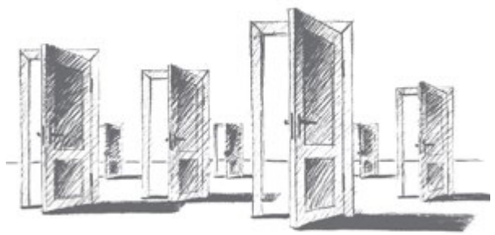

جوهرة الساحل

مدينة سوسة التونسية عبر الزمان والمكان

ضياء الدين الحفناوي

تتمتع مدينة سوسة الواقعة على الساحل الشرقي لتونس بتاريخ طويل وغني يعود تاريخه إلى أكثر من 3000 عام، وقد تأثرت بالعديد من الحضارات والثقافات بما في ذلك الفينيقيون والرومان والعرب والعثمانيون وتأسست سوسة كمستعمرة فينيقية في القرن التاسع قبل الميلاد ثم احتلها الرومان في عام 200 قبل الميلاد، وخلال الفترة الرومانية أصبحت سوسة (التي كانت تسمى، آنذاك، حضرميت) مركزاً مهماً للتجارة والزراعة والتصنيع بالإضافة إلى ميناء رئيسي لنقل البضائع في جميع أنحاء البحر الأبيض المتوسط. في القرن السابع الميلادي فتحت القوات العربية مدينة سوسة وأصبحت مركزاً رئيسياً للتعليم والثقافة الإسلامية خلال القرن السادس عشر، وحكمت الإمبراطورية العثمانية سوسة ما أدى إلى بناء العديد من المعالم البارزة بما في ذلك المسجد الكبير والمدينة المنورة.

وفي أواخر القرن التاسع عشر أصبحت سوسة وبقية تونس تحت سيطرة الفرنسيين الذين أقاموا محمية على البلاد وخلال هذه الفترة خضعت سوسة لتحديثات كبيرة ومنها بناء بنية تحتية جديدة وتوسيع اقتصادها وحركة التجارة فيها عبر المتوسط، وحصلت تونس على استقلالها عن فرنسا عام 1956، وأصبحت سوسة وجهة سياحية مهمة من ذلك الحين، واليوم سوسة مدينة مزدهرة يبلغ عدد سكانها أكثر من 200000 نسمة تشتهر بشواطئها الجميلة ومعالمها التاريخية وثقافتها النابضة بالحياة والمدينة هي موطن للعديد من المتاحف وأهمها: متحف سوسة الأثري، ومتحف دار الصيد التي تعرض تاريخ المدينة الغني وثقافتها، وتعد مدينة سوسة أحد مواقع التراث العالمي لليونسكو فهي واحدة من أفضل الأمثلة المحفوظة لمدينة عربية إسلامية في العالم وتستقطب آلاف الزوار كل عام، والمرجّح أنه اسم (سوسة) من أصل أمازيغي، حيث إنّ أماكن عدة في شمال أفريقيا تحمل الاسم نفسه، مثل: سوس في المغرب أو سوسة في ليبيا. وبقيت سوسة متميّزة عبر العصور وهي في الوقت الحاضر مركز إداري

وصناعي وتجاري وسياحي وثقافي نشيط لها مكانة متميزة على الصعيدين الداخلي والخارجي. وتقع سوسة في الوسط الشرقي للبلاد التونسية ومدينة سوسة على مسافات غير كبيرة من المدن التونسية المهمة فتقع 140 كم جنوب تونس العاصمة، و50 كم شرق القيروان، و20 كم غرب المنستير، و120 كم شمال صفاقس. وتعتبر المدينة مركز منطقة الساحل التونسي وتعرف بجوهرة الساحل وتمتد على طول يقدر بنحو 170 كم بين مدينة بوفيشة ومدينة الشابة، وعرض 25 كم تقريباً بين سوسة ومدينة سيدي الهاني، فسوسة مدينة ساحلية تشرف على شواطئ البحر الأبيض المتوسط وتتميَّز بسواحلها الرملية الملائمة للنشاط التجاري البحري ولنشاط صيد الأسماك وللنشاط السياحي، وتتكون تضاريسها من سهول وربى قليلة الارتفاع، وأراضيها ملائمة للنشاط الزراعي وتربية الماشية كالغنم والبقر والماعز والدواجن ومناخها متوسطي معتدل معظم أوقات العام.

التنوع الثقافي والتراثي والطبيعة الفريدة

سوسة مدينة حقاً غنية بالتنوع الثقافي والتراثي فقد تأثرت المدينة بالعديد من الحضارات المتعاقبه عليها على مر العصور مثل: الرومان والعرب والأتراك العثمانيون وتركت كل حضارة بصمتها على المكان ما أعطى لمدينة سوسة طابعاً فريداً وخاصاً فهي واحدة من أفضل الأمثلة المحافظة على أصالتها وحفاظها على تخطيط المدن الإسلامية في منطقة البحر الأبيض المتوسط، فيمكن القول إنها متاهة من الأزقة الضيقة والمنازل التقليدية والمعالم التاريخية التي تعكس ماضي المدينة كمركز مهم للتجارة والثقافة وهناك الكثير من المواقع أيضاً التي من خلالها يمكن التعرف على تراث المدينة الثري بالكثير من الإبداع، مثل: رباط سوسة وهو دير محصن بُني في القرن التاسع للدفاع

عن المدينة ضد الغزاة، وهو أحد أقدم القلاع وأهمها في تونس ومفتوح للزوار كمتحف، والجامع الكبير بسوسة الذي تم بناؤه في القرن التاسع وهو من أقدم المساجد في تونس، ويعتبر مثالاً مثيراً للإعجاب للعمارة الإسلامية ويشتهر بمئذنته وقبته المزخرفة بشكل رائع ودقة كبيرة، وسراديب الموتى في سوسة وهي مقابر تحت الأرض أيضاً تعود إلى العصر الروماني وقد تم استخدامها من قِبل المسيحيين الأوائل في المدينة وهي الآن مفتوحة للزوار كموقع تاريخي، ومتحف دار الصيد وهو عبارة عن منزل تم ترميمه يعود إلى القرن الثامن عشر ويقدم لمحة عن الحياة اليومية وثقافة التجار الأثرياء في المدينة خلال العصر العثماني، ويتميز بالعمارة التونسية التقليدية والأثاث في ذلك العصر والحرف اليدوية وهناك متحف سوسة الأثري أيضاً وهو موطن لمجموعة من القطع الأثرية من مختلف الحضارات التي أثرت في تاريخ المدينة، وتشمل المعروضات الفسيفساء والفخار والتماثيل من

العصر الروماني والفينيقي وتشتهر سوسة بشواطئها الجميلة التي تجذب السياح من جميع أنحاء العالم أيضاً، وتقدم الشواطئ مزيجاً من وسائل الراحة الحديثة والثقافة التونسية التقليدية فتجد المقاهي والمطاعم على شاطئ البحر التي تقدم أشهى المأكولات المحلية والبحرية، ومن أشهر الشوطئ في سوسة شاطئ الحمام ويعتبر مثالياً للتنزه، وعلى الرغم من وجود العديد من المطاعم القريبة فإن من المألوف رؤية العائلات تتجمع على

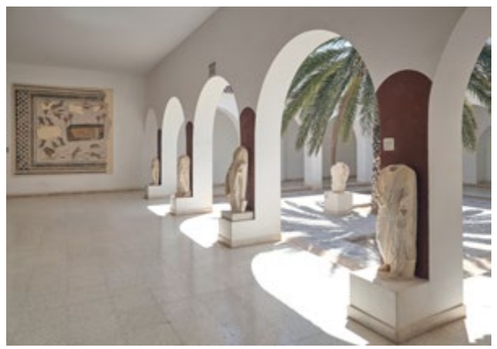

الشاطئ وتستمتع بتناول وجبة بجانب البحر، وبالإضافة إلى هذه الشواطئ هناك شواطئ تابعة لبعض الفنادق أيضاً، كما أنها تشتهر برمالها البيضاء ومياهها الصافية، ويمكنك زيارة حديقة حيوان فريجيا وقضاء يوم كامل في التجول في حديقة الحيوان ومشاهدة العروض هناك، والحديقة المائية في ميناء القنطاوي يمكن الوصول إليها بواسطة التاكسي أو القطار أو الحافلة كذلك. وتشتهر مدينة سوسة ليس بشواطئها فقط، بل إن متاجر سوسة تجذب السياح فهناك العديد من المحلات التجارية ومراكز التسوق التقليدية والحديثة ويمكنك شراء مجموعة متنوعة من السلع الغريبة التي تشمل المشغولات الفنية والحرف اليدوية والسجاد وغيرها من الأشياء التي ستذكرك دائماً بعطلتك الرائعة في سوسة، فيمكن القول إن مدينة سوسة تجربة فريدة وغريبة حقاً فالتنوع الثقافي والتراثي لسوسة من خلال معالمها القديمة ومتاحفها وشواطئها والحياة اليومية لسكانها يرسم تاريخ سوسة وارتباطها بالحضارات المختلفة التي تركت بصماتها على الهندسة المعمارية والفن والمأكولات. فالمدينة بحق بقعة ساحرة بين التراث والتاريخ وجمال الطبيعة وسحر البحر ■

* كاتب مقيم في الإمارات

بالرفـــق يا بن آدم

بالرفـــــق يـــا بـــن آدم فـــي دنيـــــاك
احـــــذر جـــــزا يـــــومٍ يلاقيـــك

اسمـــــــع لبـــيب القـــلب وصّـــــاك
وافهـــــــم نصيحة يت مـــــن أبيـــــك

أبوك يـــــوم الصغـــــــر ربّـــــــاك
ولي مـــــن طلبتـــــه كـــان يعطيـــــك

خلّك مديـــــم مطـــــيع مـــــــــولاك
زور الاقـــــارب وارض والديـــــــــك

لو كـــان صـــــرف الوقـــت خـــــلّاك
الكـــــــبر مـــــا ظـــــنّي يخـــليّك

يبـــهدلك ويـــــبري لك اعضـــــــاك
وســـــط الحشـــــا تكـــــثر بلاويـــك

إن ســـــــرت للدخـــــتور لاقـــــــاك
يقـــــــــول لـــك مـــا اقـــدر أداويـــك

قالـــــوا عيـــالك خلّـــــــه هُنـــاك
نحـــــن على اليومـــــــــين بانـــيك

وان عـــــاد حبـــــل الـــموت وافـــاك
مـــــــا ينفعـــــك لو النـــــاس تبكـــيك

وإن خـــــــذت مكـــتوبـــــك بِيمُنـــــاك
بتطيـــــــح ويـــــن القســـــم يرضـــيك

فـــي جـــنة الفـــــــــردوس مـــــــاواك
مـــــــن فضـــــــل ربّـــك لـــي مســوّيك

وان كـــان هـــــي عوفـــــــه ســـيايـــاك
بتْطيـــــــــح في النيـــــــران تلظـــيك

مـــــا ينفعـــك لا هـــــــــــذا ولا ذاك
لا مـــــــــــــال وإلا حـــدّ ياويـــــك

وفـــي الآخـــــــــــره هذاك مثـــــواك
شروات لـــــــي مستوفـــــــــي الشـــيك

القصيدة للشاعرة راشد بن محمد بن عبلان الكتبي الذي ولد عام 1932 في منطقة هيلي في مدينة العين، وتوفي عام 2011. حفظ الشاعر القرآن الكريم في بداية حياته، وبدأ بنظم الشعر مبكراً حيث كان عمره لا يتجاوز 14 عاماً، وقال الكثير من القصائد في مختلف المجالات، ويتركز أغلب شعره في الغزل والمشاكات والمديح، وتتنوع قصائده الاجتماعية في شتى المضامين، مثل: الهجن، والمناسبات الاجتماعية، والنقد الاجتماعي وغيره. وقد انضم ابن عبلان إلى البرنامج التلفزيوني "شعراء القبائل" الذي كان يُقدّم في تلفزيون أبوظبي في منتصف الثمانينيات من القرن الماضي، وظل به حتى توقفه.

«رمضان زمان» بعيون الرحالة العرب والأجانب

مشاهدات وحكايات من كتب أدب الرحلة

محمد عبد العزيز السقا

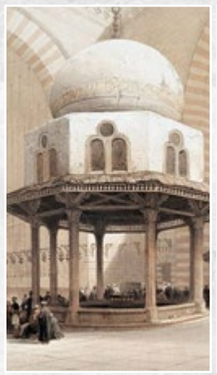

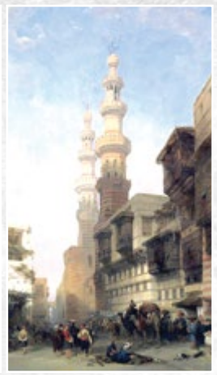

«رمضان زمان» بعيون الرحالة العرب والأجانب

مشاهدات وحكايات من كتب أدب الرحلة

محمد عبد العزيز السقا

عادات وطبائع، أحداث وحوادث، أفراح وأتراح، قصص وحكايات، قسمات ترتسم على الوجوه، تولد بفرح مع ميلاد هلال شهر رمضان المعظم الذي يفعل في المسلمين فعل السحر بين ليلة وضحاها، يفرح الحزين ويسعد المهموم ويتصالح الخصوم ويتحامل المريض على نفسه، وتنذر الأم نفسها وليمة طيبة لأولادها، فيما تتزين الشوارع والمساجد والدور بعمارها وزوارها وضيوفها، كتابات الرحالة العرب والمسلمين على مدار ألف سنة من أدب الرحلة دوّنت عشرات المشاهد والانطباعات عن رمضان زمان، في صفحات حافلة بشهادات ورؤى ضمنت لنا صورة تاريخية مفعمة بالألوان والحياة، تأطرت بالدقة، وطرافة الوصف أحياناً ولم تخلُ من متعة ومعاناة وأحزان أحياناً أخرى، لكنها انتهت بنصر وبشارات، أضمنها للقارئ الكريم عبر سطور هذه المقالة.

العبدري المغربي يحضر رمضان في مصر

في رمضان عام 688هـ/1289م، جاء العبدري برحلة من أقدم رحلات المغاربة إلى الديار الحجازية قاصداً أداء مناسك الحجّ، عبر درب الحاج المصري من القاهرة إلى مكّة. بدأ بالحديث عن الإسكندرية، أول محطة يقصدها أهل المغرب في ترحالهم تجاه الشرق الإسلامي، وكان وصولهم إليها في شهر رمضان ليلحقوا بمحمل الحج الذي يخرج من القاهرة في شهر شوال، وقد وجد فيها طلاوة المنظر وحلاوة المذاقة، فهي فسيحة الميدان مليحة البنيان، كلها عجب قد سترحُسنها حُسنُ غيرها وحجب. وقد ذكر أن ليالها عامرة بمجالس أهل الفضل والعلم.

وفي القاهرة أواخر شهر رمضان، نزل مقيماً في المدرسة الكاملية في الجمالية (ومازالت المدرسة موجودة حتى الآن) وهي مطلة على شارع بين القصرين أكبر شوارع القاهرة وأحفلها بالحركة، وكان أمامها سوق الدجاجين ثم سوق الشماعين تزينه الشموع الضخمة «الموكبية» طوال شهر رمضان حتى يتحول ليله إلى نهار، ومن شرفة علوية بالمدرسة الكاملية ينقل لنا معاناته مع السوق الذي لا ينام فيقول رحمه الله: «فكنت قلما أرقد إلا منغصاً لصياح الباعة وهم يبيعون طوال الليل. والطريق غاصة بالخلق حتى ترى الماشي فيها ما له هم سوى التحفظ من دوس الدواب إياه.

لأن الخلق يندفعون فيها مثل اندفاع السيل، وقد ضاعت لي بها دابة بسبب الزحام كان عليها شخص راكباً إياها، فتكاثر عليه الزحام حتى أسقط عنها واندفعت في غمار الخلق ولم يمكنه التوصل إليها وهو يبصرها حتى غابت عنه وكان آخر العهد بها.

وقد شهد العبدري صلاة العيد في مساجد القاهرة وذكر صلاة الناس بساحة القلعة وسط البلد.

المقريزي والعادة الجارية في مصر الفاطمية

أما المؤرخ المقريزي فيذكر في الخطط عن أهل مصر أنه كان لهم في شهر رمضان أنواع من البرّ منها: كشف المساجد، كان القضاة في مصر إذا بقي لشهر رمضان ثلاثة أيام، طافوا يوماً على المشاهد، والمساجد في القاهرة ومصر، فيبدؤون بجامع المقس، ثم بجوامع القاهرة، ثم بالمشاهد، ثم بالقرافة، ثم بجامع مصر، ثم بمشهد الرأس لنظر حصر ذلك، وقناديله، وعمارته، وإزالة شعثه، وكان أكثر الناس ممن يلوذ بباب الحكم، والشهود، والطفيليون يتعينون لذلك اليوم، والطواف مع القاضي لحضور السماط. كما كانت العادة جارية آخر جمادى الآخرة من كل سنة أن تغلق جميع قاعات الخمارين في القاهرة ومصر، وتختم ويحذر من بيع الخمر. وكان من عاداتهم في رمضان ما يسمى «غرّة رمضان» أيضاً، في أوّل يوم من شهر رمضان، يرسل لجميع الأمراء، وغيرهم من أرباب الرتب والخدم ولكل واحد من أولاده، ونسائه طبق فيه حلواء، وبوسطه صرّة من ذهب، فيعم ذلك سائر أهل الدولة، ويقال لذلك غرّة رمضان. كمان كان من المشاهد الموثقة ركوب الخليفة في أوّل شهر رمضان، فيجري أمره في اللباس والآلات، والأسلحة، والعرض والركوب والترتيب، والموكب والطريق المسلوكة، ويكتب إلى الولاة، بذلك. ومن مشاهدات رمضان أيضاً ما يعرف بـ «سماط شهر رمضان» في قاعة الذهب من القصر الفاطمي ويكون في اليوم الرابع من شهر رمضان، حيث يرتب عمل السماط كل ليلة في القاعة بالقصر إلى السادس والعشرين منه، ويستدعى له قاضي القضاة ليالي الجمع توقيراً له، أما الأمراء، ففي كل ليلة منهم قوم بالنوبة، ولا يحرمونهم الإفطار مع أولادهم، وأهاليهم، ويكون حضورهم بمسطور يخرج إلى صاحب الباب، فيعرف صاحب كل نوبة ليلته، فلا يتأخر ويحضر الوزير، ويهتم فيه اهتماماً عظيماً بحيث لا يفوته شيء من أصناف المأكولات الفائقة، والأغذية الرائقة، وهو مبسوط في طول القاعة، مادّ من الرواق إلى ثلثي القاعة، والفرّاشون قيام لخدمة الحاضرين، وحواشي الأستاذين يحضرون الماء المبخر في كيزان الخزف، ويكون انفصالهم العشاء الآخرة، فيعمهم ذلك، ويصل منه شيء إلى أهل القاهرة من بعض الناس لبعض، ويأخذ الرجل الواحد ما يكفي جماعة، ثم يتفرّق الناس إلى أماكنهم بعد العشاء الآخرة بساعة أو ساعتين، قال: ومبلغ ما ينفق في شهر رمضان لسماطه مدّة سبعة وعشرين يوماً ثلاثة آلاف دينار.

أما أسمطة السحور فإنها تكون مصاحبة لجلوس الخليفة في الروشن إلى وقت السحور، والمقرئون تحته يتلون عشراً، ويطرّبون بحيث يشاهدهم الخليفة، ثم يحضر بعدهم المؤذنون، ويأخذون في التكبير، وذكر فضائل السحور، ويختمون بالدعاء، وقدّمت المخادّ للوعاظ، فذكروا فضائل الشهر، ومدح الخليفة والصوفيات، وقام كل من الجماعة للرقص، ولا يزالون إلى أن ينقضي من الليل أكثر من نصفه، فيحضر بين يدي الخليفة أستاذ بما أنعم به عليهم، وعلى الفرّاشين، وأحضرت جفان القطائف، وجرار الجلاب برسمهم، فأكلوا، وملؤوا أكمامهم، وفضل عنهم ما تخطفه الفرّاشون، وتقدم الصحون الصيني مملوءة بالقطائف، فيأخذ منها الجماعة الكفاية. وفي التاسع

الشريف (مسجد النبي في المدينة) في ليلة الجمعة أول شهر رمضان من سنة أربع وخمسين وستمئة، وكان أن استولى الحريق على جميع سقوفه، وبقيت السواري قائمة كأنها جذوع النخل، حتى إن السقف الذي كان على الحجرة المقدسة لم يتحمل وسقط. فكُتِبَ بذلك إلى الخليفة المستعصم بالله، فوصل الصناعُ والآلات صحبة حجاج العراق، وابتُدِئَ بالعمارة فيه من سنة خمس وخمسين وستمئة. وسقفوا الحجرةَ الشريفة وما حولها إلى الحائط القِبلي، والشرقي، إلى باب جبريل، ومن جهة المغرب الروضة الشريفة جميعها إلى المنبر الشريف ثم دخلت سنة ست وخمسين وستمئة فكان في الحرم منها واقعة بغداد وقتل الخليفة المستعصم آخر الخلفاء العباسيين في بغداد، ثم وصلت الآلات من مصر آلات وأخشاب، فعملوا إلى باب السلام المعروف قديماً بباب مروان بن الحكم. وحدث أن تولى الملك سيف الدين قطز، وفي شهر رمضان من السنة المذكورة كانت واقعة عين جالوت التي أعز الله فيها الإسلام وأهله واستبشر الناس.

رمضان مع ابن جبير ومعاناة في إيطاليا!

استهل ابن جبير هلاله بشهادة ثبتت عند حاكم أطرابنش (قرب صقلية في إيطاليا حالياً) بأنه أبصر هلال شهر رمضان ليلة الخميس، ويوم الخميس كان صيام أهل مدينة صقلية فعيّد الناس على الكمال، وحسبك أنا كنا نقتصر على مقدار رطل من الخبز اليابس، نتقسمه بين أربعة منا، نبله بيسير من الماء فنتبلغ به. يقول: وكان مصلانا في هذا العيد المبارك بأحد مساجد أطرابنش مع قوم من أهلها امتنعوا من الخروج إلى المصلى لعذر كان لهم فصلينا صلاة الغرباء جبر الله كل غريب إلى وطنه، وخرج أهل البلد إلى مصلاهم مع صاحب أحكامهم وانصرفوا بالطبول والبوقات فعجبنا من ذلك ومن إغضاء النصارى لهم عليه ونحن قد اتفق كراؤنا في المركب المتوجه إن شاء الله إلى بر الأندلس ونظيرنا في الزاد والله المتكفل بالتيسير والتسهيل..

ابن بطوطة ورمضان الحجاز والمكيين

أما ابن بطوطة أمير الرحالة العرب والمسلمين فقد سجل ما رآه واطلع عليه من عادات أهل الحجاز والمكيين في شهر رمضان في كتابه «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» المعروف باسم «رحلة ابن بطوطة". فيقول: وإذا أهّل هلال رمضان تضرب الطبول والدبادب عند أمير مكة، ويقع الاحتفال بالمسجد الحرام، من تجديد الحصر، وتكثير الشمع والمشاعل، حتى يتلألأ الحرم نوراً، ويسطع بهجة وإشراقاً، وتتفرق الأئمة فرقاً، وهم الشافعية والحنبلية والحنفية والزيدية، وأما المالكية فيجتمعون على أربعة من القراء، يتناوبون القراءة ويوقدون الشمع ولا تبقى في الحرم زاوية ولا ناحية إلا وفيها قارئ يصلي بجماعة، فيرتج المسجد لأصوات القراء، وترق النفوس وتحضر القلوب وتهمل الأعين». وعن عادات المكيين في أوقات السحور يقول: إنه إذا كان وقت السحور يتولى المؤذن الزمزمي التسحير في الصومعة التي بالركن الشرقي من الحرم، فيقوم داعياً ومذكراً ومحرضاً على السحور، وهكذا يفعلون في سائر الصوامع، فإذا تكلم أحد منهم أجابه صاحبه، وقد نصبت في أعلى كل صومعة خشبة على رأسها عود معترض، قد علق فيه قنديلان من الزجاج كبيران يوقدان، فإذا قرب الفجر وقع الإيذان بالقطع مرة بعد مرة، وحط القنديلان، وابتدأ المؤذنون بالأذان، وأجاب بعضهم بعضاً، ولدار مكة شرّفها الله سطوح، فمن بعدت داره بحيث لا يسمع الأذان يبصر القنديلين المذكورين فيتسحر، حتى إذا لم يبصرها أقلع عن الأكل". ويضيف عن الليالي الوترية وما يفعلونه في ليلة القدر أنهم في ليلة وتر من ليالي العشر الأواخر من رمضان يختمون القرآن ويحضر الختم القاضي والفقهاء والكبراء، ويكون الذي يختم بها أحد أبناء كبراء أهل مكة. فإذا ختم، نصب

له منبر مزين بالحرير، وأوقد الشمع، وخطب، فإذا فرغ من خطبته استدعى أبوه الناس إلى منزله فأطعمهم الأطعمة الكثيرة والحلاوات وكذلك يصنعون في جميع ليالي الوتر، وأعظم من تلك الليالي عندهم ليلة سبع وعشرين، واحتفالهم لها أعظم من احتفالهم لسائر الليالي. ويختم بها القرآن العظيم خلف المقام الكريم». وتقام إزاء حطيم الشافعية خشب عظام، توصل بالحطيم، وتعرض بينها ألواح طوال، وتجعل ثلاث طبقات، وعليها الشمع وقنديل الزجاج، فيكاد يغشى الأبصار شعاع الأنوار، ويتقدم الإمام، فيصلي فريضة العشاء الآخرة، ثم يبتدئ قراءة سورة القدر. وإليها يكون انتهاء قراءة الأئمة في الليلة التي قبلها وفي تلك الساعة يمسك جميع الأئمة عن التراويح تعظيماً لختمة المقام.

المسحراتي وطقوس استطلاع الهلال

أما الرحالة من غير العرب فقد امتلأت كتبهم بمشاهد عن رمضان أيضاً، أذكر منهم الأب فابري الذي زار القاهرة في أكتوبر عام 1483 ورأى في شوارعها الفوانيس بمختلف أشكالها وألوانها، يحملها الكبار والصغار، وتحدث عن المسحراتي الذي يجوب القاهرة ليلاً وينادي على الناس ويوقظهم لتناول وجبة السحور وسماه (المسحّر) وذكر أنه يمر ليلاً في الشوارع ثلاث مرات يدق على طبلة وينادي على الناس كل واحد باسمه. وهناك الرحالة الذي قدم صورة تفصيلية مشبعة لاستطلاع هلال شهر رمضان وهو إدوارد وليام لين، الذي زار مصر وأقام بها سنوات عدة، بين عامي 1835-1833، ويصف مشهد استطلاع الهلال بقوله: بعد أن يصل الخبر اليقين لرؤية القمر (الهلال) إلى محكمة القاضي، ينقسم الجنود والمحتشدون فرقاً عديدة، ويعود فريق منهم إلى القلعة بينما تطوف الفرق الأخرى في أحياء مختلفة في المدينة ويهتفون (يا أتباع أفضل خلق الله! صوموا، صوموا)، ويذكر أنهم كانوا إذا لم يروا القمر في تلك الليلة، يصيح المنادي (غدا شعبان، لا صيام، لا صيام)، ويمضي المصريون وقتاً كبيراً في تلك الليلة يأكلون ويشربون ويدخنون، وترتسم البهجة على وجوههم بيوم إضافي قبل بدء مشقة الصيام، وتتلألأ الجوامع بالأنوار، وتُعلق المصابيح عند مداخل المآذن وأعلاها ■

* باحث في المركز العربي للأدب الجغرافي

مراجع:

رحلة العبدري / خطط المقريزي/ رمضان زمان، الصاوي/ مكتبة الوراق/ إصدارات المركز العربي للأدب الجغرافي ارتياد الآفاق.

من ذاكرة التاريخ

جولة حاكم أبوظبي

الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان في مصانع «النصر للسيارات» في مصر عام 1971

موزة عويص علي الدرعي

عند الساعة السادسة إلا ربع من عصر يوم الإثنين بتوقيت القاهرة وبتاريخ 12 إبريل/ نيسان من عام 1971 حل المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - تغمده الله بواسع رحمته - وبدعوة رسمية من الرئيس الراحل أنور السادات ضيفاً على الجمهورية العربية المتحدة (مصر)[1] في أول زيارة رسمية له، وكان السادات في مقدمة مستقبلي الشيخ زايد في مطار القاهرة الدولي، وكذلك حسين الشافعي وعلي صبري نائبا رئيس الجمهورية، والوزراء وعبد الخالق حسونة أمين عام جامعة الدول العربية. وقد أُطلقت المدافع تحية لضيف مصر الكبير، وأقام الراحل أنور السادات في تلك الليلة مأدبة عشاء على شرف الشيخ زايد في قصر عابدين. واستغرقت زيارة الشيخ زايد لمصر سبعة أيام من مساء يوم الإثنين 12 إبريل/نيسان إلى يوم الأحد 18 إبريل/ نيسان 1971[2]. والجدير بالذكر أن الشيخ زايد كان حينها حاكم لإمارة أبوظبي مُنذ عام 1966، وقد جاءت هذه الزيارة قُبيل إعلان اتحاد دولة الإمارات العربية المتحدة بما يقرب من سبعة أشهر ونصف الشهر، وانتخاب الشيخ زايد رئيساً للدولة في الثاني من ديسمبر/ كانون الأول 1971.

وخلال تلك المدة التي قضاها الشيخ زايد في مصر التقى العديد من الشخصيات السياسية والثقافية والعلمية، كما التقى العديد من رؤساء الدول العربية ورجال السلك السياسي والدبلوماسي العربي والأجنبي في مصر[3]. وكان البرنامج الرسمي لزيارة الشيخ زايد لمصر برنامجاً حافلاً على مختلف الصُعُد. ويمكن القول في الوقت الذي حرص فيه الشيخ زايد على اتصالاته السياسية مع الرؤساء والمسؤولين العرب، ومناقشة العديد من القضايا السياسية وعقد المباحثات مع أطراف عدة كانت تتطلبها ظروف المرحلة التاريخية التي تمر بها المنطقة العربية كلها؛ كان حريصاً على مدار تلك الأيام السبعة أن يرى وجه مصر الحضاري من خلال مجموعة من الزيارات قام بها لبعض الأنشطة والمجالات الاقتصادية أيضاً، فقد كان - طيّب الله ثراه - دائم الحركة يخرج من مباحثات سياسية إلى زيارة لأحد المعالم المصرية. لذلك يمكن القول - بعيداً عن السياسة - إنه قام بزيارة العديد من المواقع والمراكز الثقافية والحضارية والمؤسسات والمصانع المختلفة في مصر،منها: جميعة رعاية العلوم الحديثة وتطبيقاتها في البلاد العربية، ومتحف الفن الإسلامي، ومتحف الآثار المصرية، وجامعة الدولة العربية، واطلع على منتجات ونشاطات مجموعة كبيرة من المصانع المصرية في منطقة حلوان للتعرف على مظاهر التقدم والنهضة العمرانية والصناعية والاستفادة منها، وزيادة الروابط التجارية وتوثيق التعاون الاقتصادي بين أبوظبي ومصر، فقد زار شركة مصر للاستيراد والتصدير، وشركة المعادن للصناعات الحربية،

لقطات مصورة من استقبال أنور السادات للشيخ زايد لدى وصوله للقاهرة

ومصنع حلوان للغزل والنسيج. وقام بجولة موسّعة في أثناء زيارته لمنشآت المؤسسة العامة للدواجن إذ زار محطة التفريخ الآلي في عين شمس ومحطة تسمين الدواجن في منطقة أبو رجيلة، واطلع على أحدث مجزر آلي وتفقد مصنع العلف. كما قام بزيارة مصانع شركة النصر لصناعة السيارات - موضوع هذا العدد - ومحطة الزهراء لتربية الخيول العربية الأصيلة[4]. وإلى جانب ذلك، نُظمت نزهة نيلية للشيخ زايد في لنش (قارب صغير) أُعد لهذه النزهة التي استغرقت ما يقرب من الساعة ونصف الساعة. وخلال تلك الزيارة أيضاً توجه الشيخ زايد إلى ضريح الزعيم الراحل جمال عبدالناصر وقرأ عليه الفاتحة ووضع إكليلاً من الزهور، كما التقى الشيخ زايد بأبنائه الطلبة الذين يتلقون العلم في القاهرة وناقشهم في ظروف تعليمهم والآمال المعلقة عليهم وحثهم على المزيد من الجهد لإتمام بناء مجتمعهم الجديد[5].

وفي الأسطر التالية تحاول المادة التي بين أيدينا استذكار واسترجاع جزء من تلك الزيارة التاريخية، لتسلط الضوء على زيارة الشيخ زايد - تغمده الله بواسع رحمته - لمصانع شركة النصر للسيارات التي تجاوز عمرها أكثر من نصف قرن. والجدير بالذكر أن تلك الزيارة قد تمت في مثل هذا الشهر في أي شهر إبريل / نيسان. وهي زيارة جديرة بالوقوف عندها كما وقف عندها وأُعجب بها المؤسس الوالد الشيخ زايد بن سلطان - طيّب الله ثراه - والتي حظيت بتغطية صحفية مصرية متميزة، آنذاك، وكانت موضع حفاوة وتكريم واهتمام بالغ من الجميع. ويمكن استعراض تلك الزيارة في ضوء المحاور التالية:

الشيخ زايد في حلوان ومصانعها:

بدأت زيارة الشيخ زايد للمصانع المصرية في منطقة حلوان في يوم السبت الموافق 17 إبريل/ نيسان، وقد استغرقت جولة الشيخ زايد في المنطقة ما يقرب الست ساعات، وحظيت زيارته لمصانع النصر للسيارات بالنصيب الأكبر من تلك الزيارة، إذ استغرقت وحدها ما يقرب الثلاث ساعات[6].

الشيخ زايد بن سلطان، داخل إحدى أحدث موديلات سيارات النقل، مع نائب رئيس مجلس إدارة شركة النصرومدير البيع والتصدير

استقبال مصانع النصر واحتفالها بمقدم الشيخ زايد:

احتفلت مصانع شركة النصر للسيارات بوصول الشيخ زايد - تغمده الله بواسع رحمته - في زيارته الخاصة للمصانع. وعندما وصل إلى مقر الشركة، كان يرافقه الدكتور عبد العزيز كامل، وزير الأوقاف، رئيس بعثة الشرف، وكان في استقباله المهندس مختار إبراهيم، نائب رئيس مجلس الإدارة، وأعضاء مجلس الإدارة وكبار المسؤولين في الشركة. هذا إلى جانب الوفد الرسمي المرافق للشيخ زايد الذي كان يضم 15 عضواً من رجال أبوظبي،

الشيخ زايد والدكتور عبدالعزيز كامل رئيس بعثة الشرف المرافقة للشيخ زايد، يستمعان لشرح ومناقشة فنية من نائب رئيس مجلس إدارة الشركة النصرومدير المصانع بالشركة

من بينهم الشيخ مبارك بن محمد آل نهيان، رئيس دائرة الشرطة والأمن العام، آنذاك[7]، ومعالي أحمد خليفة السويدي - الممثل الشخصي لصاحب السمو رئيس الدولة - وكان يشغل منصب رئيس الديوان الأميري، آنذاك، ومعالي مانع سعيد العتيبة، رئيس دائرة النفط والمعادن والصناعة، وسعيد بن سلطان الدرمكي، مدير المراسم والتشريفات، وبطي بن بشر، سكرتير حاكم أبوظبي في ذاك الوقت[8].

مقتطفات من جولة الشيخ زايد في مصانع النصر للسيارات

بعد ذلك الاستقبال، تحرك الشيخ زايد والوفد المرافق له ورئيس بعثة الشرف والمسؤولين في «مصانع النصر» للانطلاق في الجولة داخل المصانع، وفي البداية تم استعراض نموذجٍ مصغرٍ (ماكيت) يجسم اتساع المصانع و مواقع الإنتاج جميعها ومرافق الخدمات ومساكن العاملين فيها، كما ويوضح التوسعات الجديدة التي كان يجري تنفيذها - في ذلك الوقت - لاستكمال الطاقات الإنتاجية ومضاعفتها في المصانع أيضاً[9].

مصنع النقل والجرارات

تضم مصانع النصر للسيارات العديد من الأقسام التي تم استعراضها في النموذج المصغر المذكور أعلاه، ومنها مصنع النقل والجرارات، الذي انتقل الشيخ زايد بصحبة المسؤولين والوفد المرافق له إلى زيارته لتتبدل المشاهدة من الصورة «المُجسم» إلى الواقع، حيث شاهد مراحل تصنيع «الباصات - الحافلات» سيارات النقل الجماعي المسماة «نصر» من مختلف

نزول الشيخ زايد من سيارة النقل نصر بعد تفقدها من الداخل، وقد بدا عليه الرضا بالمستوى العالي من الجودة الذي وصل إليه الإنتاج العربي

الموديلات لخدمة الأغراض المتعددة، التي يتم تصنيعها وتجهيزها بأحدث المواصفات الفنية، محققة نجاحات واسعة وسمعة في جميع البلاد التي تم تصديرها إليها في ذلك الوقت، ومنها: الكويت التي صُدر لها (300) سيارة، والعراق (200) سيارة، وسوريا (100) سيارة. هذا إلى جانب ما تُسهم به مصانع النصر من الإنتاج الكبير في تطوير مرافق النقل والمواصلات داخل المدن والأقاليم المصرية[10]. وخلال الجولة الواسعة بين خطوط الإنتاج في مصنع النقل والجرارات، تفقّد الشيخ زايد والوفد المرافق له وحدات سيارات «نصر» بأنواعها ونماذجها الحديثة في تلك الفترة، وأبدى الشيخ زايد إعجابه وتقديره الكبيرين بذلك الإنتاج المنوع والفاخر، خاصة نموذج سيارات النقل الجماعي الذي يسع 150 راكباً[11].

مصنع المكبوسات...وأسئلة الشيخ زايد

ومن مصنع النقل والجرارات انتقل الشيخ زايد لزيارة قسم آخر وهو مصنع المكبوسات ،حيث يتم إعداد الهياكل والاسطمبات، فشاهد - طيّب الله ثراه - مراحل العمل ودقة الإنتاج وضخامته. وكعادة الشيخ زايد - تغمده الله بواسع رحمته - كان يحرص ويصر دائماً حتى تأتي زياراته بالفائدة المرجوة لأي مكان يزوره سواء في الداخل أو الخارج، أن يُتابع ويشاهد كل شيء بنفسه، ويبدي ملاحظاته على كل مايراه، وأن يسأل المسؤولين والموظفين وحتى العمال البسطاء، ويستفسر عن كل شيء يراه أمامه، ومن ذلك توقف الشيخ زايد ليناقش أحد العمال حول تنظيمات التشغيل والإنتاج، واستمع إلى شرح من قِبل المسؤولين والمتخصصين حول هذه الصناعات وما وصل إليه الإنتاج المحلي من دقة وجودة ومدى ما تحقق من توفير للدخل القومي في البلاد بعد نجاح تصنيعها داخلياً. وشارك الشيخ زايد العاملين في مصنع المحركات برفع المحرك رقم (11000) الذي تم تصنيعه بنجاح بشكل كامل محلياً في مصر[12].

مصنع سيارات الركوب «نصر 128».. وهدية تذكارية

كانت الجولة الواسعة للشيخ زايد ومرافقيه في مصنع سيارات الركوب "نصر 128" هي ختام الزيارة التي استغرقت أكثر من ثلاث ساعات في مصانع شركة النصر للسيارات، وبعدها التقى الشيخ زايد مع نائب رئيس مجلس إدارة المصنع وأعضاء مجلس الإدارة في استراحة قصيرة، وقدم المهندس مختار إبراهيم، رئيس مجلس الإدارة بالإنابة، هدية رمزية إلى الشيخ زايد باسم العاملين في مصانع الشركة[13].

الشيخ زايد يشارك العاملين في مصنع المحركات في رفع المحرك رقم 11000 بعد نجاح تصنيعه بالكامل محلياً.

إعجاب وتقدير.. وتسجيل كلمة

كان الشيخ زايد - تغمده الله بواسع رحمته - شديد الإعجاب بما رآه من صناعات وإنتاج في ذلك المجال، إذ كان يتفقد السيارات من الداخل بل وجلس على مقاعد إحدى السيارات، ووجه حديثه إلى الدكتور عبد العزيز كامل، وزير الأوقاف، قائلاً: هذه المنتجات تضارع في جودتها ودقتها أحدث المنتجات العالمية. وبدافع من تقديره وإعجابه بما شاهده خلال تلك الزيارة من تفوق الصناعة العربية المصرية، فقد حرص الشيخ زايد، على أن يكتب كلمة في سجل الزيارات أشاد فيها بالجهود الرائعة والضخمة التي يبذلها العاملون والتي تكمن خلف النجاح الذي حققته صناعة السيارات في الشركة لتطوير الإنتاج والنهوض به لخدمة التقدم والعمران في العالم العربي، وتمنى للعاملين بشركة «نصر للسيارات» دوام التفوق والنجاح[14].

يبقى القول إن تلك الزيارة وما انطوت عليه توضح بصورة صادقة عمق العلاقات الإماراتية - المصرية، تلك العلاقات التاريخية الوطيدة والراسخة والمستمرة في التطور، فهي نموذج يُحتذى به على الصعيدين العربي والعالمي. ومن ذلك احتفاء دولة الإمارات العربية المتحدة وجمهورية مصر العربية في أواخر شهر أكتوبر/ تشرين الأول من عام 2022 بمرور 50 عاماً على العلاقات «الإماراتية - المصرية» التي أرسى دعائمها المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - تغمده الله بواسع رحمته - على أسس قوية وأخوية صادقة تعكس القيم المشتركة والاحترام المتبادل بين الشعبين الشقيقين.

حديث ودي بين الشيخ زايد والرئيس المصري أنور السادات أثناء استقبال الشيخ زايد

الشيخ زايد يناقش أحد العمال لمعرفة مدى ما وصل إليه الإنتاج المحلي من دقة وجودة

النصر لصناعة السيارات

هي شركة حكومية مصرية تابعة للشركة القابضة للصناعات المعدنية، وتعمل في مجال إنتاج السيارات، ويعود تاريخ إنشاء «نصر لصناعة السيارات» إلى عام 1957، عندما صدر قرار لدراسة وإنشاء شركة ومصنع لإنتاج الشاحنات والحافلات في مصر. وفي 23 مايو/ أيار 1960 صدر قرار من الرئيس المصري الراحل جمال عبدالناصر بتأميم الشركة وتسميتها شركة النصر لصناعات السيارات، وذلك بهدف تجميع السيارات في المرحلة الأولى ثم الانتقال لتصنيع السيارات بشكل كامل في مرحلة لاحقة. ويقع المقر الرئيسي للشركة في منطقة وادي حوف في حلوان جنوب العاصمة المصرية القاهرة.

وقد قامت شركة النصر بإنتاج نماذج عدة من السيارات والشاحنات منها: سيارة رمسيس، وهي أول سيارة مصرية الصنع، بدأ إنتاجها عام 1960 وتوقف إنتاجها عام 1972. ومن السيارات أيضاً: سيارة نصر، ونصر 128، ونصر شاهين وغيرها الكثير من السيارات. ومرت الشركة بتغييرات عدة في مسيرتها، ففي التسعينيات تدهورت أوضاع الشركة وصدر قرار بتصفيتها في نوفمبر 2009، إلا أنه في مارس/ آذار 2013 عادت الشركة للعمل، وفي أكتوبر/ تشرين الأول 2016 عادت تبعية الشركة للشركة القابضة للصناعات المعدنية مرة أخرى، وفي أغسطس/ آب 2022 تم دمج الشركة الهندسية لصناعة السيارات في شركة النصر وذلك لإنشاء كيان متخصص في إنتاج وتصنيع السيارات الكهربائية[15].

* مركز زايد للدراسات والبحوث

الهوامش والمصادر والمراجع

1. كان هذا الاسم قد تشكل إثرالوحدة بين جمهوريتي مصروسوريا وإعلان الوحدة في فبراير/ شباط 1958، إلا أن هذه الوحدة انتهت في 28 سبتمبر/ أيلول 1961. واحتفظت مصر بهذا الاسم حتى عام 1971، حين تسمت باسمها الحالي «جمهورية مصر العربية». انظر: ويكيبيديا: https://ar.wikipedia.org/wiki/

2. المصور، عدد 2428، 27 صفر 1391 الموافق 23 إبريل 1971؛ الجمهورية، 13 - 4 - 1971؛ يوميات زايد، ج 1 (1966 - 1976)، أبوظبي، ديوان رئيس الدولة، مركز الوثائق والبحوث، ط 1، 2003، ص 63 - 65.

3. التقى الشيخ زايد في تلك الزيارة مع كل من الرئيس السوادني جعفر النميري، والرئيس السوري حافظ الأسد، كما التقى رئيس مجلس الشورى الليبي العقيد معمر القذافي، وياسر عرفات رئيس اللجنة المركزية لمنظمة تحرير فلسطين. كما التقى كبار الوزراء والمسؤولين ورجال الأعمال المصريين وبالعديد من العلماء العرب في مختلف التخصصات، والسفراء العرب. المصور، المرجع السابق، 23 إبريل 1971.

4. لمعرفة تفاصيل أكثر عن زيارة الشيخ زايد لمحطة الخيول، انظر: الدرعي، موزة عويص علي، زيارة الشيخ زايد إلى محطة الزهراء لتربية الخيول العربية في مصر عام 1971، مجلة تراث، عدد 276، أكتوبر/ تشرين الأول 2022، ص 56 - 63.

5. المصور، 23 إبريل 1971؛ الأخبار، 19 - 4 - 1971؛ الأهرام 13 - 4 - 1971؛ الأهرام، 23 - 4 - 1971.

6. المصور، 23 إبريل 1971؛ الأخبار، 19 - 4 - 1971.

7. في عام 1961 عُهد إلى الشيخ مبارك رئاسة دائرة الشرطة والأمن العام في أبوظبي، وفي 18 سبتمبر/ إيلول 1966 تولى منصب رئيس دائرة الشرطة والأمن العام ودائرة الجنسية والجوازات العامة. وفي 21 ديسمبر/كانون الأول 1968 رقي إلى رتبة لواء. في 1 يوليو/ تموز 1971 عيّن وزيراً للداخلية في إمارة أبوظبي، كما عيّن وزيراً للداخلية منذ قيام الاتحاد (أول وزير داخلية في تاريخ البلاد)، كما عهد إليه تولي مسؤولية الشرطة في إمارة أبوظبي، وقد ظل يشغل منصب وزير الداخلية في الإمارات حتى عام 1990. وكان له دور في المحادثات التي جرت بين حكام الإمارات أعضاء المجلس الأعلى للاتحاد تمهيداً لقيام دولة الإمارات العربية المتحدة. وحصل الشيخ مبارك على العديد من الأوسمة أثناء مدة خدمته منها على سبيل المثال: وسام زايد الثاني، ووسام عيد الجلوس للمغفور له - بإذن الله تعالى - الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، ووسام الملك عبد العزيز آل سعود، ووسام النهضة من الدرجة الأولى، للمملكة الأردنية الهاشمية، ووسام سلطنة عُمان للسلطان قابوس بن سعيد، ووسام الملك الحسن الثاني، ووسام الجمهورية التونسية، ووسام قوة دفاع أبوظبي 1966. توفي يوم الأربعاء الموافق 24 فبراير/ شباط 2010. مجلة الظفرة، مبارك بن محمد آل نهيان قوياً عاش .. محبوباً كان .. تقياً رحل، أبوظبي، مجموعة الظفرة، ع 35، مارس 2010. انظر أيضاً: جريدة الاتحاد، 25 فبراير 2010، http://www.alittihad.ae/details.php?id=11099&y=2010&article=full؛ جريدة الخليج، 25 فبراير 2010، http://www.alkhaleej.ae/alkhaleej/page/7f846460-04bd-4423-be01-1d0463c5029d

8. الأخبار: 19 - 4 - 1971 .

9. المصور، 23 إبريل 1971.

10. المصور، 23 إبريل 1971؛ الأهرام، 18 - 4 - 1971.

11. المصور، 23 إبريل 1971.

12. المصور، 23 إبريل 1971؛ الأهرام، 18 - 4 - 1971.

13. المرجع السابق نفسه.

14. المرجع السابق نفسه.

15. لمزيد من التفاصيل، انظر: النصر لصناعة السيارات، الموسوعة الحرة ويكيبيديا، على الموقع الإلكتروني التالي: https://ar.m.wikipedia.org/wiki/النصر_لصناعة_السيارات.

الشيخ زايد يتلقى هدية تذكارية بإسم العاملين في الشركة من نائب رئيس مجلس إدارة الشركة النصر المهندس مختار إبراهيم، ويبدو في وسط الصور الشيخ مبارك بن محمد آل نهيان.

إحدى إعلانات شركة النصر «السيارة نصر 128»

شركة النصر لصناعة السيارات
Al-Nasr Automotive Manufacture CO.
(NASCO)

لعبة الظل في قصص باسمة يونس

بين التسجيل والرؤية

أحمد حسين حميدان

لقد ظلت المساحة السردية في قصص الكاتبة الإماراتية باسمة يونس منشغلة في تصوير علاقة الذات مع الآخر الماثل في محيطها الحياتي إلى أن أنجزت مجموعتها القصصية (ماذا لو مات ظلي)[1]، فقد ذهبت من خلالها إلى رصد علاقة الذات مع نفسها المثقلة بهموم الوجود وبالسؤال عن الحياة التي لا تنتهي بالموت، وبهذا تقدم الكاتبة من مدخرها القصصي لما هو ماثل منذ النبضة الأولى التي أصابتها الغواية بتناول الثمرة المحرمة ظناً بأنها من شجرة الخلود والبقاء كما تؤكد الرواية الدينية[2]، ناهيك عن البحث المضني الذي قدمته الأسطورة للعثور على هذا البقاء القاهر للنهاية المحتومة كما تحكي الملحمة البابلية الشهيرة ... وفي هذا الصدد يرى سيغموند فرويد أن نرجسية الإنسان وحبه الفياض لذاته دفعه إلى اختراع حياة أخرى ليس لها من منتهى.

لكن النص الديني جاء حاسماً في رؤيته المؤكدة لهذا اليوم الحافل بالحياة الأخرى العصية على الموت باستمراريتها المطلقة وبما أن الحياة الدنيا محكومة بالانتهاء فإنها لا تحتمل هذه الديمومة المفتوحة على الخلود الكائن في الحياة العليا التي لا يأتي الانتقال إليها إلا بعد التخلص من هذا الانتهاء الكامن في الموت الذي يؤذن القيام من كفنه بحلول قيامة يوم الخلود العظيم.. ولكن مَنْ يحب الموت حتى ولو كان بوابة عبور إلى بقاء لا يفنى؟.. بل من يقوى على استقباله والترحاب به خصوصاً إذا كان قدومه عن طريق القتل والتغييب غير الطبيعي؟!. إن شهرزاد انطلقت من هذا المآل المأساوي وقامت في وجه سيف الموت المحمول بيد شهريار وسلطته ودفعته عن نبضها المحب للحياة ألف ليلة وليلة بسحر الحكاية وإن شئنا العودة إلى مقولة هالدرلين بأن اللغة بيت الوجود[3]. ومن قبله ابن عربي الذي يرى بأن الكتابة تبث حالة وجودية، فإن السرد الشهرزادي يفضي إلى هذا المعنى في مقاصده القصوى الماثلة في وضع حد النهاية للقتل ولعبة الموت التي استرسل بها شهريار ولا تبدو القاصة باسمة يونس في مجموعتها (ماذا لو مات ظلي) بعيدة عن هذه الفكرة ومقاصدها، بل حاولت تمثلها في سياقها السردي بإسقاطٍ معاصرٍ ضمن فضاء واقعي لا يرسم فيه التخييل أجواء غرائبية تقوم على

باسمة يونس

صور من الفانتازيا وهو ما يجعل بنية القصة لديها على مفترق طرق مع الحكاية الشهرزادية الموغلة في التخييل، الذي لم تذهب إلى مجاراته كما لم تذهب في سياقاتها السردية إلى محاكاته بتخييل آخر كما فعل الكاتب الأمريكي إدغار آلان بو في قصته (الليلة الثانية بعد الألف) التي يتخيل فيها سأم شهريار من حكايات شهرزاد وقراره مجدداً قطع رأسها .. كما أنها لم تذهب إلى ما ذهب إليه القاص الفرنسي جونييه الذي بلغ شأواً بعيداً وهو يتخيل زيارة شهرزاد له ذات ليلة طالبة منه إسعافها بقصة جديدة لتسكت بها رغبة شهريار في قتلها وكأنه بذلك يجعل الذكورة أبعد مدى وعمقاً في المعرفة من الأنوثة، في حين أن هنريدي رينية رأى بخياله شهرزاد في قصة (رحلة الحب) وهي تغافل شهريار في الليلة الثانية بعد الألف وتتمكن منه وتجعله يسبح وسط بركة من الدماء، وتتفرد بعد ذلك في الحكم وتطلب من الرواة تسليتها بالحكايات، وبدأت تكافئ كل من كان يروي لها قصة تستحوذ على إعجابها ومن يفشل في ذلك تكون معه أكثر رحمة من شهريار فتقطع له أذنه لا رأسه... إن كل ذلك يعتبر بمنزلة حلم يقظة، في حين أن السياق الشهرزادي عند باسمة يونس يدأب إلى حقيقة هذه اليقظة رغم انشغاله في البقاء المستمر كحلم مُرتجى لذلك ابتدأت منذ السطر الأول متسائلة: ماذا لو مات ظلي.. والمقصود هنا من خلال بُعد السياق الدلالي ماذا لو مت أنا.. لأن ديمومة بقاء الظل تعني ديمومة بقاء صاحبه وهو ما سيدفع إلى التساؤل عمن يقوى ويقبل بالانحياز للموت وترك صف الحياة رغم كل مآسيها ... إنها المفارقة الأصعب التي دفعت من خلالها باسمة يونس حب البقاء الشهرزادي نحو مهب آخر يفضي إلى الحرية مقابل الغياب، وبموجب ذلك يحصل الإنسان على خلاصه الكلي مقابل رحيله الكلي وهو ثمن فادح، ويبدو أن فداحته أوجدت المبرر الموضوعي للسؤال الخائف الذي أطلقته الكاتبة بلسان بطلتها حول موت الظل، نظراً لما يمثله من رمز للبقاء والحرية رغم ما أنشأته المجتمعات وسلطاتها المتعددة داخل الإنسان الذي سعت باسمة يونس إلى سبر أغواره من خلال لعبة الظل التي حاولت استثمارها عبر لوحات ومقاطع سردية عدة بدت فيها شهرزادها القصصية مختلفة عما هي عليه في ليالها الألفية وما بعد الألفية كتلك التي صاغها بمخيلته إدغار آلان بو وجونييه ورنييه.. كما بدت شهرزادها هذه على غير صورة شهرزاد توفيق الحكيم في مسرحيته المسماة باسمها والتي جعل عبرها شهريار يمتلئ بالملل ويردد رغم حصوله على كل ما أراد: الطبيعة كلها ليست سوى سجان صامت يضيق عليّ الخناق، لقد استمتعت بكل شيء وزهدت بكل شيء ... لقد انطلقت باسمة يونس بشهرزادها من

خارج هذا الباب الموصد الذي بلغه شهريار بنداء الجسد آخذة بظله لتفضي به إلى سؤال الوجود والبقاء باعتبار أن شهرزاد نقلت شهريار من الليبدو الحسية إلى الليبدو المعرفية والفكرية بعد دخوله إلى عالمها الحكائي الذي جهدت غادة السمان في الإيماء إليه وفق هذا المنحى الذاهب بشهرزاد إلى تلوين الحياة بآفاقها الرامزة للعقل والفكر المتجدد بعدما توقف شهريار عند متعة الجسد، متراجعاً عن حركة الحياة حتى بلغ السكون والسأم الذي انعكس في قصره بالموت وقطع الرأس على حد تعبير صالح الخريبي[4] في خلاصته الماثلة بأفق مفتوح على ما بعد ألف ليلة وليلة التي خرج من سلالتها ومن سلالة ما قبلها في الحكايات الخيالية والأساطير، سؤال الحياة الكبير المناهض للموت الذي كثيراً ما كانت تتخطاه بشخصيات خارقة لتوجه إليه في الخيال ما عجزت عن بلوغه في الواقع، فتسجل عليه انتصارات حلمية تبث نشوة عابرة لا تثمن ولا تغني من فناء يطل برأسه على الحياة من جديد ويعود إثره سؤال النجاة والبقاء الذي انطلقت منه باسمة يونس بصيغة شاءت أن تنأى بها عن عالم الفانتازيا وتأخذها من فضائها التخييلي إلى سياقها الواقعي.. وإذا كانت حياة شهرزاد التخييل مهددة بقطع الرأس الذي يتم بأداة حادة قاطعة، فإن شهرزاد الواقع عند باسمة يونس تطرح سؤال الموت على الظل الذي لا تؤثر فيه وفي حياته أي أداة حادة قاطعة أو مدمرة كما لا يتمكن الزوال منه إلا برحيل صاحبه... بهذا المعنى يعبر الظل عن وجود صاحبه، كما أن وجود الشخص يؤكد بالضرورة وجوداً لظله باعتباره ملازماً له، وهو ما استغلته واستفادت منه باسمة يونس وسعت إلى استثماره في سياقها السردي ضمن أبعاد افتراضية وإيحائية، بدأتها بعنوان عبّرت فيه بأسلوب استعاري عن قلق بطلة قصتها من موت يصيب ظلها وبالتالي

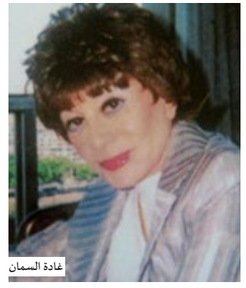
غادة السمان

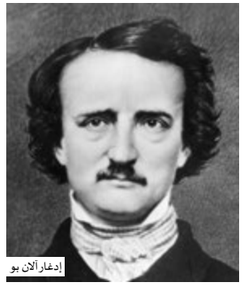
إدغار آلان بو

ينهي حياتها، ورغم أن هذا القلق الوجودي أيقظ فيها تساؤلات تنبعث من خلفية فلسفية فإنها أدارت ظهرها لأسئلتها الكبرى الدائرة حول غاية الوجود الإنساني مكتفية بالوجود عينه لذلك جاء سؤالها من غير مواربة: (ماذا لو مات ظلي) معيدة إلى الأذهان مقولة الفيلسوف اليوناني القديم برميندس الإيلي: إن الشيء الحقيقي الوحيد هو الوجود..[5].وهي بهذه الخلاصة تعيد إنتاج الحدث المتواري وراء القص وهواجسه الإنسانية اللذين أسهما في إنشاء الحكاية الشهرزادية الممتدة بأشكال أخذت تتباين طرق التعبير عنها وتتطور حتى بلغت قوامها المعاصر وإذا كانت شهرزاد في معركتها السابقة قد جعلت غاية السرد في بلوغها المنطقة التي نشدت فيها الحفاظ على الحياة والخلاص من الموت الموعود، فإنها في معركتها الراهنة وما تمخض عنها من أحداث دونتها في حكاياتها اللاحقة قد تجاوزت ذلك وتخطته إلى منطقة أخرى تستهدف فيها مناشدة أخرى لبقاء حر غير مكبل تتقاطع فيه مع مقولة عمر بن الخطاب الشهيرة: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً .. كما تتقاطع مع مقولة بريتون: لون الإنسان الحرية.. من هذه الخلاصة التي تمثل روح الحياة رسمت باسمة يونس محورها القصصي القائم على لعبة الظل الذي تكمن المفارقة فيه أنه يبدو حراً أكثر من صاحبه، كما يبدو أكثر تخلصاً من عوائق الحياة الاجتماعية والسياسية فيتخطى الحدود والحواجز وإشارات المرور دون أن يعترض عليه أحد ودون أن تراق له نقطة دم واحدة حتى لو صدمته سيارة، وإذا ما صدمته ظلال أخرى لا ينشأ بينه وبينها أي شجار؛ كما أن هذه الظلال لا تشي بأصحابها ولا تشي بأسرارهم ولا تبوح بمخبوئهم لأحد..

إن الكتابة بهذا السياق ترصد الواقعي المشاهد في صورته الخارجية لصالح الصورة الحلمية المثلى والمضمرة التي اعتمدت فيها على ما يسميه تودوروف بالرؤية الداخلية وقد عبّرت عنها

بأسلوب السرد الذاتي الذي يأتي فيه السياق وفق انطباع الراوي كما يرى توماتشفسكي..[6] وهو ما جسدت به الكاتبة انحيازها للظل بعد تقمصها شخصية بطلتها مجرية السرد بضمير (الأنا المشارك) الذي فاض إعجابه بهذا الظل نظراً لقدراته وما يتمتع به من حرية إزاء المؤسسة المجتمعية وما أسسته من سلطات متعددة تركت أثراً بالغاً على مكنون الذات الإنسانية النفسية والعقلية وقد مثلت باسمة يونس بهذه السلطات شهريار بصورته العصرية كما أعطت لبطلة قصتها صورة لشهرزاد جديدة بدت فيها على غير هيئة شهرزاد السابقة وعلى غير حركتها الأسيرة للقصر بسبب متابعتها لظلها وملاحقتها لسكناته وحركاته في رصد متنقل لأحواله في مختلف الأمكنة وكأنه بات أكثر أهمية منها فاستولى بدلاً عنها على مساحات السرد، بعدما استدعته الكاتبة من هامشه الحياتي وجعلته محوراً في متنها الحكائي، لتجسد به فكرتها القصصية ولتصنع منه الحدث الذي قامت عليه عملية القص، ورغم معرفتنا المسبقة بأن الظل مقترن بوجود صاحبه منذ مجيئه الأول ومرافق له في حله وترحاله إلا أن انتباه بطلة قصة باسمة يونس على وجود ظلها بجانبها يأتي بعد بلوغها سن الشباب وفي أعقاب نضج معرفي يهمس لها في بداية القصة بالتوحد مع قلمها وأوراقها، بينما تهمس هي بالرغبة في الانزواء والعزلة بعيداً عن كل العيون، وحين تخلو بياض ورقها لتبوح تلحظ ظلها بين السطور وكأنه يداهمها لأول مرة في حين أنه موجود من قبل وفي كل أماكن وجودها فلماذا جاء الانتباه عليه في وقت وفي مرحلة عمرية انقضى منها سنوات وسنوات؟... بالطبع ليس السبب قصوراً من قِبل بطلة القصة أو مخالفة للوقائع الحقيقية من قِبل الكاتبة كما قد يبدو للوهلة الأولى من سياق قصتها، فثمة معانٍ أخرى تكمن في الأبعاد الدلالية لهذا التأخر في الانتباه لوجود الظل وفي مقدمتها إعادة صياغة للوعي القائم على معايشة الواقع وأزماته المختلفة ■

* كاتب وأديب من سوريا

مراجع وإحالات:

1. مجموعة «ماذا لو مات ظلي» - قصص باسمة يونس - إصدار دائرة الثقافة والإعلام - الشارقة 2003م.
2. القرآن الكريم - الجزء السادس عشر - سورة طه الآيتان: 55 - و 120 .
3. إنطولوجيا اللغة عند هايدجر - صفاء عبد السلام جعفر - دار الوفاء للطباعة والنشر - مصر 2001م.
4. الجهات الأربع ، الليلة 1002 - صالح الخريبي - جريدة الخليج، ملحق آخر الأسبوع - عدد رقم /10028/ تاريخ 2/11/2006م.
5. التحليل الإنطولوجي للعدم - علي محمد إسبر - بدايا للطباعة والنشر - سوريا 2006م.
6. السهم والدائرة - محمد كامل الخطيب - دار الفارابي - بيروت 1979... وتقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي - يمنى العيد - دار الفارابي - بيروت 1985م.

ذكريات زمن البدايات (12)

المجمع الثقافي

خليل عيلبوني

مازلتُ أذكر معلماً مهمّاً من معالم مدينة أبوظبي عندما وصلتُ إليها في الأول من يناير 1971، كان ذلك المعلم هو القصر الأميري القديم الذي لم يكن يفصله عن البحر إلا مسافة قصيرة يقع فيها شارع الكورنيش الجديد. لم يكن البناء سوى قلعة مرتفعة الأسوار، وفيها أبراج للحراسة. استُخدم ذلك القصر منذ البداية استخداماً ثقافياً؛ ففيه كانت تتجمع الوثائق والمخطوطات والكتب. ولذلك لم أستغرب أن يتحول ذلك القصر فيما بعد إلى بناء حديث، بدأ بسيطاً، ثم تطور إلى صرح معماري كبير أطلق عليه اسم «المجمع الثقافي».

برغم أن ما أسجله من ذكريات ليس بحثاً تاريخياً؛ فهذه مهمة قام ويقوم بها متخصصون ومتخصصات في هذا المجال، فإن التذكر وتسجيل الذكريات قد يساعد على فهم الأحداث التي يدونها المؤرخون. كانت صلتنا بذلك الصرح الجديد (المجمع الثقافي) قوية وفعالة منذ افتتاح ذلك المجمع؛ فالمجمع الثقافي الذي حرص المغفور له - بإذنه تعالى - الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان أن يدعمه شخصياً، كان مستقلاً عن وزارات الدولة، وبرغم أنه كان مؤسسة حكومية عامة، وليس مؤسسة خاصة فإن استقلاليته كانت واضحة وملموسة. أهم ما كان في المجمع الثقافي منذ بداية نشاطه المكتبة العامة؛ فلا ثقافة من دون كتاب، والمكتبة العامة مطلوبة في جميع دول العالم؛ إذ تقوم المكتبة بتوفير الفرصة والجو المناسب لجميع من يريد القراءة أو الدراسة والبحث. وقد اهتم المسؤولون عن المجمع منذ بداية تأسيسه بإنشاء مكتبة تضم أهم العناوين المرجعية في مختلف المجالات المعرفية والأدبية والفكرية. وبحكم دراستي لعلم الوثائق والمكتبات حيث حصلت على شهادتي الجامعية في هذا العلم من كلية الآداب في جامعة القاهرة، فقد راقبت بسعادة نمو مكتبة المجمع الثقافي وتطورها.

خليل عيلبوني

أهم الأحداث التي مرت بذلك المجمع كان في عام 1981، فقد تم في ذلك العام إقامة المعرض الأول للكتاب في أبوظبي، وسمي ذلك المعرض «معرض الكتاب الإسلامي». كان الحدث تتويجاً للجهود المبذولة من القيادة والمؤسسات التي لها صلة بنشر الثقافة، وتوفير مصادر المعلومات إذ كان الكتاب أو الكلمة المطبوعة يشكل المصدر الأول والأهم. ولم تكن ثورة المعلومات المتمثلة في الإنترنت قد وصلت إلينا، ولا وصلت إلى ما وصلت إليه في بداية هذا القرن. حرص الشيخ زايد، وولي عهده في ذلك العام الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان على رعاية الحدث، وافتتاح المعرض، والاطلاع على ما يضمه من إنتاج فكري وعلمي وأدبي. وقد توافد المقيمون في الإمارات إلى ذلك المعرض، وعلى مدى الأيام القليلة التي استغرقها بأعداد بصورة لم يسبق لها مثيل. كان المعرض شبيهاً بعرس كبير حرص على حضوره جميع من كان يشعر بالانتماء إلى الثقافة، ويظمأ إلى الارتواء من ينابيعها. وقد راحت جميع مدارس الدولة توجه طلابها وطالباتها إلى حضور المعرض، وشراء الكتب التي كانت معروضة فيه خاصةً أنه كان هناك تخفيضٌ مهم على أسعار الكتب المعروضة.

المكتبة الأولى التي قمت بتأسيسها في قصر معالي الدكتور مانع كانت من ذلك المعرض، وبميزانية لم تتجاوز خمسين ألف درهم. تمكنتُ من تزويد مكتبة معاليه بأهم المراجع الأدبية، وبجميع الدواوين الشعرية التي كانت معروضة في ذلك المعرض. وقد اكتشفت وأنا أمارس عملية الاختيار والشراء أن كثيرين غيري يقومون بالعمل نفسه؛ أي أنهم يشترون الكتب التي يمكنهم من خلالها تأسيس مكتبات خاصة لهم، أو لمن يشترون الكتب لهم. ولقد كان المعرض بالفعل غنياً بكتب التراث، وكتب الفقه والسيرة النبوية، وكتب عن الطب النبوي، وكتب في الشعر والقصة القصيرة والرواية.. أذكر أنني حصلت من ذلك المعرض على دواوين لشعراء من مختلف العصور: الجاهلي، والأموي، والعباسي. إضافة إلى دواوين لشعراء من العصر الحديث، مثل: أحمد شوقي، وحافظ إبراهيم. وشعراء المهجر، مثل: إيليا أبو ماضي،

والأخطل الصغير، والشاعر القروي، وجبران خليل جبران. أما التراث الأندلسي، فقد استطعت أن أحصل على عدد كبير من العناوين التي تتناول تاريخ الأندلس، ونتاج أهم شعرائها ومؤرخيها وكتّابها المعروفين. وأستطيع القول: إن ما استطعت شراءه من ذلك المعرض الأول جعل الدكتور مانع يخصص قاعة كبيرة، ويجهزها بالأرفف؛ لتكون المكتبة الرئيسية التي يقضي في رحابها الساعات الطوال في المطالعة والكتابة. ولا أستطيع إلا أن أشعر بالفخر، وأنا أراه يدعو ضيوفه المهمين إلى تلك المكتبة الجميلة الحافلة بالكتب والصور؛ لأنها كانت ثمرة لكل تلك الجهود التي قمت بها منذ حضوري المعرض الأول للكتاب عام 1981 الذي كان مسماه آنذاك «معرض الكتاب الإسلامي». صحيح أن مبلغ خمسين ألف درهم يمكن أن يُعد مبلغاً بسيطاً أمام مكتبة تضم أمهات الكتب، ولكن في ذلك الزمن كان المبلغ يعتبر ضخماً، أضف إلى ذلك أن التخفيض الذي حصلت عليه من الناشرين، والذي كان يصل إلى أكثر من خمسين بالمئة من السعر المعلن، كان مساعداً على شراء عدد أكبر من الكتب. من الذكريات التي ما زالت محفورة في قلبي، ذكرى التقائي بشاب من العاملين مع الدكتور مانع هو الأخ علي الخميري في معرض الكتاب الأول، وكان يحمل حقيبة ملأى بالكتب التي اشتراها، ولم أكن أتخيل أن يهتم علي بالكتب أو حتى بالمطالعة، وعندما اطلعت على ما اشتراه، وجدت أنه يركز على الكتب التي تهتم بالخيول العربية الأصيلة، ولكنه قام بشراء بعض الكتب الأدبية. قال لي يومها: الحمد لله أنني وجدتك.

قلت: خيراً إن شاء الله. قال: أريدك أن تساعدني في اختيار الكتب التي تصلح لتأسيس مكتبة. قلت: حتى أنت يا علي تريد تأسيس مكتبة. قال: أحب القراءة كثيراً، وهذه فرصة للتزود بالكتب التي يمكن في المستقبل أن يقرأها الأولاد.

الآن، وبعد مرور نحو ثلاثين سنة، فإن مكتبة الأخ علي الخميري من المكتبات الخاصة الجديرة بالتقدير. كذلك مازلت أذكر أنني عندما رجعت إلى البيت في اليوم الأول من المعرض، فاجأني الأولاد بذهابهم مع والدتهم إلى المعرض، واختيارهم بعض الكتب التي بدؤوا على الفور في الاطلاع على ما فيها، وأعتقد أن ذلك المعرض أسهم إلى حد كبير في جعل المطالعة لدى أولادي عادة أو هواية. أما مدارس أبوظبي، فما زلت أذكر أنني كنت عضواً في مجلس آباء مدرستين، إحداهما «مدرسة زايد الثاني»، والثانية هي «مدرسة الراهبات الوردية»، وقد قمنا بالتوصية في المجلسين أن تكون هناك زيارات منظمة، وبرعاية المدرسين والمدرسات للمعرض الأول للكتاب بحيث تتم الاستفادة من هذا الحدث بأقصى ما يمكن ذلك. وبالفعل، كنت سعيداً جداً برؤيتي الطلبة والطالبات، وبإرشاد المدرسين - الذين كانوا يجولون في المعرض - إلى اختيار الكتب. كان الحدث مهماً، وكان التفاعل معه غير مسبوق. ومن أجمل الذكريات التي حفرت تفاصيلها في القلب والذاكرة هو قيام الشيخ زايد - رحمه الله - بشراء جميع الكتب التي عرضت في المعرض الأول، وذلك بهدف توزيعها على جميع المدارس ومؤسسات الدولة. بعد خمس سنوات أقيم المعرض الدولي للكتاب، وأطلق على ذلك المعرض اسم «المعرض الأول للكتاب» في أبوظبي، وذلك في عام 1986 بمشاركة سبعين داراً من دور النشر، وكان معرضاً مهمّاً تمكنتُ فيه من استكمال مجموعات الكتب التي كانت مكتبة معالي الدكتور مانع العتيبة تحتاجها. بعد سنتين أقيم «المعرض الثاني للكتاب» أي في عام 1988. وبسبب الظروف التي مرت بها منطقة الخليج، وحرب الخليج الثانية توقف نشاط معرض الكتاب ليستأنف في عام 1993. ومنذ ذلك العام، أصبح المعرض يقام سنوياً في رحاب المجمع الثقافي إلى أن تم نقله قبل سنوات قليلة إلى «مركز المعارض الدولي» بالقرب من مطار أبوظبي القديم ■

* إعلامي وشاعر

الإذاعة في الإمارات

من المحاولات الفردية إلى الإذاعات الرسمية

علي عبيد الهاملي

مثلما للإذاعة تاريخ في كل بلد من بلدان العالم، فإن لها تاريخاً في دولة الإمارات العربية المتحدة قبل قيام الاتحاد، وبعد قيامه أيضاً، لكن السؤال الذي يأتي قبل أن نستعرض هذا التاريخ هو: ماذا كان الناس يسمعون في الإمارات قبل أن تكون هناك إذاعات محلية؟

كان الناس يسمعون عدداً من الإذاعات التي كانت تصلهم عبر الموجات القصيرة، أهمها: إذاعة (هنا لندن) التابعة لهيئة الإذاعة البريطانية، التي بدأت بثها في 3 يناير 1938، وكان لها مستمعون كُثر في شتى أنحاء العالم، والعالم العربي على وجه الخصوص. و(إذاعة برلين العربية) التي بدأت إرسالها في 7 إبريل 1939، وكان أشهر مذيعيها يونس بحري، صاحب العبارة الشهيرة (هنا برلين حي العرب). وفي 14 فبراير 1951 دخلت (إذاعة الكويت) دائرة استقطاب مستمعي الإمارات عندما تأسست في ذلك التاريخ، وكان أول بث رسمي لها في 12 مايو 1951. وفي 4 يوليو 1953 دخلت إذاعة (صوت العرب) من القاهرة دائرة اهتمام المستمعين، وكان لمذيعها الشهير أحمد سعيد تأثير كبير في المستمعين العرب، ومنهم أهل الإمارات، بالإضافة إلى خطب الرئيس جمال عبد الناصر التي كانت تلهب حماس الجماهير العربية. وهذه هي الإذاعات الرئيسية الأربع التي كان يستمع إليها أهل الإمارات في تلك المرحلة، ومن خلال التأثر بهذه الإذاعات بدأ تاريخ الإذاعة في الإمارات بمحاولات فردية، تلاها إنشاء الإذاعات الرسمية.

المحاولات الفردية

1. (إذاعة دبي من الشندغة) 1958:

كانت إذاعة مصنوعة من أدوات بدائية مكونة من قطع غيار لا تتعدى بعض الأسلاك والبطاريات القديمة وصمامات الراديو، وكانت مدة إرسالها ساعة في اليوم. أنشأها عام 1958 العميد متقاعد صقر ماجد المري المولود عام 1939م، الذي تلقى دراسته في مدارس الشعب، ثم الأحمدية، والثانوية في دبي، وحصل على دبلوم عالٍ في هندسة الراديو من معهد اللاسلكي والإلكترونيات في الهند عام 1966. عمل في تلفزيون الكويت من دبي (فني فيديو) ثم في شرطة دبي (مستشار القيادة لشؤون الاتصالات) وتقاعد عام 2005 برتبة عميد. وقد تم تكريمه عام 2014 ومنحه جائزة «أوائل الإمارات» باعتباره أول مخترع إماراتي.

2. إذاعة عجمان (1961 - 1965):

أنشأها راشد عبدالله بن حمضة العليلي، الذي كان قد سافر إلى السعودية بعد وفاة والده، حيث عمل في محل لبيع الدراجات والتلفزيون وأجهزة الراديو، وتعلم تصليح أجهزة الراديو على يد مهندس هندي، ثم عاد إلى عجمان بعد ست سنوات وفتح محلاً لإصلاح الساعات وأجهزة الراديو، وكانت أدوات تصنيع الإذاعة تتكون من (راديو قديم + سماعات + لوح معدني + أسلاك + بطارية جافة + هوائي). وكانت تبث 3 ساعات يومياً، وتتكون موادها الإذاعية من:

- القرآن الكريم.
- خطب صلاة الجمعة.
- الشعر.
- أخبار الحاكم.
- إرشادات دينية.
- ما يطلبه المستمعون.
- رسائل المستمعين.
- برنامج للتكافل الاجتماعي (جمع تبرعات لأصحاب المنازل التي تحترق والسفن التي تغرق).

المشاركون:

- سالم عبيد سيف العليلي (مذيع)
- الشيخ خلفان بن حميد المطوع (خطيب جمعة)
- الشيخ محمد التندي (واعظ ديني)
- حمد خليفة بوشهاب (شاعر)
- عمران بن سلطان المرداس (شاعر)
- عيد الفرج (القصائد الحماسية)
- جودت البرغوثي (برامج أدبية وأخبار الحاكم في الإمارة)

- سالم بن راشد بن تريس
- مطيرة (جمع التبرعات للإذاعة).

زارها مدير إذاعة صوت الساحل، وبرفقته السيد إبراهيم الحديدي، واستغربوا لبساطة الأجهزة التي تعمل بها الإذاعة، واقترحوا على ابن حمضة أن يذهب للدراسة في الخارج لكنه لم يوافق.

الإذاعات الرسمية

1. صوت الساحل من الإمارات المتصالحة (1964 - 1970)

• أنشأها مكتب التطوير المنبثق عن مجلس حكام الإمارات المتصالحة.

• بدأت البث عام 1964.

• توقفت عن البث عام 1970 لتحل محلها على التردد نفسه إذاعة دبي.

• كانت تبث من القاعدة البريطانية في الشارقة، التي كان يُطلق عليها (المحطة).

• انطلق من خلالها أول صوت نسائي إذاعي إماراتي، هي المذيعة حصة العسيلي (عام 1965) وكان سنها وقتها 15 سنة.

من المذيعين الذين عملوا فيها:

- د. أحمد أمين المدني
- خلفان المر
- صابر محمد
- أحمد المنصوري
- سعيد الهش
- محمد الخوري
- صقر المري
- رياض الشعيبي
- سليم عرفات
- ثائر حلاوة

2. إذاعة أبوظبي (1969/2/25)

• تم افتتاح الإذاعة بكلمة مسجلة بصوت الشيخ زايد، عليه رحمة الله، قال فيها:

(السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. إنني أشعر بالسعادة وأنا أوجه كلمتي هذه إليكم، وذلك بمناسبة افتتاح إذاعة أبوظبي، وأنا واثق أنكم تشعرون نفس الشعور، وتحسون نفس الإحساس، ويجب أن تهتم هذه الإذاعة بالمعاني الإسلامية والعربية، والقيم الروحية، والأخلاق، والتمسك بالدين الحنيف؛ الإسلام، والعادات العربية الأصيلة، والتقاليد التي ورثناها عن آبائنا وأجدادنا، فنحن أمة عربية إسلامية، ويجب أن نتمسك بالإسلام وتعاليمه، ونعلمه لأبنائنا وأحفادنا، لأن هذا حق الله علينا، والله الموفق).

3. إذاعة دبي (1970)

حلت محل إذاعة «صوت الساحل» التي توقفت عن البث عام 1970.

كان مقر البث مبنى الإذاعة والتلفزيون الحالي الذي يقع قريباً من جسر المكتوم في دبي.

من الأصوات المحلية التي برزت فيها: عبد الغفور السيد - سعيد الهش - صالح بو حميد.

من الأصوات العربية التي عملت فيها: محمد المحتسب - حسيب كيالي - حسن أحمد - عبد القادر الكردي - عمر أبو سالم - عبد

العزيز إسماعيل.

4. إذاعة الشارقة (1972/8/31)

• في 31 أغسطس 1972 تم افتتاح إذاعة الإمارات العربية المتحدة من الشارقة.

• في 5 نوفمبر 1975 اتخذ صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، عضو المجلس الأعلى حاكم الشارقة، قراراً بضم الإذاعة إلى إذاعة أبوظبي التي كانت تتبع وزارة الإعلام والثقافة، وكان هذا ضمن مجموعة من القرارات التي اتخذها سموه بضم بعض الأجهزة المحلية إلى المؤسسات الاتحادية.

• في 15 نوفمبر 2000 تم إعادة افتتاح إذاعة الإمارات العربية المتحدة من الشارقة.

• مما قاله صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي في حفل إعادة الافتتاح: «إننا من خلال هذه الإذاعة سنقدم غذاءً فكرياً إسلامياً ينبع من واقعنا، وليس مستورداً أو غريباً علينا، إننا نعتني بالدرجة الأولى بالثقافة العربية والإسلامية التي تمثل العنصر الرئيسي في تكوين المواطن العربي المثقف».

5. إذاعة رأس الخيمة (1971/12/1)

6. إذاعة أم القيوين (مارس 1978)

7. إذاعة عجمان (2001)

8. إذاعة الفجيرة (يونيو 2006)

9. شبكة الإذاعة العربية ARN

• تأسست في دبي في شهر مارس 2001 وهي أكبر شبكة إذاعية في المنطقة.

• تمتلك مجموعة متنوعة من الإذاعات الناطقة بلغات مختلفة (11 إذاعة)، منها اثنتان ناطقتان باللغة العربية هما: العربية

والخليجية.

• تمتلك أكبر قاعدة مستمعين في الإمارات العربية المتحدة.

• جميع محطاتها متعددة المنصات، مع محتوى يمكن الوصول إليه عبر الإنترنت وعبر أحدث تطبيقات الهواتف الذكية.

أخيراً... نطرح السؤال الذي يتكرر دائماً:

هل انتهى عصر الإذاعة؟

الإجابة هي:

• رغم كل التحديات التي تواجهها الإذاعة، فإنّ تأثيرها ما زال قوياً.

• تشدّ الكثير من الناس وتعتبرُ رفيقتهم في أوقات تنقلهم عبر السيارات ووسائل النقل العمومية.

• ما زال الملايين من البشر يستمعون للموسيقى والأخبار عبر الراديو.

• الراديو أصبح متوافراً على الإنترنت وأجهزة الهواتف الذكية.

• عام 2016 كشفت إحصاءات «اليونسكو» عن تجاوز عدد مستمعي الإذاعة عدد مشاهدي التلفزيون ومستخدمي الهواتف الذكية.

• هناك أكثر من 800 محطة إذاعية في البلدان النامية بينما نصف سكان العالم تقريباً (3.9 مليار شخص) لا يزالون غير قادرين على الاتصال بشبكة الإنترنت.

• الإذاعة تلاحق آخر تقنيات العصر، وتطور نفسها بشكل متواصل من ناحية الوصول إلى المستمع بأسهل الطرق وأسرعها، ومن ناحية المحتوى الذي يلبي جميع احتياجات المتلقي ■

* كاتب وإعلامي من الإمارات

الأرشيف الوطني الهندي في نيودلهي وبومبي
وموجوداته من وثائق الخليج والجزيرة العربية

فاطمة مسعود المنصوري

تعتبر الوثائق من أهم مصادر دراسة التاريخ، ولعل أدق ما يوصف به التاريخ - باعتباره علماً - هو أنه من «العلوم الوثائقية»، أي العلوم التي تعتمد على ما خلفه الماضي من وثائق، سواء أكانت بقايا مادية، أم مدونات تاريخية[1].

فكما تشير دايانا وورد - غريم جونز إلى أن «التاريخ كما يمكن أن يلاحظ الباحث بتململ، هو أوراق في مجمله.. والسجلات الرسمية بما قال، وما قال، ومتى، ونصوص المعاهدات والقوانين، ونقاشات البرلمان، ووقائع جلساته، أمثلة واضحة عما يمكن أن يسمى بأوراق عامة». وبالإضافة إلى هذه الأوراق العامة هناك أوراق أقل عمومية تشمل مذكرات صانعي قرارات الدولة بعد لقاءاتهم ومباحثاتهم، ومسودات المعاهدات والقوانين، والرسائل الخاصة لأصدقاء هؤلاء الصانعين للقرارات وأسرهم. وكتابة التاريخ مهما اختلف الشأن فيها مدينة في نهاية الأمر إلى نوعية المصادر التي ينهل منها المؤرخ، من هنا كان هذا الإلحاح الدائم والجهد الدائب لاستقصاء المصادر بمختلف أنواعها الشغل الشاغل للمؤرخ الجاد[2].

وتعتبر الوثيقة البريطانية من أهم مصادر دراسة تاريخ المنطقة بشكل خاصة والجزيرة العربية بشكل عام، وتتوزع الوثائق البريطانية المتعلقة بمنطقة الساحل المتصالح في القرن العشرين في أرشيف بومباي وأرشيف نيودلهي ومكتبة حكومة الهند، وأرشيف وزارة الخارجية البريطانية في لندن، وما يهمنا في هذه المقالة تسليط الضوء على الأرشيف الهندي في نيودلهي وبومبي وما يتحتويه من وثائق خاصة بالمنطقة.

الوثائق البريطانية وبداية التدوين

يرتبط تاريخ الوثائق البريطانية في الشرق بسجلات شركة الهند الشرقية الإنجليزية التي توصف بأنها أفضل مادة تاريخية في العالم، فعندما منحت الملكة البريطانية إليزابيث الأولى في عام 1600 (شركة الهند الشرقية الإنجليزية امتياز التجارة الإنجليزية في الهند والأقطار المجاورة لها)، كانت التجارة هي الهدف الأساسي للشركة وكان يحدوها الأمل في الحصول على جزء من خيرات الشرق وثرواته، وتوفير السلع الشرقية كالتوابل والعطور والبخور والحرير والقطن والأنسجة الشرقية في الأسواق الإنجليزية دون الاعتماد على بقية الشعوب الأوروبية في ذلك، ولعبت الشركة دوراً مهماً في تاريخ أوروبا الاقتصادي والسياسي، كما أنها تركت أثراً عميقاً في تاريخ الشرق برمته. والوثائق التي توجد في دور الوثائق الهندية هي في الأساس وثائق شركة الهند الشرقية الإنجليزية ووثائق السلطات الإنجليزية والهندية التي ورثتها وتولت مسؤوليتها. لقد احتفظت الشركة بطابعها التجاري مدة تزيد على مئة وخمسين عاماً، وصارت لها خلال القرن السابع عشر ثلاث مراكز رئيسية في شبه القارة الهندية وهي (سورات - كلكتا - مدراس)، والذي يعنينا من تقديم هذا العرض الموجز لتاريخ الشركة تواجدها في الخليج العربي ونتائج تلك التحركات. فيذكر أن الشركة حققت مكاسب تجارية مهمة في منطقة الخليج العربي لتجعلها واحدة من الأسواق الرئيسية لتصريف بضائعها، خاصة بعد أن حصل ممثلو الشركة على فرمان من الشاه عباس الكبير «1571 - 1629» حاكم فارس وصف بأنه مرض للغاية بموجبه قد سمح لممثلي الشركة بالاستقرار في الموانئ الفارسية[3]، في المقابل طلب الفرس في عام 1622 مساندة سفن الشركة لهم في مشروعهم الرامي إلى مهاجمة جزيرة هرمز وانتزاعها من البرتغاليين وبعد تردد طويل وافقت الشركة على تقديم تلك المساعدة وفوق شروط خاصة، وانتهت العملية العسكرية الانجلوفارسية بالاستيلاء على هرمز واستقر على أثرها ممثلو الشركة في ميناء بندر عباس، وكانت هذه سابقاً قرية صغيرة تدعى جمبرون اختارها الشاه لتكون ميناء بحرياً على الخليج وقد أطلق عليها اسمه، وهي التي شهدت كتابة أول وثيقة بريطانية عن الإمارات، وبعدها صارت بندر عباس لفترة مائة وخمسين عاماً مركزاً مهماً للنشاط التجاري والسياسي في الخليج وخلال السنوات اللاحقة حاولت الشركة السيطرة على بعض جزر الخليج العربي ونتيجة لذلك قررت الشركة عام 1763 نقل الوكالة من بندر عباس إلى البصرة، خاصة بعد اغتيال نادر شاه عام 1747 وأثر ذلك الوضع على سير التجارة البريطانية والوكالة في الخليج[4].

الأرشيف الوطني المركزي في نيودهي

يندرج أرشيف بومباي ونيودلهي ضمن ما يعرف اليوم بالأرشيف الوطني الهندي، الذي يعتبر من أهم الأرشيفات على مستوى منطقة آسيا، ويرجع ذلك بأن الوثائق التي يضمها لا تقتصر على الوثائق الهندية المحلية، وإنما تتعداها لتشمل وثائق معظم الدول الآسيوية التي تعاملت معها بريطانيا بشكل أو بآخر بما فيها وثائق الإمارات وأقطار الخليج العربي والجزيرة العربية عموماً، فهو يضم عدداً ضخماً من وثائق شركة الهند الشرقية وحكومة الهند البريطانية ويرجع تارخ تلك الوثائق إلى عام 1748 خاصة عندما دشنت شركة الهند الشرقية وكالات لها في منطقة الخليج كما تم ذكر ذلك سابقاً، ويعتبر هذا الأرشيف اليوم مخزناً لملايين الوثائق التي تغطي إستراتيجية المنطقة بجوانبها المختلفة العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية[5] . أما بالنسبة لتنظيم هذا الأرشيف فيرجع إلى عام 1891، عندما تأسست دائرة الأرشيف الوطني الهندي وكانت تعرف باسم دائرة السجلات الإمبراطورية The Imperial Record Department، وذلك بعد أن أصبحت الحاجة ملحة لتنظيم تلك الوثائق، وعليه فقد شكلت في كلكتا لجنة خاصة للإشراف على فرز الوثائق والسجلات للعمل على حفظ ما هو مفيد منها، وعيّن المستر فورست Mr.Forrest أول مسؤول للدائرة المذكورة حيث بدا عملية تصنفيها وجمعها في مكتبة مركزية موحدة وذلك وفقاً للأسس التالية[6]:

- سجلات الشؤون الداخلية من عام 1752 حتى عام 1879.
- سجلات اللجان الصحية من عام 1845 حتى عام 1859 .
- سجلات اللجان العسكرية من عام 1777 حتى عام 1858.
- سجلات الأشغال العامة من عام 1850 حتى عام 1871.
- سجلات الشؤون الخارجية من عام 1764 حتى عام 1829.
- سجلات الشؤون العسكرية من عام 1786 حتى عام 1893 .

كما قامت دائرة الأرشيف بعد ذلك بإصدار سلسلة من المنشورات المطبوعة للوثائق المتوفرة فيه غطت الفترات التاريخية المختلفة، وضع بعضها باللغة الإنجليزية وبعضها الآخر باللغة الفارسية. والذي يهمنا من وثائق هذا الأرشيف الوثائق الخاصة بالخليج والجزيرة العربية بشكل أساسي هو ذلك الجزء الخاص بدائرة الشؤون السياسية والخارجية والتي كانت مسؤولة بشكل خاص عن إدارة الشؤون الخارجية والعلاقات الخارجية لشبه القارة الهندية، لذلك فإن الوثائق الخاصة بالخليج والجزيرة العربية موجودة في هذا القسم. وتعتبر وثائق قسم الشؤون السياسية والخارجية في بداية الأمر قليلة ثم أخذت في الازدياد والتضخم بعد ذلك تبعاً لازدياد العلاقات الخارجية للسلطات البريطانية في الهند. وبالنسبة لفهارس وثائق القسم السياسي والخارجي فهي تغطي جميع الفترات التاريخية منذ بداية تأسيس القسم وحتى بداية القرن العشرين، والفهارس هذه قليلة بالنسبة للسنوات الأولى من تأسيس هذا القسم ثم أخذت في الازدياد في السنوات التالية، فمثلاً لا نجد للفترة من 1756 - 1873 إلا مجلدين من الفهارس، ثم أصبح هناك فهرس واحد لكل بضع سنوات، ثم صارت فهرساً واحداً لكل سنة، وفي المراحل الأخيرة أصبح هناك عدة فهارس للسنة الواحدة. والفهارس هذه

تربو على المائة فهرس جميعها غير منشور عدا فهرس واحد، أما الفهارس الأخرى التي تلي هذين الجزأين المطبوعين فنجدها بوضعها القديم بخط اليد، وقراءتها متعبة للغاية، وهي مفهرسة بحسب الحروف الأبجدية. وفهارس الفترات التالية للقرن التاسع عشر أفضل للقارئ، فهي مطبوعة، والأسماء فيها واضحة للغاية، ويجد الباحث فيها أسماء مناطق خليجية كالبحرين والبصرة وبغداد، وغيرها. وبالنسبة لوثائق الخليج والجزيرة العربية موضع اهتمامنا في هذه المقالة، فهي تعتبر قليلة في السجلات الأولى لقسم العلاقات الخارجية لأنها لم تولي المنطقة اهتماماً كبيراً في تلك الفترة، وذلك لأن حكومة بومباي كانت تمارس سلطة كاملة في إدارة الشؤون الخارجية وكان ارتباطها مباشرة بلندن دون أن تكون لها صلة بالمديرتين الأخريين كلكتا ومدراس، وحتى بعد تشريع البرلمان البريطاني عام 1773 قانون التنظيم الذي خول كلكتا وحاكمها حق الاشراف على كل من بومباي ومدراس، فإن بومباي استمرت في ممارسة الانفراد بمعالجة الشؤون الخارجية للبلدان الواقعة إلى غرب شبه القارة الهندية. ولهذا السبب يجد الباحث أن المادة المتوافرة في أرشيف كلكتا والموجودة في الأرشيف الوطني الهندي عن الخليج والجزيرة العربية قليلة جداً[7]. أما الحدث المهم الذي صار في القرن التاسع عشر، فهو أن حكومة الهند في كلكتا بدأت تمارس سلطة أكبر ونفوذاً أوسع على الشؤون الخارجية الهندية، وأخذت تنتزع شيئاً فشيئاً الصلاحيات التي كانت تتمتع بها حكومة بومباي. ولم تعد حكومة بومباي أهمية تذكر في إدارة الشؤون الخارجية في أواخر القرن التاسع عشر، وانحصرت إدارة تلك الشؤون بحكومة الهند في كلكتا، ومن ثم في دلهي بعد انتقال العاصمة الهندية إليها، عام 1911[8]. وبعد انتقال العاصمة صار من الضروري أن تنقل السجلات الرسمية والوثائق إلى المقر الجديد، وقد تم فعلاً تخصيص مبنى مستقلاً لها شيد عام 1926، واكتمل نقل المحفوظات له نهائياً عام 1937، وصار الأرشيف الوطني الهندي في دلهي بعد هذا التاريخ مستعداً لقبول خدمات الباحثين على الوجه الآخر.

إتاحة الوثائق للباحثين

قررت الحكومة الهندية في عام 1939 أن تفتح الباب بحدود معينة لطلاب البحث والدارسين المجلداً، وقد خففت بعض القيود على الباحثين بعد عام 1946 وفسح المجال لهم للاطلاع على كافة السجلات لغاية عام 1901. وقد حدث تطور ملحوظ على الأرشيف عام 1947 جعلت مواده تتضاعف بشكل كبير وذلك نتيجة لهجرة مختلف الوكالات السياسية والتجارية ومقار أعمالها مخلفة وراءها سجلاتها ووثائقها كافة للأرشيف الوطني وهي بلا شك ثروة علمية غنية لا تقدر بثمن لطلاب البحث العلمي[9].

دور الوثائق الحكومية في بومباي[10]

تحتفظ سجلات بومباي في الوقت الحاضر في مبنى في قلب مدينة بومباي، وتضم آلاف من المجلدات والإضبارات التي تتعلق بالفترة السباقة لعام 1820، كما تحتوي سجلات بومباي على مجموعة كبيرة من الوثائق التي تحتوي على معلومات كثيرة وقيمة تتعلق بالجزيرة العربية وشرقها ومنطقة الخليج العربي والبحر الأحمر. وسجلات بومباي في الأساس هي سجلات شركة الهند الشرقية الانكليزية وسجلات السلطات البريطانية التي ورثت تلك الشركة وتتوفر سجلات شركة الهند الشرقية في أماكن متعددة. وتحتفظ مكتبة دائرة الهند في لندن بجزء كبير منها، كما وأن هناك جزءاً كبيراً آخر في دور الوثائق المتعددة والمتناثرة في شبه القارة الهندية ونخص بالذكر منها دار الوثائق الوطنية الهندية. في نيودلهي ودار السجلات الحكومية في بومباي.. وسجلات بومباي ذات مكانة متميزة كمصدر مهم لتاريخ العراق والخليج العربي والجزيرة العربية، إذ كانت بومباي مقرا لإحدى الشركات الثلاث في الهند، واعتاد موظفو الشركة ومستخدموها تسجيل كل تلك الفعاليات والكتابية عنها إلى مستخدميهم في لندن وبومباي، بل كثيراً ما سجل أولئك المؤظفون والمستخدمون ما يقع تحت سمعهم وبصرهم من أحداث محلية في الأماكن التي كانوا يتواجدون بها، وان لم يكن لتلك الأحداث صلة مباشرة بهم وبمصالح الشركة. وإن هذا يفسر كثافة المعلومات التاريخية في وثائق الشركة وسجلاتها. وتتناثر المعلومات الخاصة بالجزيرة العربية والعراق والخليج العربي بأصناف عديدة من سجلات بومباي، ولكن هناك أصنافاً معينة من تلك السجلات تتميز بغزارة المادة ووفرتها ومن هذه:

أولا: سجلات المقرات التجارية والمقيميات.

ثانيا: سجلات مديرية بومباي.

ثالثا: سجلات البعثات واللجان والمعاهد.. الخ..

رابعا: مختارات من الرحلات والصحف والأوراق المحفوظة عند سكرتيرية بومباي.

خامسا: مختارات مطبوعة من سجلات حكومة بومباي وجاءت أغلبية سجلات الأصناف الثلاثة الأولى بشكل بومباي دون فيها ممثلو الشركة جميع المراسلات المتبادلة بينهم البعض وبينهم وبين مديري الشركة في لندن وبينهم وبين الحكام... وضمن هذه السجلات يوميات متعددة منها : يوميات البصرة. ويوميات مقر البصرة التجاري، ويوميات مقيمية البصرة وتتألف من إحدى عشر مجلداً وتتحدث فيها عن نشاط القبائل العربية والصراع بينها وحالة التجارة وتحركات قبائل المنتفق وتمردها على السلطات العثمانية بخلاف الصراع مع قبيلة بني كعب والانجليز وأحوال البصرة ومن ضمن السجلات سجلات مديرية بومباي وصنفت قسمين سياسي وسري وغطت مابين تاريخ 1755م حتى عام 1820م وضمت مأتي مجلد (200). ومن اليوميات المهمة الأخرى التي تحتفظ بها سجلات بومباي، هي يوميات بندر عباس وتضم هذه سبعة مجلدات (من رقم 112 إلى 118)، وتغطي مادتها الفترة من آب عام 1741 إلى آب عام 1757، وقد سجلت هذه من بين أمور أخرى، تحركات القبائل العربية في منطقة الخليج العربي في منتصف القرن الثامن عشر، وأحداث الخليج العربي. وهناك اليوميات وموضوعات متعددة منها عن العراق والبحرين والقواسم والوهابين. كما غطت اليوميات فعاليات القبائل العربية ونشاطاتها وأوردت العلاقات البريطانية من القوى المحلية ومن بينها الدولة السعودية وشيوخ القبائل العربية ورؤساؤها. وغطت إحدى اليوميات العلاقات مع السعوديين ومسقط وغيرهما في أربعة وثلاثين مجلداً. بخلاف المجلدات التي غطتها اليوميات في أربعة عشر مجلداً تضمنت علاقات السعوديين وباشا بغداد وحكام مسقط وصلاتهم مع شركة الهند الشرقية ومعلومات كثيرة متنوعة. وبعض سجلات الأقسام السرية ضمن هذا الملف ورد فيها تحركات المصريين في الجزيرة العربية وصراعهم مع الدولة السعودية. ومجمل القول ان هناك ما يقرب خمسمائة مجلد للفترة ما بين 1820 - 1880 - لها صلة مباشرة مع الجزيرة العربية، متوفرة في القسم السياسي والسري في دار السجلات الحكومية في بومباي وفى بعض المجموعات التي تغطي المجلدات من 199 إلى المجلد 703 تغطي الأحداث المختلفة للخليج خلال عام 1889 إلى عام 1948 ووجد فيها مجلدات تحتوى على كم كبير باللغة العربية بالإضافة إلى اللغة الانجليزية ومنها سجلات البعثات وللجان والمعاهد وغيرها وفيه ثلاث بعثات تخص الخليج والعراق والجزيرة العربية جاءت كالتالي:

1. بعثة الخليج العربي.
2. بعثة بغداد.
3. بعثة الجزيرة العربية وفي هذه البعثة سجل واحد وهي رحلة سادلير للرياض التي قام بها للالتقاء مع الإمام فيصل بن تركي وأورد فيها وقائع رحلالته إلى شيوخ بني خالد وشيوخ البدو الآخرين. هذا بخلاف الرحلات الأخرى. وهناك رحلات ومختارات وتقارير ودراسات ضمن سجلات بومباي برقم (80) تحدثت عن قبائل الخليج العربي والقواسم والعتوب والبحرين والكويت ومسقط ابتدأت من عام 1716م إلى عام 1843م. هذا بخلاف التصانيف ضمن المجلدات الجديدة وأعطيت تصانيف على حسب رؤوس الموضوعات (A) وتضم العناوين التالية : تجارة الرقيق، الأسلحة والذخيرة، موضوعات منوعة، الساحل العربي والجزر، قضائي، البحرين، عربستان، نجد، قطر، المباني، الطرق، مسقط، وغيرها من الموضوعات ■

* مركز زايد للدراسات والبحوث

الهوامش:

1. إمارات الساحل المتصالح -1900 1971 رؤية وثائقية من أرشيف الوثائق البريطانية، شمسة حمد العبد الظاهري، المركز الوطني للوثائق والبحوث، وزارة شؤون الرئاسة، ط1، 2010، ص28.
2. Diana Grimwood - Jones, Guide to Private Papers Collection, Mansell, Londonn,1979,p.37.
3. محطات من الإمارات العربية المتحدة، خليفة سيف حامد الطنيجي، دار كنان للنشر والتوزيع، ط1، 2011، ص 155.
4. المرجع السابق، ص 156.
5. الأرشيف الوطني الهندي في نيودلهي، د. مصطفى عبد القادر النجار، الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب، دراسات تاريخية (مجلة علمية فصلية)، ع 21 - 22، السنة السابعة، 1986.
6. المرجع السابق.
7. المرجع السابق.
8. المرجع السابق.
9. المرجع السابق.
10. جريدة الرياض، تاريخ وحضارة، ع15691، 10 - يونيو - 2011.

دار المخطوطات الإسلامية بالجامعة القاسمية

في إمارة الشارقة صرحاً شامخاً في عالم المخطوطات

أسماء يوسف الكندي

تعتبر المخطوطات من أهم نتاجات الأمة العربية الإسلامية وإحدى وسائل الحفاظ على هوية هذه الأمة وتراثها وتاريخها، فهي وعاء العلوم باختلاف تخصصاتها وتنوع موضوعاتها فضلاً عن كونها دالة على مدى إسهام هذه الحضارة في البناء الحضاري الإنساني، وتعكس ما جادت به عقول العلماء وخطته أناملهم، فقد عني المسلمون بالمخطوطات باختلاف علومها وفنونها عناية كبيرة، لكونها السبيل الوحيد للحفاظ على ما أنتجه العقل العربي الإسلامي في شتى المجالات، وإن خير ما تعتز به الأمم في تاريخها هو ما يحتويه تراثها من فكر وحضارة فتقدمه لأبنائها وأجيالها اللاحقة عنواناً رائعاً يزكي في النفوس حب البحث العلمي على الدوام، كما تعد المخطوطات عاملاً فعالاً في خدمة البشرية، لأنها تبرز عوامل التأثر والتأثير بين الحضارات الإنسانية المختلفة وتؤكد حقيقة أن الإبداع الحضاري العلمي سلسلة مترابطة الحلقات.

مؤسس دار المخطوطات الإسلامية

هو صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد بن صقر بن خالد بن سلطان بن صقر بن راشد القاسمي. ولد يوم الأحد في الرابع عشر من جمادى الأولى سنة 1358هـ، الموافق الثاني من يوليو عام 1939م في مدينة الشارقة، والتحق بمدرسة الإصلاح القاسمية الابتدائية عام 1948م واستمر فيها حتى عام 1953م، ثم أكمل دراسته المتوسطة في مدرسته القاسمية نفسها بعد افتتاح قسم جديد فيها، ثم انتقل إلى مدرسة الشيوخ الثانوية في الكويت لأداء الامتحانات النهائية فيها، وعاد بعدها ليعمل مدرساً في المدرسة الصناعية في الشارقة عام 1961م حتى عام 1963م، مدركاً أهمية الرسالة التعليمية حيث درّس فيها مادتي اللغة الإنجليزية والرياضيات، وفي نهاية عام 1965م التحق سموه الكريم بالدراسة الجامعية في كلية الزراعة في جامعة القاهرة، التي حصل منها على درجة البكالوريوس في العلوم، الهندسة الزراعية.

تأسيس دار المخطوطات الإسلامية

تعتبر مقتنيات صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، حاكم الشارقة - حفظه الله - من المحفوظات المهمة والوثائق والمطبوعات النادرة وهي بعشرات الآلاف وقد جمعها سموه، واقتناها بجهده الشخصي وبماله الخاص خلال جولاته في بلدان العالم المختلفة، حيث قام سموه بخزنها ورعايتها وصيانتها وفهرستها ورقمنتها وتعقيمها وحفظها بصناديق خاصة في قصره، فهي كنز علمي ذو قيمة حضارية وتاريخية لا تُقدرُ قيمتها وأهميتها إلا العاشق لها، لهذا السبب يرى سموه أن هذه الكنوز من (المخطوطات والوثائق) ستكون متاحة للباحثين وطلبة العلم، الذين يقومون بجهد علمي رائع للكشف عما تحتويها من معلومات علمية قيمة ونادرة وجديدة، وعلى ضوئه قام بإنشاء دار المخطوطات الإسلامية في الجامعة القاسمية في إمارة الشارقة. في تاريخ (7 /9 /2017م) افتتح صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، عضو المجلس الأعلى حاكم الشارقة، دار المخطوطات الإسلامية في الجامعة القاسمية في إمارة الشارقة، وقد شُيِّدت دار المخطوطات الإسلامية على طراز معماري إسلامي فريد، وبلغت تكلفة إنشائها وتجهيزها نحو 70 مليون درهم.

وتقع الدار على مساحة تصل إلى نحو ثلاثة آلاف متر مربع، وتضم 1500 مخطوطة أصلية نادرة من مقتنيات صاحب السمو حاكم الشارقة الخاصة، وذلك كدفعة أولى، تتبعها دفعات إضافية مستقبلاً ، وتُعدُّ دار المخطوطات صرحاً فكرياً، ومنارة ثقافية في المنطقة كلها، تربط الماضي بالحاضر، وقد أنشئت بتوجيهات صاحب السمو حاكم الشارقة؛ للاهتمام بالمخطوطات. وترتبط الدار بالشبكة الرئيسية للجامعة القاسمية، وتتكوّن الدار من طابقين؛ يحتوي الطابق الأرضي على مجلسٍ، ومسرحٍ لإقامة الندوات، والدورات العلمية المتخصصة، إلى جانب الأقسام الفنية، ومنها: قاعة لحفظ المخطوطات مزودة بإضاءةٍ مناسبة، ومجهزة بنظام إطفاء حريق خاص بالكتب النادرة، وخزائن حفظ آلية مقاومة لدرجات الحرارة العالية، ومطليّة بطبقة

مضادة للبكتريا، والفطريات، ونظام أمان رقمي، بالإضافة إلى وجود مختبر لصيانة المخطوطات، يقوم على معالجتها كيميائياً، وترميمها، فضلاً عن التنظيف الجاف والميكانيكي لها. ويضمّ الطابق الأرضي مختبراً لتجليد المخطوطات أيضاً، ومعملاً للتصوير الرقمي يحتوي على أربعة أجهزة مسح ضوئي، من أحدث الأنواع العالمية، بالإضافة إلى قاعة تحتوي على جهازٍ لتعقيم المخطوطات باستخدام غاز الأوزون يعد الأحدث من نوعه في العالم، علاوة على وجود قاعة للفهرسة والتصنيف، تَضُمُّ مفهرسين، وأجهزة حاسب آلي، فيما يتم عرض نماذج من أنفس المخطوطات وأندرها في الهو الرئيسي للدار. وفي الطابق الأول توجد قاعتان: إحداهما للباحثين والأخرى للباحثات، خصصتا للاطلاع على المخطوطات الرقمية على شاشات عرض، إلى جانب قاعتين أخريين لاطلاع طلاب الدراسات العليا (الماجستير والدكتوراه)، على المخطوطات الأصلية، كما توجد قاعة لحفظ الكتب المطبوعة النادرة، في طبعاتها الأولى في العالم، فضلاً عن قاعة أخرى لحفظ المجلات والدوريات، إلى جانب وجود معرض دائم لأندر المخطوطات، وأنْفَسِها، وتضم الدار أحدث الأجهزة لحماية المخطوطات وحفظها وفقاً للنظم العالمية أيضاً، منها ما يتحكم في نسبة الرطوبة والحرارة، فضلاً عن أجهزة متطورة في التعقيم، والترميم، والفهرسة، والمسح الضوئي، وشبكة متكاملة من الحواسيب الآلية الحديثة، ومنظومة اتصالات متقدمة في التواصل مع إدارات الجامعة بالكامل.

أهداف مؤسسة دار المخطوطات الإسلامية

دار المخطوطات دار متميزة في تجميع المخطوطات الإسلامية وحفظها والعناية بها محلياً وإقليمياً، ورسالتها هي العناية بالمخطوطات الإسلامية وصيانتها وحفظها وإتاحتها من أهدافه:

1 - نشر الوعي الثقافي في مجال المخطوطات داخل الجامعة القاسمية وخارجها.

2 - العناية بالمخطوطات والحرص على تجميعها.

3 - تيسير الاطلاع على الإنتاج الفكري والأدبي والعلمي لمقتنيات الدار بما تحويه من مخطوطات ووثائق نادرة ونفيسة.

4 - تقديم الخدمات المعلوماتية لجمهور الباحثين والمطالعين، وإتاحة مقتنيات الدار للاطلاع عليها والاستفادة منها.

5 - جمع وحفظ وصيانة مقتنيات الدار التراثية من الكتب والمخطوطات وتنظيمها والتعريف بها والإعلام عنها، وتوثيق الصلات العلمية والثقافية مع مختلف المكتبات والمؤسسات العلمية ودور النشر العالمية.

الاهتمام الإعلامي بدار المخطوطات الإسلامية ومقتنياتها

اهتمت وسائل الإعلام في الشارقة بالحديث عن دار المخطوطات الإسلامية في الجامعة القاسمية في إمارة الشارقة، وما تحتويه من مخطوطات ووثائق أصلية تعتبر من أنفسها، والحديث عن تأسيسها، ومن ضمن البرامج التي عنيت بذلك قناة الشارقة الفضائية، وخصصت حلقة للحديث عن «دار المخطوطات الإسلامية في الجامعة القاسمية في إمارة الشارقة»، واستضافت صالح محمد زكي اللهيبي (نائب مساعد مدير جامعة الشارقة لشؤون الأفرع، فرع الذيد) وسعيد المعداوي المشرف على دار المخطوطات الإسلامية، وقد سُئل صالح اللهيبي ما هو تقييم وجود دار المخطوطات الإسلامية في الجامعة القاسمية في إمارة الشارقة، وهذا الكم الكبير من المخطوطات والوثائق الأصلية، التي جمعها صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، حاكم الشارقة - حفظه الله - خلال أسفاره المختلفة لدول العالم؟

فأجاب: إن دار المخطوطات الإسلامية في الجامعة القاسمية في إمارة الشارقة عمل استثنائي وجبار في المجال العلمي والبحثي؛ لأسباب عدة منها:

1 - إن المخطوطة مصدر أصلي للمعلومة التاريخية، وإن تعددت نسخها؛ لأن كل مخطوط أو مخطوطة تعد كتاباً قائماً بحد ذاته، أي إنك تمتلك مخطوطة خاصة بك، فيقال: إن هذه النسخة خاصة بدار المخطوطات الإسلامية.

2 - الجانب الآخر هو حفظ تلك المخطوطات وصيانتها ومعالجتها، والتي تعرضت في أزمنة مختلفة ودهور كثيرة إلى الضياع والتلف،

فجاءت الأيدي البيضاء من قِبل حاكم الشارقة - حفظه الله - لكي ينقذها من التلف والضياع، وهو ما يؤدي إلى تشجيع الجانب العلمي والبحثي لدراسة هذه المخطوطات الخاصة بدار المخطوطات الإسلامية في الجامعة القاسمية.

3 - هناك أبعاد اقتصادية وسياحية لهذه المخطوطات، فمثلاً نحن نتعامل مع العديد من المكتبات الغربية، والتي تمتلك ألوفاً مؤلفة من مخطوطاتنا العربية، فنقوم بمراسلتهم للحصول على صورة من هذه المخطوطة الأصلية، وأحياناً نضطر للسفر إلى هذه المكتبات الموجودة في مختلف بلدان العالم للحصول على صورة من هذه المخطوطة، بينما تكون الأصلية موجودة في تلك المكتبات، فيقومون ببيع صورة من هذه المخطوطة لآلاف الباحثين والطلبة، فأنت تشجع الجانب السياحي والاقتصادي في إمارة الشارقة. وفي نهاية هذه المقالة التي تناولت الحديث بنبذة مختصرة عن المؤسس للدار صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي - حفظه الله - وعن المؤسسة (دار المخطوطات الإسلامية) تبين جهوده الحثيثة والجبارة، على إعادة إحياء التراث العربي، والمتمثل في المخطوطات الإسلامية الأصلية والنفيسة والنادرة التي جمعها خلال أسفاره المختلفة لدول العالم، حيث أدرك سموه أن قيمة تلك المخطوطات والوثائق، تمثل هوية هذه الأمة العربية الإسلامية وتراثها وإرثها، وما بذله العلماء المسلمون الأوائل من جهود جبارة ومضنية في حمل لواء العلم والمعرفة في العصور الإسلامية الأبية، فأبدعوا في شتى المجالات من علوم وفنون ومعارف، والحديث عن تأسيس الدار وما تحتويه من خدمات تقدمها لطلبة العلم، وكيفية العناية بالمخطوطات منذ وصولها للدار أيضاً، وتم ذكر نماذج مختارة لبعض المخطوطات والوثائق النادرة والنفيسة المحفوظة بالدار ■

*باحثة من الإمارات

المراجع :

1. الموقع الرسمي الخاص لحاكم الشارقة صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي. الرابط الإلكتروني :
https://sheikhdrsultan.ae/Portal/ar/biography.aspx?c=cat_40

2 - الموقع الرسمي لدار المخطوطات الإسلامية في الجامعة القاسمية. الرابط الإلكتروني: https://www.imh.ac.ae/founder/.

3 - القاسمي، سلطان بن محمد، مريم البراك، الدخيل، حنان عبدالعزيز. مقابلة صحفية مع صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، عضو المجلس الأعلى حاكم الشارقة، حول عدد من القضايا المهمة. جامعة الكويت . الكويت، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، ع 34، س 9، 1425هـ/2005م.

بِيْدار اللَّهْجَةِ الإماراتيّة فيما طابق الفصيح (4)

محمد فاتح زغل

أكاديمي وباحث في التراث

توسم اللهجة الإماراتية في كثير مما يمكن أن يدور في فلكها بالأصالة، ولم تخضع هذه اللهجة لسلطان التغيير العنيد إلا فيما لا بدّ منه كالألفاظ الأعجمية الدخيلة لأنها مسألة تقتضيها فنون الحضارة المعاصرة الثرّة. ومما يمكن عده من هذه الألفاظ بالرجوع إلى لسان العرب لابن منظور وتاج العروس للزبيدي قولهم:

أجل (عِيلَ): قيل إنّ (أجل) بمعنى (نعم)، وذهب الأخفش إلى أنَّها أحْسَنُ استعمالاً من (نعم) في التَّصديق، وأنَّ (نعم) أحسنُ منها في الاستفهام؛ لأنَّ (أجل) تصديق لخبر يخبرك به صاحبك، و(نعم) جوابٌ لكلام المستفهِم، لا جحد، واستعمالها في هذه اللهجة جاء على الأحسن، ويَبْدو هذا الاستعمال اللغويّ في قول أحدهم للآخر:

سأزورك الليلة، وردّ الآخر عليه: أنا مشغول هذه الليلة، فيقول ذلك القائل: عَيَل، أزورك بعد غد، على أن التقدير: أجل، إنَّ كان الأمر كذلك. والهمزة قلبت عيناً في هذه اللهجة، كما هي في لهجة تميم.

أوَى، وآوى عليه: يقال في هذه اللهجة: أويت عليه، بمعنى: أشفقت عليه، وأوى إليه في اللغة: رقّ، ورثَى له، أو أشفق عليه والقول نفسه في آوَى في هذه اللهجة.

بتّة: يقال في هذه اللهجة: ألبَسُ البتَّة، على أنّ البتَّ في العربية: الطيلسانُ من خزّ، ونحوِه، أو كساءٌ غليظ مُهَلْهَلٌ مُرَبَّع، أخضر، يسمى السَّاج.

بَديْدةٌ: البديدَةُ في هذه اللهجة: الحِصَّةُ، والنصِّيب، كما في قولهم: هذه بَديدَة فلان، وهي في العربية كذلك.

وتطلق في لهجة فلسطين على الأصل، أو النوع، أو غيرهما، كما في قولهم: يلعن أبو بَدِيْدتَك.

بِدْعٌ: تستعمل هذه اللفظةُ في هذه اللهجة للدَّلالة على البِئْر. والبديع في العربيّة: ماء عليه نخيل، وعيون جارية قرب وادي القُرى، والركيّةُ الحديثة الحَفْر.

وبَدَعَ الركيّةَ: استنبطها، وأحدثها، فتكون لفظةُ البِدْع من باب (فِعْل) بمعنى(مَفعُوْل): مَبْدوع .

بَرا: يُعَدُّ استعمال هذا الفعل من باب (فَعَلَ: بَرَأَ) في هذه اللهجة أفصحَ لغاتٍ ثلاثٍ فيه، وهي لغة أهل الحجازِ، على أن الهمزة قد سُهِّلَتْ فيه، كما في قولهم: بَرَا اليُرْحُ، واللغتان الأخريان: لغة تميم: بَرِيَ، ولُغَةٌ غير فصيحة: بَرُوْ.

تَبَزِّ: التَّبَزِّي: أنْ يستأْخِرَ العَجُزَ، ويستقدم الصَّدْرَ، كما في قول شاعر هذه اللهجة:

بدَّلَتْنِي شَايب وأنا صِبِي
مِن التَّبَزِّي والتراشه

وهي لفظة فصيحة. والبَزاءُ في العربية: انْحناءُ الظَّهْر عند العَجُز، أو إشرافُ وسَطِ الظهر على الاسْت، ويقال فيها: بَزواءُ، وأبْزَى .

بوُقَة، وبَوَّاق (بُوْجَه، وبَوَّاج، وبُوْكَه، وبَوَّاكَ): يُطْلَقُ على السَّرقة في هذه اللهجة: بُوقَة، وعلى السارق: بوَّاق، وهما في العربية كذلك، كما في قول العرب: باقَ القَوْمَ (سَرقَهم)، وباقَ عليك الرجل (طلع عليك من غَيْبة)، وباقَ فلانٌ (تعدى على آخر).

بُوْهَةٌ: البُوْهَةُ في هذه اللَّهجة: ما يُسْتَعْمَل لسد فُوّهة القِنِّينة، والقولُ نفسُه في العربية، على أنَّها فيها الصُّوفةُ المنفوشة تُعْمَلُ للدَّاوة قبل أنْ تُبَلَّ، ولهَا فيها معانٍ أخرى.

تاتَة: التَّاتَة في هذه اللهجة: حَبْوُ الطِّفل، ومَشْيُهُ، كما في إحدى تَرانيم الأمهّات:

تاتَــــه حِبَــــه ومِشَــــه
تاتــــه قبــــل العِشَــــهْ

وهي في العربية: تأتأةٌ، وهي مَشْيُ الطفل الصغير، على أنَّ الهمزة الأولى قد سُهِّلَتْ، والثانية حُذِفَتْ، أو سُهِّلَتْ، وقُلبتِ الألفُ هاءً.

ورحم الله شاعر النيل حافظ إبراهيم حين قال:

رَمَونِي بِعُقمٍ في الشَبابِ وَلَيتَني
عقِمتُ فَلَم أَجزَع لِقَولِ عُداتي ■

ازدهار الموسيقى في العصر العباسي

نورة صابر المزروعي
أكاديمية من الإمارات

كانت بغداد - عاصمة الخلافة الإسلامية - في أبهى حلتها، حيث شُيّد فيها أعظم المباني والقصور وأحدث المستشفيات الطبية وأنشئت فيها المكتبات وازدهرت حركة الترجمة. إن التقدمين الثقافي والفني في العصر العباسي كان لهما ارتباط وثيق بالتطور السياسي والازدهار الاقتصادي. فقد أمر خلفاء بني العباس بإنشاء المعاهد والمدارس للارتقاء بمكانة الأدب الذي كان له الأثر الكبير في ازدهار الثقافة الفنية. وأحدثت دار الحكمة نقلة نوعية في المعارف والتراجم، وكان روادها من النخبة العالمية من العلماء والفلاسفة والمترجمين الذين وفدوا من كل بقاع الأرض. فكانت بغداد تفيض مكتباتها بالمخطوطات اليونانية والسريانية والفارسية والهندية التي جذبت إليها ألمع العلماء من الأصقاع والديانات كافة، وكانت مكتبتها تضم أشهر الكتب مثل ترجمة كتابات أرسطو وأفلاطون ومؤلفات جالينوس وأبقراط وبطليموس في العلوم الطب والرياضيات والهندسة والموسيقى والفلك، ...إلخ، كما تُرجمت أشهر الكتب الفارسية، ومنها كتاب ألف ليله وليلة، وكتاب كليلة ودمنة[1]. ووجد الموسيقيون رعاية وحماية من الخلفاء وأصبحوا ندماء لهم كما أسسوا معاهد موسيقية وأهمها معهد إسحاق الموصلي الذي يعد من أهم المعاهد الفنية لتنمية المواهب وتدريب الكفاءات الفنية من تعليم الغناء وتلحين وتصميم رقصات، تخرج منه العديد من الفنانين. كانت المعاهد تقدم عروضاً مغرية لخريجي معهد إسحاق الموصلي لكفاءتهم الفنية (بأعلى التكاليف) لإقامة حفلات داخل قصور الخلفاء وخارجها. اهتم الخلفاء أنفسهم بالموسيقى والغناء والشعر وأكرموا وفادة الفنانين. ونذكر على سبيل المثال الخليفة المهدي (775 - 785) فقد وصفت فترة خلافته بالعصر الذهبي للفن والأدب. وكان شخصياً يعشق الموسيقى، وذكر المؤرخ ابن خلكان بأن المهدي «كان أحسن الناس صوتاً»، و«كان قصره يعج بالفنانين»، ومن أشهر الموسيقيين في عهده «حكم الوادي» الذي كان مولى الوليد الأول ابن عبد الملك، والذي فاز بجوائز مالية عدة لمواهبه الفنية الفذة وقدم له الخليفة دعماً مالياً يقدر بثلاثمئة ألف درهم تشجيعاً له وتقديراً لمواهبه الفنية. يذكر المستشرق جورج فاريمر أن عدد مؤلفاته الموسيقية وصل إلى نحو مئتي لحن، نال عليها الكثير من المبالغ الطائلة، وتقدر الجوائز المالية التي تسلمها من الخليفة المهدي وابنه الهادي بستمئة ألف درهم فضة. واتّبع الخليفة الهادي (785 - 786) نهج أبيه في رعاية الفنون أثناء خلافته. وأتقن ابن الخليفة عبد الله الغناء والعزف على آلة العود. ومن كبار الموسيقيين في عهده الموسيقار إبراهيم الموصلي، وهو من أصل فارسي من بيت أشراف العجم، نشأ هذا الموسيقار عند العرب في الكوفة، غير أنه استقر في الموصل وفيها درس الفنون والموسيقى ومن هنا لقب بـ«الموصلي» بعدما تمكّن من العلوم الموسيقية أضاف عليها الطابع الفارسي في اللحن والغناء. تذكر المصادر أنه كان يتقاضى مبلغاً شهرياً يقدر بعشرة آلاف درهم، وكانت هذه ثروته. وإضافة إلى ما كان يتقاضى فقد تسلّم العديد من المكآفات المالية من خلفاء بني العباس لمعزوفاته الموسيقية التي كان يقدمها لهم. كما أنه أنشأ مدرسة موسيقية تحت إشرافه كانت تدر عليه أرباحاً خيالية تقدر بأربعة وعشرين مليون درهم فضة. تخرج من مدرسته ألمع الملحنين منهم ابنه إسحاق الموصلي، وزلزل، ومخارق، وعلوية، وأبو صدقة، وسليمان بن سلام، ومحمد بن الحارث،...إلخ)، وكل هؤلاء الطلبة كان لهم شأن بعد التخرج ونالوا إعجاب خلفاء بنى العباس، وكانت تفتح لهم الستار في القصور أثناء أدائهم الفني. وكانت تعقد مبارزات لحنية وغنائية بين كبار الموسيقيين في بغداد. ولما تولى الخليفة هارون الرشيد (786 - 809) رفع من شأن بغداد في الجوانب العلمية والأدبية كافة، وجاء العلماء من بقاع الأرض كلها يتعلمون ويتدارسون العلوم والفنون. وأصبح الفنانون ندماء الخلفاء وأهمهم (حكم الوداي، وإبراهيم الموصلي، وابن جامع، ويحيى المكي، ومنصور (زلزل)، وإسحاق الموصلي). كان هارون يستمع لكل الفنانين ويكرمهم. وبعد وفاة هارون الرشيد، حكم ابنه الأمين (809 - 813). وأثناء حكم الأمين قضى وقته في مجالس الأنس ولم يخصص للحكم وقتاً ليتغلب فيه على ما يعترض شؤون الحكم وأهمل أمور دولته وعرف بحبه الشديد للفنون.

وانتقده الكثير من المفكرين في عصره، ويذكر الباحثون أن آخر ليلة قضاها وهو جالس على نهر دجلة يصغي فيها إلى الغناء والطرب حتى قتلته جيوش المأمون. تسلّم المأمون الخلافة بعد إزاحة أخيه (713 - 833)، وبعد استلامه الحكم وظف المأمون الفنون بحكمة واعتنى بمصالح الدولة السياسية والاقتصادية، فاهتم بالفنون والفنانين وعظّم مكانتهم وبرزت منهم أسماء فنانين أمثال: إسحاق الموصلي، وعلوية، ومحمد الحارث، ومخارق. ومن بين الفنانين الذين كانت لهم مكانة عظيمة، إسحاق الموصلي (767 - 850) الذي كان يعرف بعميد الموسيقى. تلقى تربية رفعية، وحفظ القرآن، وأحاديث الرسول الكريم، وتعلّم الأدب والفقه والتاريخ. فكان حضوره عظيماً في قصور الخلفاء ويرجع ذلك إلى تاريخ أبيه العريق في القصر. أكرمه هارون الرشيد وجعله نديماً ومقرباً له. فقد كان واسع الثقافة والمعرفة شاعراً من الطراز الأول، نابغ في فن البلاغة والخطابة. وكانت له مكانة عظيمة عند خلفاء بني العباس الذين كانوا يكنّون له احتراماً أكثر من أي موسيقي آخر. فقال فيه المأمون «لولا ما سبق على ألسنة الناس واشتهر به عندهم من الغناء، لوليته القضاء، فإنه والله أولى به وأعف وأصدق وأكثر ديناً وأمانة من هؤلاء القضاة». ففي الاستقبال الرسمي والاحتفالات ومجالس العلم كان يصطف بأمر من المأمون بين صفوف رجال العلم والأدب، وليس في صفوف الموسيقيين وكان يلبس لباساً خاصاً بالعلماء وسمح له الخليفة المأمون بالصلاة في مقصورته التي يصلي بها. يعد إسحاق الموصلي من أعظم الموسيقيين؛ لثقافته الواسعة، وبذلك تحقق له بأن يكون فناناً كاملاً شاملاً على الصُعد كافة. كما أن ابنه حمّاد تتلمذ على يد كبار العلماء أمثال أبو عبيدة والأصمعي وأخذ من أبيه ومدرسة جده علم الموسيقى فكان نابغاً في الموسيقى، وكتب رسائل في سير الشعراء وأخبارهم[2] امتد احترام وإجلال الفنانين عند الخلفاء العباسيين حتى عهد الواثق بالله (832 - 847) أول خليفة من بني العباس يلقب بـ «الموسيقار» كان مغنياً ذا صوت جميل وبارعاً على آلة العود. وذكر أبو الفرج الأصفهاني في كتابه «الأغاني» أنه شجع المبدعين والمواهب الفنية وكانوا يتسابقون في التنافس على لقب الفنان والاقتراب من حظوة الخليفة. أنشأ الخليفة المأمون «دار الحكمة» فكانت بمثابة جامعة في عصرنا هذا لدراسة العلوم والفن. إن تدارس علوم اليونان كان له الأثر البالغ في تطور الأبحاث النظرية لعلم الموسيقى وتطورها في العالم العربي وبدأ التدوين الموسيقي يأخذ مكانته في تلك الفترة. واشتهر من المترجمين في بيت الحكمة حنين بن إسحاق الذي درس في اليونان وتعلم اللاتينية وأسهم في ترجمة العلوم اليونانية إلى العربية وله الفضل في ترجمة أهم الكتب منها «نظريات الصوت» و«كتاب النفس» و«الحيوان» وبعض الأبحاث الموسيقية التي جُمعت من مصادر يونانية وترجمها. وتدارسوا فيها.

ومن الرسائل الموسيقية التي ترجمت رسائل أرسطوكزينس وإقليدس وبطليموس ونيقوماخس وكتاب الإيقاع لروثموس. واستفاد منها لاحقاً علماء المسلمين، ومنهم يعقوب ابن إسحاق الكندي، وأبوبكر الرازي، والفارابي، وابن سينا في مؤلفاتهم الموسيقية. يذكر المستشرق هنري فارمر، أن الموسيقى اليونانية أصبحت مطعّمة بالطابع العربي وأصبحت منهجاً علمياً وفرعاً من فروع علم الرياضيات. أما الخليفة المعتصم بالله (833 - 842)، فكان يقدر الفنون والعلماء، ولقي الفيلسوف «أبو يعقوب الكندي» اهتماماً ورعاية من الخليفة نفسه. وبرع يعقوب بن إسحاق الكندي في تدوين العلوم النظرية الموسيقية وأصبحت مؤلفاته مرجعاً لقرون عدة وصلنا منها خمس رسائل في الموسيقى[3].

الهوامش:

1. عبد المحسن طه رمضان، تاريخ المغرب والأندلس من الفتح حتى سقوط غرناطة، دار الفكر، الأردن، عمان، الطبعة الأولى ، 2010، ص 241.
2. هنري جورج فارمر، تاريخ الموسيقى العربية: حتى القرن الثالث عشر ميلادي، منشورات الجمل، بيروت، 2015، ص 220.
3. أبو يوسف يعقوب الكندي، مؤلفات الكندي الموسيقية، منشورات الجمل، تحقيق وإخراج زكريا يوسف، بيروت، 2009.

الشاعر غازي مختار طليمات

أحد رموز المسرح الشعري في سوريا 1935 - 2020

هيثم يحيى الخواجة

عندما نتحدث عن المسرح الشعري في الوطن العربي نتأكد من أن الذين ولجوا محراب هذا الفن وجددوا فيه هم قلة قليلة قياساً بكتّاب المسرح النثري الذي يعدون أضعافاً مضاعفة قياساً مع كتاب المسرح الشعري، نظراً لأن كتابة النص المسرح الشعري صعبة من جهة، وتحتاج إلى موهبة في الشعر وخبرة في كتابة فن المسرح. وفي سوريا لا يمكن أن نتحدث عن المسرح الشعري في العصر الحديث دون أن نذكر صلاح عبد الصبور، وخالد محيي الدين البرادعي، وفاروق جويدة، ومعين بسيسو، والدكتور غازي مختار طليمات، والدكتور مروان عرنوس، وغيرهم لكون هؤلاء أبدعوا مسرحاً شعرياً نوعياً عدا عن غزارة الإنتاج والموهبة الشعرية الفياضة.

وإذا كنتُ سأتحدث في هذه الدراسة عن الشاعر غازي مختار طليمات - رحمه الله - فلأن هذا الشاعر أنجز مسرحاً شعرياً أكد من خلاله أن المسرح الشعري مازال حياً، وأن المبدعين قادرون على العطاء فيه. والسؤال الملح ما الذي دفع الدكتور غازي مختار طليمات إلى هذا الفن، وهل جوّد فيه، وإلى أي حد جارى كتّاب المسرح الشعري في الوطن العربي؟

لا غرو في أن الذي دفع الكاتب الدكتور غازي مختار طليمات إلى الإبداع في المسرح الشعري أمور عدة أذكر من أهمها شاعريته المتفوقة، وموهبته، وقدرته على تطويع وتوظيف الشعر لفن المسرح وما يتضمنه من أفكار وموضوعات ملحة ومن صراع ورسم للشخصيات وحبكة وأحداث وغير ذلك. ولا بد أن نضيف إلى ما تقدم إيمانه العميق بأهمية هذا الفن في حياة المجتمعات والتأثير وولوج بوابات الوعي والتقدم الحضارة. وأما عن سمات مسرحه الشعري فأقول: إن عدداً من الصفحات لا يوفيه حقه، وأجد جازماً من الظلم ألا يدرس مسرحه في الجامعات وألا تكتب عنه مؤلفات تعطي هذا الشاعر الكبير والمسرحي المجلي حقه.

البدايات

بعد أن طبع أحمد شوقي أول مسرحية شعرية عام 1927 كتب بعده عزيز أباظة نحو اثنتي عشرة مسرحية شعرية ويمكن القول إن مسرحيات شوقي وأباظة يمثلان المرحلة الأولى من كتابة المسرح الشعري عند العرب. وممن تصدوا للمسرح الشعري بعد ذلك الشاعر عدنان مردم بك، ومن ثم عبد الرحمن الشرقاوي، ومعين بسيسو، وصلاح عبد الصبور، وسليمان العيسى، ومحمد الفيتوري، ومحمد إبراهيم أبو سنة، وأدونيس، وخالد محيي الدين البرادعي، و الدكتور غازي مختار طليمات، وغيرهم. وهنا لا بد أن نعترف بأن لكل شاعر من هؤلاء دوره وأثره لما تتميز به مسرحياته الشعرية من ميزات. وسيقتصر حديثي عن سمات مسرحيات المغفور له - بإذن الله - الشاعر الدكتور غازي مختار طليمات موضوع البحث. فإذا كانت قصيدة التفعيلة أكثر طواعية في إبداع المسرح الشعري فإن هذا الرأي لا يمكن أن يلغي المسرحيات الشعرية المكتوبة بالطريقة الكلاسيكية التي تستند إلى بحور الخليل بن أحمد الفراهيدي. ولئن لم يستطع بعضهم أن يطوع القصيدة الكلاسيكية لهذا الفن، فلا

يعني ذلك أن المسرحيات التي تعتمد على الشعر الاتباعي ليست جيدة مع الاعتراف بتفاوت المستوى والجودة. من هذا المنطلق سوف ننظر إلى مسرحيات الشاعر الدكتور غازي مختار طليمات بمنظارين :

- **جودة الشعر والقدرة على التوصيل والتأثير في المتلقي.**
- **فنيات النص المسرحي الشعري.**

وعلى الرغم مما تقدم فإن الشاعر غازي طليمات كاتب مسرحي وهو من رواد المسرح الشعري في سورية:

«قبل خمسين سنة كنت مدرساً معاراً إلى الكويت، ولم يكن المسرح في هذه الدولة قد ارتقى الرقي الذي بلغه بعد أن استعان عشاق المسرح بالمؤلف والمخرج غازي طليمات - رحمه الله - فاهتبلت السانحة وتطفلت على مائدة المسرح تطفل الهواة الشداة الذين يتوهمون أنهم قادرون على مطاولة المؤلفين المحترفين من ذوي المواهب المصقولة بالتجارب، فهرفون بما لا يعرفون، ويقرزمون فيما ينظمون، ثم لا يخرج من الهدف والفرزمة إلا حوار الحوار الدائري في الأسحار بدلاً ضوابط تنتظمه وتقومه، وبلا نقد يقف متكلفوه على جوانب الخلل فيه»[1].

لقد آمن الدكتور طليمات بأن النثر لن يبلغ الشعر في الإيقاع والإثارة، مهما تفاصح الكاتب في أسلوبه، ومهما انتقى من أفكار وفرائد الألفاظ والتراكيب، ولهذا اندفع نحو المسرح الشعري ليكتب المسرح من خلاله وهو فارس مقدام في ميدان الشعر. كما آمن بأن الكلام الموزون له قدرة سحرية على الدخول في الأسماع والقلوب والعقول وأن النثر لا يصلح للتطريب والتلحين فانحاز كلية إلى المسرح الشعري[2]. وعلى الرغم من أن الدكتور طليمات كتب مجموعة مسرحيات بعد عودته من الكويت أذكر منها (عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء، دار طلاس في دمشق 1990 - محكمة الأبرياء، دار البشير في عمان 1996 - عين جالوت، دار طلاس في دمشق 1997 - المحنة، اتحاد الكتاب العرب بدمشق 2003 - مسرحيات شعرية قصيرة، اتحاد الكتاب العرب في دمشق 2006) فإنه ظل مصراً على السير قُدُماً في المسرح الشعري، وقد أنجز وفاز .

السمات

لابد أن نعترف بأن المسرح الشعري العربي ليس بجودة واحدة، وأن بعض هذه المسرحيات اغتالتها النظم وهتك جمالياتها التوجه المباشر والخطابية المرفوضة حتى إن بعض المسرحيين ظن أنه إذا تكلمت الشخصية صدر البيت وتكلمت الشخصية الثانية عجز البيت فهو بذلك يكتب حواراً شعرياً. إننا ونحن نكتب عهد المسرح الشعري عند الدكتور غازي مختار طليمات لابد وأن نعترف بأن هذا الفن يحتاج إلى شاعر كبير متمكّن من

أدواته الشعرية ولديه خبرة عميقة بالفن المسرحي: «إن أعلام المسرح من سوفوكليس (496 - 405 ق.م)، ويوربيرس (480 - 406 ق .م)، وأحمد شوقي (1868 - 1932)، وعلي أحمد باكثير (1918 - 1969)، كانوا من الشعراء أو ممن أثروا الشعر على النثر فتهديتُ بهم واقتديت»[3].

فالمسرح الشعري - كما هو معروف - يؤثر الإيجاز على الإطناب، ويميل إلى الاقتصاد، ويرفض الحشو رفضاً تاماً.

ففي مسرحية (داحس والغبراء) يقول الدكتور طليمات:

«عقال: السّبقُ للغبراءِ
والمسبوق يدفعُ الخطر
حذيفة: ظلمت إذ حكمت
والظالم عمّا يفتريه يُزدجر
قد أحرز الخطّارو الحنفاء راية الظفر
عقال: هيهات!
فالغبراء حازتها أمام من حضر»[4]

كما أن الكلام الموقع يؤثر في النفس الإنسانية، فيحرك المشاعر، ويأخذ النفس الإنسانية إلى فضاءات ملونة يحبها المتلقي ويميل إليها. وعلى الرغم من ذلك فإن الوقوع في الفتور وارد إذا لم يتنبه إلى فنيات الكتابة المسرحية فأطال في عدد أبيات الشعر أو اعتمد معجماً يصعب على المتلقي فهمه. والكاتب غازي طليمات كان حذراً جداً فقد نجحت محاولاته الإبداعية من الانزلاق في فتور الحدث والحشو في النظم ومن السقوط في العجز عن توصيل الفكرة للمتلقي.

إن المسرح الشعري لا يختلف عن المسرح النثري فهو بحاجة إلى التشويق والدراما والصراع والحبكة والهدف والمغزى، كما هو بحاجة إلى فكرة حديثة تطرح أسئلة استفزازية بعيداً عن المباشرة والفجاجة والخطابية. ومن الصعوبات التي يواجهها كاتب المسرحية الشعرية هي أن الشعر الكلاسيكي يمكن أن يعبر عن العواطف أكثر من تعبيره عن المواقف المتشابكة والأحداث المعقدة، ولهذا نجد الكثير من المسرحيات الشعرية عاجزة عن التدقيق في تفصيلات الأحداث والتعمق في مفاصل المواقف، فيأتي الحوار الشعري ليدور في فلك وصفي لا يتجاوز السطح، ومن هنا أكدّ النقاد أن شعر التفعيلة أقدر على التغلغل في عمق الحدث ووصف المواقف المتشابكة.

وهذا ما فعله الدكتور غازي مختار طليمات وقد عبّر عن ذلك قائلاً. «لقد ثبت لي أن المحاورة بالبحور التقليدية تصلح للبوح بالعواطف، ولا تصلح لتعقيد المواقف، وتجدي في التأمل الفكري الرزين، وتخفق في تحريك الأحداث المتسارعة والأهواء المتصارعة، فناقلت فيما نشرت من مسرحيات بين بحور الخليل وبحيرات الحداثة، أي بين الأوزان التقليدية وتفعيلات الشعر الحديث»[6]. لقد جسد الدكتور طليمات هذه الخطوات عملياً، فاستطاع بذلك أن يدفع مسيرة مسرحياته الشعرية إلى الأمام كما استطاع بذلك أن يتجاوز بعض الشعراء الذين كتبوا مسرحيات شعرية تتسم بفتور الأحداث وغلبة الخطابية وغياب فنيات المسرح وعلى رأسها الحوار المسرحي المتقن والمتلاحق الذي يشد المتلقي إلى المتابعة، وإلى استنباط الأسئلة واستقراء الأحداث والدلالات ويمكن أن ننتبه هنا إلى أمر مهم هو أن الشاعر الدكتور طليمات وازن في موقفه، فهو لم يتنكر للقصيدة الكلاسيكية من جهة، ولم يرفض التجديد والمعاصرة إضافة إلى الإصرار الواضح على التجويد من خلال الالتزام بشروط وعناصر الفن المسرحي.

«صلاح الدين: أمن أجلي يفارق ما تولى؟
وفي الشهباء أعباءٌ جِسامُ؟
عماد الدين: نعم يأتي
فلا تأرق وتجزع
على الشهباء نائبة الهمام
أأدخِله عليك؟
صلاح الدين: آلي مفرٌ؟
وفي يدك المقادة والزمام!
عماد الدين: أحاجب، أدخل القصاد واعجل».

أما عن الحوار المسرحي الشعري فقد خصه بمزايا لكي يكون ملائماً للمثل، ولكي يكون المتلقي قادراً على متابعة الدلالة اللفظية والصورة المبتكرة، وبناء على ذلك نجد المؤلف قد عني

بالحوار فقسم نصوص المحاورات على شخوص المتحاورين تقسيماً يتلاءم مع الدور من جهة ويؤدي الغرض من جهة ثانية، بحيث لا نلحظ طول حوار عند بعض الشخوص وقصر حوار عند بعضهم الآخر مؤكداً التتابع والترابط أو مكملاً بعضه لبعض أو ممهداً لما لحقه دون تداخل.

ولم يكتفِ بذلك بل حافظ على أن يقدم حواراً فصيحاً مبسطاً لا لبس فيه ولا غموض، بحيث يستمتع المتلقي بالمعنى والدلالة والإيقاع والصورة المحلقة والمجنحة يقول في مسرحيته (محكمة العدل العمرية):

«رجاء: أو تعفو عن شكاة؟
عمر: لا أذاق الله أهدابك غفواً.
مسلمة: (بعد خروج رجاء) لم لا تمهلهم حتى غد؟
ثم ترى في الآخر رأيا»[8]

وقد يسأل سائل: إن غالب مسرحيات الدكتور غازي طليمات تستند إلى التاريخ؟ فأجيب نعم ذلك لأنه وجد المضيء في الماضي بعدما عاش عواطف ومآسي الحاضر الأليم، هذا إضافة إلى سعيه الدائب إلى تقديم الصورة المشرقة للأجيال، فأجدادنا أنجزوا الكثير ويستحقون الإنارة، هذا عدا عن أن الإسقاط أي إسقاط الماضي على الحاضر آتى أكله وكان موقفاً لتطابق ما يحدث أو تكرار ما يحدث بأسلوب أو بآخر:

«وربما حمله التعلق والتعشق على التمادي في تقديس الماضي واتهام الحاضر، فإذا هو يستلهم من التاريخ حكماً وأحكاماً، يحاكم بها أبناءه وأحفاده، ويقوم بها مفاهيمهم وسلوكهم لا ليدين عصره، بل ليبرىء نفسه مما يرعى به غيره، ومحاكمته لا تخلو من إثرة وإجحاف متنكرين بزي الإيثار والإنصاف..»[9].

وقد اتسمت مسرحياته التي استندت إلى الماضي بأنها ناقشت الفكرة بأسلوب معاصر وبطريقة مبتكرة بعيداً عن الفجاجة والخطابية والمباشرة والسطحية والسذاجة، جاء في مسرحية (ابن الأكرمين):

«القبطي: (وهو يعيد الدرة إلى الخليفة متجاهلاً أمره)
دونك الدرة أرجو أن يصان
شرف الوالد من كل انتقاص وهو أن
وبحسبي ما أتيت
فيه أدركت حقي واشتفيت
وأصاب القلب ما يرجوه من عدل وعز وأمان
عمر: أدب جم وعفو فاق ما كنت انتويت» [10]

إذا قلنا إن الشاعر الدكتور غازي مختار طليمات من أهم شعراء القصيدة الكلاسيكية في سورية - مجال الشعر الساخر - فهل هذا يعني أنه تفوق في المسرح الشعري؟ .

إن مسرحياته الشعرية التي أجاد بها تدعونا إلى الافتخار في الوقت الذي غدا فيه كتّاب المسرح الشعري في عصرنا الحاضرة قلة في الوطن العربي، وفي الوقت الذي حرص فيه الدكتور طليمات ومن أدلى بدلوه في هذا الفن على اخضرار المسرح الشعري وبقائه بعد تهيب الكثيرين من خوض غمار التجربة لا التجويد والتفوق فيها ■

كاتب وناقد مسرحي

الهوامش:

1. د. غازي مختار طليمات، مسرحيات شعرية من تاريخنا المشرق، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، 2014م .
2. المصدر السابق نفسه، ص 6 و7.
3. المصدر السابق نفسه، ص 6.
4. المصدر السابق نفسه، ص 28.
5. المصدر السابق نفسه، ص 166.
6. المصدر السابق نفسه، ص 8.
7. المصدر السابق نفسه، ص 314.
8. المصدر السابق نفسه، ص 318.
9. المصدر السابق نفسه، ص 10.
10. المصدر السابق نفسه، ص 449.

عمر عبد العزيز: من موسوعية المعارف إلى خدمة الثقافة والأفكار

حاوره: هشام أزكيض

في مقديشو، ولد عمر عبد العزيز عام 1953، حصل على بكالوريوس في العلاقات الاقتصادية الدولية، وماجستير في النظرية المالية، ودكتوراه في فلسفة العلوم الاقتصادية. وله اهتمامات عدة في شؤون الثقافة والأدب والفنون والاقتصاد. مارس عمر عبد العزيز التعليم في أكثر من جامعة عربية في اليمن وخارجها، كما مارس الصحافة باحترافية، فقد كان كاتب عمود رؤية اليومي في جريدة الخليج، وعمل بجريدة أخبار العرب في أبوظبي، وجريدة الجمهورية في اليمن.

وعيّن المشرف العام لقطاع الثقافة والفنون والمنوعات بجريدة الخليج، والمشرف العام لمجلة كل الأسرة. وعمر عبد العزيز فنان تشكيلي مخضرم، شارك في معارض تشكيلية عدة في كل من عدن ولندن والشارقة. وعمل مديراً لتلفزيون اليمن الجنوبي، ومديراً عاماً لمعهد الفنون الجميلة، ورئيساً لاتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين. من أبرز مؤلفاته المتنوعة التي تُعنى بما هو أكاديمي، وقصصي، واقتصادي... وجمالي: «أثر العلاقات النقدية الدولية على اقتصادية البلدان النامية»، و«آفاق التعاون الاقتصادي العربي» (كتابان أكاديميان في الاقتصاد)، و«من يناير إلى ويناير (قصة قصيرة)، و»زمن الإبداع»، و«مقاربات في التشكيل»، و«متوالية الجديد والقديم»، و«الصوفية»، والتشكيل»، و«تحولات النص البصري»، و«موسيقى الوجود»، و«فصوص النصوص» (علم الجمال). أما في السيرة فقد صدر له كتابان «نساء على درب الذاكرة»، و«ناجي العلي الشاهد»، ومن أبرز رواياته «الحمودي»، و«النسيان»، و«ماريوم»، و«الشيخ فرح»، و«محمد»، و«سلطان الغيب». ومن إسهاماته في الجانب الفلسفي: «مدار الكلام»، و«مدارات الدائرين»، و«مدارات الدوائر»، و«مدارات الحائرين». ومن ترجماته: «تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية للبروفيسور ريموس روس»، و«مرئيات الفيلسوف للمفكر الموسوعي بيتري تسوتسيا». يعمل عمر عبد العزيز حالياً، مديرإدارة الدراسات والنشر، بدائرة الثقافة حكومة الشارقة، رئيس مجلس إدارة النادي الثقافي العربي بالشارقة، كما يقوم بمهمة التحكيم الترجيحي لمحتوى مطبوعات دائرة الثقافة حكومة الشارقة.

بحكم اهتمامنا بشؤون الثقافة وآفاقها، وسعينا إلى التعرف على أعلام المشهد الثقافي العربي في وقتنا الراهن، أجرينا الحوار الآتي مع الكاتب الصحفي عمر عبد العزيز:

• سأعود بك إلى مرحلة الصبا في بداية هذا الحوار، إلى أصلك، أقصد مقديشو، عاصمة دولة الصومال: ماذا تعني لك، وما مدى حضورها في أعمالك الأدبية، مراحل تكوينك التعليمي فيها، العوامل التي أثرت فيك ودفعتك للاهتمام بالجانب الثقافي؟

أنا من مواليد مقديشو العاصمة الصومالية، في عهد الاحتلال الإيطالي لجنوب الصومال، وتبعاً لذلك كانت اللغة الإيطالية لغة المدرسة، آنذاك، وكانت العربية والصومالية تتجاوران، وهذه الأنساق اللغوية استتبعتها أنساق موسيقية وثقافية متنوعة، وهكذا نشأت، وأزعم أنّ معرفتي بهذه اللغات أسهمت في تنمية ثقافتي العربية الخاصة، وامتدت هذه المسألة إلى مشاهدات سينمائية، والاستماع للموسيقى، وممارسة الفن التشكيلي في المدرسة الابتدائية. مما لا جدال فيه أن المؤثرات التعددية المتنوعة كان لها حضورها في كتاباتي الأدبية والفكرية والنقدية، والأصل في هذه المعادلة تواشج الخوارزميات الدلالية والمعنوية؛ لتعزيز أي بُعدٍ أو طريقةٍ للتعامل مع المعطى الثقافي.

• كيف ترى واقع الاقتصاد العربي اليوم استناداً إلى تخصصك العلمي والقضايا الكثيرة التي درستها وبحثتها في هذا المجال؟

درست الاقتصاد الدولي في جامعة بوخاريست في رومانيا، ثم قدّمت أطروحتي في الماجستير «الاقتصاد المالي الدولي»، وبعدها دكتوراه في الاقتصاد الدولي وتحديداً في «الأثر الدولي على الاقتصاديات العربية»، ومنذ ذلك اليوم البعيد من

ثمانينيات وتسعينيات القرن المنصرم أشرتُ إلى أهمية التكامل في الاقتصاد العربي على قاعدة الإقرار بالتنوع وتعظيم المنفعة المتبادلة، غير أن الأوضاع السياسية والميدانية التي اتسمت بالعديد من الانعطافات الدراماتيكية أثرت سلباً في هذه الأحلام، مما نراه ماثلاً أمامنا في الأوضاع العربية السائدة.

• هل أسهم تكوينك في الجانب الاقتصادي في الإبداع الأدبي والإعلامي؟

تعلمت من الاقتصاد النظرة الماكرو «الكُلّية» للظواهر، وتحديد معالم المصطلحات وأبعادها المباشرة، وأعتقد أن هذا المنهج للنظر في الظواهر كان له الأثر المباشر على البيان اللغوي الذي أستخدمه، وكذلك على المنطق العقلي والشكلي في تحليل المعطيات، وهكذا نستطيع القول إن العلوم المختلفة، وإن تباينت في ظواهرها إلا أنها تتواشج في حقيقة الأمر، وينطبق هذا الأمر على العلم الاقتصادي وصلته بالعلوم الإنسانية المختلفة، ولعلّ كارل ماركس قدّم نموذجاً ساطعاً في هذا الباب، فهو من حيث الجوهر فيلسوف، وهو اقتصادي قدّم ملحمته الاقتصادية «رأس المال» أيضاً.

• لديك كتابات عديدة في مجلات ثقافية متنوعة، فإلامَ تعزو هذا الأمر؟

التنوّع في المعرفة أصلٌ أصيل في المعادلة الثقافية والفكرية، والحقيقة أن كل معرفة جزئية لا يمكنها أن تتنامى من دون سند معرفي موازٍ في الجوانب الأخرى، بحيث يمكن القول إن التّعددية المعرفية تشكل التميمة السحرية للعطاء الثقافي النّوعي.

اهتمامك بالتراث يدفعني إلى طرح التساؤل الآتي، ما منزلة التراث في واقعنا المعيشي، وكيف يسهم في بناء الشخصية العربية؟

أفهم التراث بوصفه معادلاً موضوعياً للزمن في ماضيه وحاضره ومستقبله، وبهذا المعنى ليس التراث لقى أثرية أو مستحاثات أركيولوجية... بل هو الاستطراد الأنثربولوجي لماهية الثقافة النوعية لهذه الأمة أو تلك. وتبعاً لذلك فإن توصيف الثقافة في المنطقة العربية تتجاوز الجغرافية السياسية والمكانية إلى ما يمكن أن يسمى بالجغرافية الإنسانية الثقافية المشتركة التي نسهم فيها بهذا القدر أو ذاك كما يسهم فيها الآخرون، ولهذا السبب فإن التحقق التراثي العربي للثقافة العربية مشمولٌ بالآخر الإنساني.

• لديك أعمال وتجربة روائية، ما أهم القضايا التي أثرتها في رواياتك؟

أنا كتبتُ روايات «سيرة ذاتية» وأخرى «سيرة غيرية» وثالثة «بوليفونية تعددية»، وفي كل هذه التجارب كنت أحرص على مسافة إجرائية بين السارد والكتابة دون أن يعني هذا الأمر غياب السارد العليم في كل الأحوال، وقد أنجزتُ حتى الآن سبع روايات، وليس المهم الكم المكتوب بل ما تثيره هذه الروايات من أسئلة نقدية وجمالية.

• بحكم اختصاصك بالاقتصاد والكتابة معاً، هل يمكن القول إنّ اكتساح الكِتاب الإلكتروني للأسواق يشكل خطورة على الكتاب الورقي؟

الكتاب الإلكتروني استطراد طبيعي لما تنتجه وسائل الاتصال العصرية والرقمية منها على وجه التحديد، لكن ذلك لا يعني استبدال أداة تعبير سابقة بأخرى جديدة، بل نطور ما كان سابقاً ونجدد ما هو جديد، وبهذا المعنى يمكن القول إن الحداثة الرقمية المعاصرة ستمثل بعد حين حداثةً ما قبلية، وهذا الجدل الخلاّق الذي يجري في العالم منذ زمن بعيد، فاستبدال القلم عند الكثيرين عبر استخدام الطابعة أو «الكيبورد» لوحة المفاتيح، لا يلغي الكتابة من حيث الأساس بل يؤسس لقلم جديد مزاجه النّقر على المصفوفة بدلاً من الكتابة بالقلم ■

* كاتب مغربي

الخوف من شيء ما.. رواية ترصد هشاشة النفس تحت وطأة الخوف من «كورونا»

علي أبو الريش يوثق صراعات الإنسان الأزلية من أجل البقاء

نشوة أحمد

في مواجهة الخوف تتجلى حقيقة النفس الإنسانية، ضعفها، هشاشتها، وتناقضاتها، أما حين يستحيل الخوف من شعور مجرد، إلى داء عضال يحكم قبضته على القلب؛ يضيق الكون على رحابته، ينسحب الأمل ويموت المعنى.. في فلك هذه الرؤى، تدور أحداث رواية «الخوف من شيء ما»، للكاتب الإماراتي علي أبو الريش، الصادرة أخيراً عن مركز أبوظبي للغة العربية، إصدارات - دولة الإمارات العربية المتحدة.

اتخذ الكاتب من فترة ظهور وباء كورونا وتفشيه، فضاءً زمنياً للأحداث، التي استبقها بمشهد ضبابي لحشدٍ من الناس في بيت أحد شخوصه «شاهين». ودفع عبرهذا الاستباق بجرعة تشويقية أحكم بها قبضته على قارئه منذ اللحظة الأولى في رحلته السردية، لا سيما أنه أرجأ تفسير هذا الاحتشاد لمرحلة لاحقة من السرد.

تدفق السرد في نسق أفقي طبيعي، وتدافعت الأحداث إلى الأمام، لتكشف عن نجاة الشخصية المحورية في النص «فيصل»، وشفائه بعد إصابته بفيروس «كورونا»، غير أن الشاب الذي أكد الأطباء شفاءه عضوياً، لم ينجُ من الآثار النفسية للفيروس المنتشر، وإنما بات - نتيجة الصدمة - فريسة للخوف، والهواجس، والوساوس القهرية، والخشية من العدوى. وأسفرت هذه الوساوس عن أزمته وأزمة الشخوص كلهم في الرواية. وقد نقل الكاتب عبر أزمة شخوصه ومعاناتهم؛ صورة كلية كاشفة، للتصدعات النفسية، التي أحدثها وباء «كورونا»، في عالم لايزال يحاول التعافي حتى الآن. عمد أبو الريش إلى استخدام أسلوب الراوي العليم في سرد مركزي، يرى فيه الراوي شخوصه من الخارج، بينما سمح للشخوص أن تستخدم صوتها للتعبير عن نفسها بحرية، عبر مساحات الديالوج المسرحي، الذي عزز في الوقت نفسه حالة الإيهام بالحدوث، كذلك كان المونولوج الداخلي وسيلة أخرى انتهجها الكاتب، ليمنح شخوصه صوت السرد، وكذا ليستجلي من خلالها عمق مخاوفها، وتناقضاتها، وصراعاتها الداخلية. وقد اتسق الحضور الكثيف لتيار الوعي، مع الرغبة في الكشف عن العطب النفسي الذي سببه الوباء. «هذه طامة كبرى، والكثيرون سوف يفسرون ما أفكر فيه على أنه شيء من الجنون، ولكنني على قناعة بأن الأمر يستحق التفكير فيه بعمق وحرص وحذر. سوف لن أخضع لدموع أمي، ولا لنظرات ظبية الجارحة، ولن أدفع حياتي ثمناً لمشاعر خاوية» ص 87.

ماذا يفعل الخوف؟

من رحم المفارقة الكبرى التي تجلت في إلحاق فيروس صغير لا يُرى بالعين المجردة؛ هزيمة مدوية لدول كبرى وشعوب بأكملها؛ تولدت ثنائيات متناقضة، جسد الكاتب تراوحها بين اليأس والأمل، واللوم والإشفاق، والذعر واللامبالاة، والحب والإعراض، والحنين للماضي، والتطلع للمستقبل، والعزلة الطوعية، والانخراط في الحياة. وأذكت هذه الانقسامات بين الشخوص وداخل النفس الواحدة؛ جذوة الصراع في النص، سواء على المستوى الخارجي الذي تجلى في صراع على البقاء، مع طبيعة قررت - عبر جرثومة صغيرة - أن تثير الخوف وتحصد آلافاً من الأرواح، أو فيما دار من صراع بين معظم الشخوص من جهة، وفيصل من جهة أخرى؛ رغبة في استعادته وتحريره من وساوسه، وكذلك على المستوى الداخلي للشخوص وفي عوالمها الداخلية «يسمع صوته الداخلي يصرخ في وجهه: لا تغب كثيراً في هذه الصحراء، فشيخة لن تنتظر كثيراً، ولست وحدك الرجل الوحيد في هذا العالم، فهناك آخرون سوف يشدهم جمال شيخة» ص 244. وقد أسهم الصراع بمستوياته كلها في دفع عجلة الأحداث، وأسفر عن حالة من التحول، باتت شيمة لكل الشخوص، إذ وجهت جميعها بوصلتها باتجاه الحزن واليأس، بعدما كانت تقتبل الأمل والحياة، فتحول فيصل - بعد إصابته بالكورونا - إلى شخصية منعزلة، مصابة بالوساوس. وتحول أبوه إلى الخجل من سلوك ابنه، بعدما كان مدعاة فخره واعتزازه. وتحولت الأم، والأخت، والحبيبة، من السعادة إلى الحزن، بعد الذي ألمّ بفيصل من عطب نفسه، واغتراب روحه. كذلك تحول حمدان من إقبال على ابنته، وإغداق حنانه عليها، إلى الإعراض عنها، بعد رفضها شاب تقدم لخطبتها رغم موافقته عليه. هذا التحول أكسب النص مزيداً من الدينامية والحيوية. وقد أظهر الكاتب الجوانب

الأولى من شخوصه، قبل ما حدث لها من تحول؛ عبر تقنيات التذكر وومضات الفلاش باك، ما أتاح له عقد مقارنات ضمنية، أبرزت الآثار النفسية الوخيمة، التي حلت نتيجة الوباء.

استدعاء التراث

استدعى الكاتب التراث الإماراتي، ووظفه داخل السرد. وكان بعض هذا التراث يتصل بالمهن القديمة، مثل مهنة المطوع الذي كان يحظى بمكانة اجتماعية رفيعة المستوى، دفعت الناس للإيمان بقدرته على حل أنواع مختلفة من المشكلات، لاسيما التي تخص أبناءهم. كذلك استدعى عبر الارتداد العكسي واسترجاع تاريخ شخوصه؛ موروثاً من استخدام الطب الشعبي في معالجة بعض الأمراض مثل الجدري، في زمن كانت فيه المستشفيات متواضعة. ومن الصور التراثية الأخرى التي برز حضورها داخل النسيج؛ المجالس الإماراتية التي يجتمع فيها الرجال كعادة اجتماعية متوارثة، للمناقشة بشأن أمورهم الحياتية، والاجتماعية، وللسمر، والترفيه، والاحتفال.. وأورد بعض التقاليد القديمة في إتمام الزيجات. واستدعى موروثاً من الحكايات العجائبية، ومن المعتقدات الشعبية، مثل التطير من الغراب والتشاؤم منه. كما استدعى بعض الموروث من العادات مثل تبخير الثياب وتعطيرها، والشغف بتناول القهوة. واستدعى كذلك ميراثاً من المعاناة، لم يقتصر على اعتماد القدامى من سكان البادية على الأطعمة البسيطة من التمر والماء وحسب، بل امتد إلى معاناة النساء في الحصول على الماء «كانت هي التي تجلب الماء من منطقة الحديبة بصفيحة تضعها على رأسها، كسائر النساء في ذلك الوقت، وفي يوم من الأيام تأخرت عن موعد عودتها إلى البيت... حيث وقعت إحدى جاراتها مغمياً عليها بسبب الطلق (آلام المخاض قبل وأثناء الولادة) الذي فاجأها أثناء انتظارها دورها في سحب الدلو من البئر ... وما إن أطلت من الباب حتى قفز مثل القط الحانق، وهَمّ بمعاقبتها بعصا كان قد أعدها لهذه المناسبة الأليمة» ص 162.

خصوصية ثقافية

على الرغم من عمومية القضية المحورية التي هيمنت على النص، ومحاولة الكاتب رصد أثر الخوف، الذي خلفه الوباء العالمي على النفس الإنسانية، فإنه عمد إلى إبراز مفردات البيئة المحلية وخصوصيتها، لذا اختار الإمارات فضاء مكانياً للأحداث، واستفاد من خصوصية البيئة، واستدعى بعض مكوناتها، مثل أشجار الغاف، والعيون المائية، والصحراء .. ومرر بعض الحمولات المعرفية والتاريخية، منها ما أورده حول وباء الجدري، الذي أكل أجساد المئات من سكان الإمارات قبل عقود. ونجح في نسج حمولاته كجزء أصيل من النسيج، يتصل بقضايا وفضاءات السرد، غير زائد ولا مقحم عليه. أما اللغة فاتسمت بالشعرية، والعذوبة، والعمق. وزاد من جماليتها ما سلكه أبو الريش من تناصٍ غير مباشر مع الموروث الديني «في الآونة الأخيرة عبس فيصل وتولى، واندحر في مكانه يداوي قلبه» ص 120. وإضافة إلى التناص، لجأ إلى التكنيك البصري والمشهدية في رسم الأحداث، فوضعها صوب العين، وأتاح لها إمكانية الرؤية. وقد غلف السرد نزوع حكمي، عمد الكاتب عبره لاستخلاص العِبر «يجب أن تفهم أن الحياة الحقيقية موجودة في مكان واحد، وهي هنا، مشيراً إلى قلبه» ص 296. كما لجأ إلى تقنية التكرار في غير موضع من النسيج، لتحقيق الغاية نفسها في استخلاص العبر، لا سيما في عبارته «ليست هناك حقيقة موضوعية، بل هي طريقة تفكير»، ولم يكتفِ ببلوغ الحكمة والعبرة، وإنما قام بتشريح شخصية البطل، ونكأ جراح طفولته، ليدعم حقيقة مفادها؛ أن كل ما يحدث في حياة الإنسان، يقف خلفه شيء ما حدث في الطفولة، فإقصاء فيصل طفلاً عن مواجهة المواقف التي يتعرض لها الصغار، صنع منه رجلاً ضعيفاً أمام الوساوس، عاجزاً عن مواجهة المشكلات، يؤثر العزلة، ويجنح إلى الهروب.

ورغم الواقعية الشديدة التي اتسم بها النص، وجدت الفانتازيا طريقاً إلى طياته، فزادت من جاذبيته، وحميميته، وعززت غايات الكاتب في الكشف عن أوهام النفس، ضلالاتها، وأعطابها «ارتفع المزارع إلى الأعلى، هكذا رآه فيصل، واختفى، وبعد فترة وجيزة وجده هناك، حيث تكمن الحيوانات عند مرعى قريب، استغرب فيصل وأصيب برعشة» ص 296. أما النهاية، فعلى الرغم من أنها جاءت - ربما - على نحو يخالف توقعات القارئ، فإنها اتسقت مع سلسلة المفارقات التي ساقها الكاتب، ومع طبيعة حياة لا تنفك تحيد عن المنطق، ودائماً حُبلى بالمفاجآت ■

* كاتبة صحفية من مصر

مدينة «الذهب الأصفر»..

منيا القمح.. تاريخ حافل يمتد لعصور مصر القديمة

عبدالعليم حريص

تعتبر مدينة منيا القمح من أقدم المدن المصرية، التي تقع في محافظة الشرقية، في دلتا مصر. وتشتهر بكونها مدينة سياحية للمحافظة، وتضم العديد من الحدائق العامة والمتنزهات، وهي أول مدن محافظة الشرقية من جهة القاهرة، وبها أكبر قرية سياحية ترفيهية، على مستوى الدلتا، لذلك تعتبر التجارة نشاطها الأساسي بعد الزراعة، مع بعض الصناعات الصغيرة، مثل الحلويات ومصنع منيا القمح للغزل، وتقسم إلى (11) وحدة محلية، وعدد من القرى التابعة لها، إلى جانب شهرتها بسباقات الخيل والهجن.

منيا القمح لقبت على مدار التاريخ بمسميات عدة لعلّ أبرزها: مدينة الذهب الأصفر «القمح»، حيث اشتهرت باحتوائها على صوامع تخزين حبوب القمح التي بنيت على أطلال مخازن سيدنا يوسف عليه السلام. وسميت (منى القمح) كما وردت في كتاب «التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية» لابن الجيعان، أثناء حكم السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون. وعام (1813) أصبح اسمها (منية القمح)، وكانت من توابع العزيزية وفي عام (1854) تمّ نقل ديوان القسم إلى منيا القمح، وسمي «منيا القمح»، وهو اسمها الحالي.

هي أول مركز من مراكز محافظة الشرقية على الطريق الزراعي من القاهرة. وتذكر المصادر التاريخية، أن منيا القمح أرض الأديان، فعلى أرضها أقام نبي الله، يوسف بن يعقوب عليهما السلام. كما ولد على أرضها النبي موسى عليه السلام، وأوحى الله إلى أمه أن تضعه في التابوت وتلقيه في اليم (بحر مويس حالياً).

ولمنيا القمح تاريخ بطولي، ضد الإنجليز، فتحتفل كل عام بيومها الوطني 16 مارس (1919) حيث خرج أهالي منيا القمح احتجاجاً على احتجاز بعض أبناء المدينة، من قِبل جنود الإنجليز، لتضامنهم مع الزعيم «سعد زغلول» فأطلق جنود الإنجليز النار عليهم، وأصبحت الساحة التي شهدت هذه الأحداث ساحة الشهداء. ويوجد في منيا القمح مناطق أثرية مهمة، حيث كانت

مركزاً مهماً لنشاط الدولة الفرعونية القديمة، ونلاحظ ذلك من خلال بعض أسماء الأماكن التي تحمل الأسماء الفرعونية مثل: «سان هو» وهي حالياً سنهود. و«شل شل» التي صارت الآن شلشمون، وتعني شل شل معبد الإله آمون.

وتحضن منيا القمح التاريخ الإسلامي، إبان الفتح الإسلامي لمصر وما بعده والكثير من البلدات والمناطق وأبناء المركز، تنتسب إلى قبائل عربية، مثل: بني هلال، وبني قريش، وبني حسين، وبني ربيعة، والعزيزية، والمحمدية، والحميدية، ومن أهم المعالم الدينية مسجد الصحابة، ومسجد المؤسسة الأسلمية، ومسجد الحسيني في منيا القمح. وللمدينة نصيب من الآثار القبطية، ومنها: كنيسة الملاك ميخائيل في كفر الدير، وبها حجاب المذبح الأوسط وهو عبارة عن باب مكون من خلفيتين بهما زخرفه تشبه الشمعة من العظم، وأربعة صلبان من الخشب أيضاً، مطعمة بالعظم وأشكال هندسية مختلفة. وتضم منيا القمح أنشطة عدة ثقافية وفنية من خلال قصر الثقافة المقام على أرضها، الذي يحتوي على الفرق الفنية في مجالات عديدة، ومسرح متكامل، تعرض عليه الأنشطة الثقافية والفنية كافة، إلى جانب مكتبة ضخمة تضمّ مجموعات من الكتب في مختلف المجالات.

ومن أبرز الشخصيات التي ولدت في منيا القمح، طلعت باشا حرب الذي يرجع أصله إلى منيا القمح حيث ينتمي إلى عائلة حرب بناحية ميت أبو علي، وهو مؤسس بنك مصر ومجموعة شركاته ويعتبر علماً من أعلام الاقتصاد في العصر الحديث في مصر، وقام بتأسيس شركة مصر للغزل والنسيج. ومنهم «صائد الدبابات» خلال حرب عام (1973) الرقيب أول مجند محمد عبد العاطي من قرية (شبيه قش) وهو من أشهر الذين حصلوا على نجمة سيناء من الطبقة الثانية وأطلق عليه «صائد الدبابات» لأنه دمر

خلال أيام حرب أكتوبر (23) دبابة بمفرده. والسياسي المصري سيد مرعي نصر، أول وزير للإصلاح الزراعي عام (1975)، صاحب فكرة إنشاء بنوك القرية، الذي تولى منصب وزير الزراعة مرات عدة، وهو مولود في العزيزية، التي كانت مركز المدينة، ومن ثم تم ضمها إلى منيا القمح حيث أصبحت هي المركز، وتعد من أهم قرى منيا القمح التي جاء ذكرها في معجم البلدان لياقوت الحموي، قائلاً: إن العزيزية اسم لخمس قرى في مصر تنسب إلى العزيز بالله الفاطمي. ومن أبناء منيا القمح أيضاً الصحفي مجدي الجلاد، رئيس تحرير جريدة «الوطن» المصرية.

ومن الشخصيات الأدبية أحمد فؤاد نجم، الشاعر المصري، الذي ولد بقرية (كفر أبو نجم) وهو أحد أهم شعراء العامية في مصر، ونجم من الأسماء البارزة في الفن والشعر العربي، ولقب بـ «الفاجومي المصري». والشاعر أحمد فتحي الذي لقب بـ «شاعر الكرنك». والفنان والمسرحي عبدالله غيث وشقيقه حمدي غيث، ويعتبر عبدالله غيث أفضل من قدم المسرح الشعري في مصر، وقدمه عميد المسرح العربي يوسف بك وهبي ليخلفه في المسرح. والشاعر والأديب عزيز أباظة، وهو رائد الحركة الشعرية المسرحية بعد أحمد شوقي. والمقرئ الشيخ أحمد سليمان السعدني ابن قرية «كفر براش» في منيا القمح، وبدأت شهرته عندما قرأ في وفاة الزعيم سعد زغلول، وكانت ذروة شهرته عندما قرأ في الإذاعة المصرية عام (1973) ليكون من القراء المعدودين في الإذاعة، وبعد ذلك ذاع صيته في معظم الإذاعات الأجنبية والعربية، كما قرأ في رحاب الحرمين المكي والنبوي، وهو أول قارئ سجل في الإذاعات الأجنبية، مثل: إذاعة ألمانيا، ولندن، وموسكو، ونيودلهي، عام (1941) ■

* شاعر وكاتب مصري

الفصول والمواسم عند العرب

إبراهيم الجروان
رئيس مجلس إدارة جمعية الإمارات للفلك - عضو الاتحاد العربي لعلوم الفضاء

أدرك الإنسان من تأثير الطبيعة عليه وجود فصول مختلفة خلال العام، والتقسيم كان على أساس ملاحظات الإنسان للطبيعة ودراسته لها، وعلاقة البرد والحر بحياته وبزرعه وحيواناته وبالتجارة والتنقل في المراعي، وكل هذه لها علاقة بتبدل طبيعة الموسم. ولكن الواضح من الفصول في بلاد العرب: الصيف. ويستأثر بالنصيب الأكبر من السنة، لامتداد حره، ثم الشتاء ولذلك نجد الناس يقسّمون السنة إلى نصفين: صيف وشتاء. فأهل العراق يمطرون في الشتاء ويخصبون في الربيع الذي يتلو الشتاء، أما أهل اليمن فإنهم يمطرون في القيظ ويخصبون في الخريف الذي تسميه العرب الربيع الأول.

الصيف في جزيرة العرب

يعد فصل الصيف، في جزيرة العرب، أطول الفصول وأوضحها فيها؛ وهذا الذي دفع العرب ولا شك إلى تقسيم السنة إلى نصفين، شتاء وصيف يبتدئون بالشتاء ويجعلونه النصف الأول، ويبدأ عندهم بابتداء النهار في القصر وابتداء الليل في الزيادة. وأما الصيف، فيبدأ عند انتهاء النهار بالطول وابتدائه بالنقصان. فقد قسّم العرب السنة إلى موسمين: موسم زرع يُبذر فيه ويُزرع، وموسم حصاد يحصد فيه زرعه ويجني ثمره. وهو الموسم الذي يبدأ فيه الزرع بالأفول والذبول، حتى إذا ما جاء البرد، تساقط فيه الورق، وتَعرّت الأشجار من الخضرة ويقابل

هذا البرد الحر، وهو موسم واضح ظاهر في جزيرة العرب حياته فيها أطول من بقية الفصول. ونجد هذه الفكرة عند العبرانيين كذلك، فالصيف والشتاء هما الفصلان الواضحان البارزان عندهما. ويسمى الصيف بـ«قيز» «قيض» عندهم، أي: بالتسمية الواردة عند العرب، أما الشتاء، فهو «خرف» في العبرانية.

وبعض العرب يقسّم السنة إلى نصفين: شتاءً وصيفاً، ويقسّم الشتاء نصفين، فيكون الشتاء أوله، والربيع آخره. ويقسّم الصيف نصفين، فيجعل الصيف أوله، والقيظ آخره. وذكر أهل الأخبار وعلماء اللغة أن العرب تبتدئ بفصل الخريف وتسميه الربيع، لأن أول الربيع، وهو المطر، يكون فيه، ثم يكون بعده فصل الشتاء ثم يكون بعد الشتاء فصل الصيف، وهو الذي يسميه الناس الربيع، وقد يسميه بعضهم الربيع الثاني، ثم يكون بعد فصل الصيف فصل القيظ، وهو الذي يسميه الناس الصيف. ومن العرب من يسمي الفصل الذي تدرك فيه الثمار وهو الخريف الربيع الأول، وكلهم مُجْمِعون على أن الخريف هو الربيع. ويسمى الفصل الذي يتلو الشتاء ويأتي فيه الكمأة والنور الربيع الثاني.

أسماء الأزمنة الأربعة عند العرب

تعددت أسماء الأزمنة الأربعة عند العرب: فزعمت طائفة منها أن أولها الوسمي، (وهو الخريف عند العامة)، ثم الشتاء، ثم الصيف (وهو الربيع عند العامة)، ثم القيظ (وهو الصيف عند العامة)، ومنهم من يعد الأول من فصول السنة الربيع (الذي هو الخريف

عند العامة)، وهو الأشهر والأعم، والعرب تقول: خرفنا في بلد كذا، وشتونا في بلد كذا، وتربعنا في بلد كذا، وصفنا في بلد كذا».

وهناك أسماء أخرى لهذه الفصول، فـ«الصفرية» هو الجزء الأول من السنة وسمي مطره الوسمي، والشتاء هو الجزء الثاني منها. أما الصيف فهو الجزء الثالث. وأما الجزء الرابع، فهو القيظ، وسموا مطره الخريف. وقد حددوا مبدأ كل فصل ومنتهاه بالفصول. فيدخل الربيع الأول الذي هو الخريف عند الفرس لثلاثة أيام من أيلول (بحدود 16 سبتمبر حالياً) ، ويدخل الشتاء لثلاثة أيام من كانون الأول (بحدود 16 ديسمبر حالياً)، ويدخل الصيف الذي هو الربيع عند الفرس لخمسة أيام تخلو من آذار (بحدود 18 مارس حالياً)، ويدخل القيظ الذي هو الصيف عند الفرس لأربعة أيام تخلو من حزيران (بحدود 17 يونيو حالياً). وهناك من يجعل السنة ستة أزمنة: الوسمي، والشتاء، والربيع، والصيف، والحميم، والخريف. وحصة كل زمن من هذه الأزمنة شهران. وذكر بعض العلماء أن السنة عند العرب ستة أزمنة: شهران منها الربيع الأول، وشهران صيف، وشهران قيظ، وشهران الربيع الثاني، وشهران خريف، وشهران شتاء. وذكر بعض العلماء أن السنة عند العرب ستة أزمنة: شهران، منها: الربيع الأول، وشهران صيف، وشهران قيظ، وشهران الربيع الثاني، وشهران خريف، وشهران شتاء. والربيع جزء من أجزاء السنة، وهو عند العرب ربيعان: ربيع الشهور، وربيع الأزمنة. فربيع الشهور شهران بعد صفر من التقويم الهجري المعروف. سميا بذلك لأنهما حدا في هذا الزمن فلزمهما في غيره. ولا يقال فيهما إلا شهر ربيع الأول وشهر ربيع الآخر.

ربيع الأزمنة

وأما ربيع الأزمنة. فربيعان: الربيع الأول وهو الفصل الذي يأتي فيه النور والكمأة، وهو ربيع الكلأ. والربيع الثاني، وهو الفصل الذي تدرك فيه الثمار. ومن العرب من يسمي الفصل الذي تدرك فيه الثمار، وهو الخريف: الربيع الأول، ويسمى الفصل الذي يتلو الشتاء ويأتي فيه الكمأة والنور الربيع الثاني. وكلهم مُجْمِعون على أن الخريف هو الربيع. والخريف عندهم المطر الذي يأتي في آخر القيظ، ولا يكادون يجعلونه اسماً للزمان. أما الربيع فهو اسم للزمان ووصف لأمطار الشتاء، تسمي العرب قسمي الشتاء ربيعين: الأول منهما ربيع الماء والأمطار، والثاني ربيع النبات لأن فيه ينتهي النبات منتهاه، قال: والشتاء كله ربيع عند العرب من أجل الندى، قال: والمطر عندهم ربيع متى جاء. قال الأزهري: وسمعت العرب يقولون لأول مطر يقع بالأرض أيام الخريف ربيع ■

في النغم، ما فقد رمضان وما حوى

مصطفى سعيد
عازف وباحث في علم النغم

منذ بزوغ نجم الحضارة الإسلامية، برز النغم معبّراً عن حال الناس بسائر تراكيبهم الاجتماعية، في البادية والحواضر، في الريف والمدن، في قصور الأثرياء ومساكن العامة والفقراء، في الأفراح والأتراح، في الدين والدنيا. بل أكثر {مُشادّي الدين} المتعصّبين لتحريم النغم، يرتّلون القرآن بالأنغام نفسها التي يحرّمونها، لأن "الله جميلٌ يحبّ الجمال"، لكن كاره الجمال هرباً منه يضع قواعد تحليل النغم وتحريمه، كلٌّ على هواه، دون استنادٍ على شيءٍ إلّا أقوال كارهي الجمال على امتداد الحضارة. فاستنادهم على شرعية القديم، لا على شرع الجمال والسماحة التي أتى بها الإسلام. ولشرعية القديم هذه حديثٌ طويلٌ ليس هنا مكانه. دخل النغم/ كما سبق الذكر/ في سائر مظاهر الدين والدنيا في الحضارة الإسلامية منذ نشأتها. فمن تلاوة القرآن، مروراً بالأذان والتسبيح، وصولاً إلى سائر المناسبات الدينية وشعائرها، ثبتت في أذهان الناس/ على مرّ العصور/ نصوص نغمية تعبّر عن الحدث تماماً كما ثبتت النصوص الأدبية.

فليغُص القارئ الكريم في فكره ليتذكّر النص النغمي لصلاة العيد، أو تسبيح المسحّر إيذاناً بقرب أذان الفجر وبدئ الصيام. من هنا يأتي الحديث عن رمضان، فهو أطول موسمٍ دينيٍّ في الإسلام، يشمل ديار الأمّة كافة، فلا يلتزم مكاناً بعينه، مثل الحجّ مثلاً. بقيت في الذاكرة الشعبية بعض الألحان الرمضانية التي دارت على ألسن الناس. فمن لا يذكر "لولا الحبايب لم جينا" و"اعطونا العادة" و"وحوي يا وحوي" و"هلّ هلالك" وغيرها من الألحان التي تحفظها الذاكرة الشعبية عند سائر شعوب الأمة الإسلامية؟

ضَمن تسجيل الصوت لنا بعض ما حوى رمضان من كنوز نغميّةٍ، وحفظها من الضياع، فيسهل إيجاد بعض ألحان المسحّر، ويسهل الرجوع إلى بعض الأهازيج الشعبية المبشرة بقدوم رمضان المرحّبة به. بل إن بعض التسجيلات أصبحت علامةً في الأسواق على عرض السلع الخاصة بشهر رمضان. سواءٌ كانت هذه الألحان شعبيةً مثل "وحوي يا وحوي" أو أغانٍ دارجةٍ لُحِّنَتْ لإذاعةٍ ما ابتهاجاً برمضان "رمضان جانا" فالمشهور من الأولى تسجيل أحمد عبد القادر لشركة أوديون، هذا التسجيل الذي أخذ من اللحن الشعبي أساساً بنى عليه حسين حلمي المانسترلي وأحمد شريف هذا اللحن الذي ما زال يُذاع بعد نحو تسعين عاماً من تسجيله كأنما سُجِّل بالأمس القريب. أما الثاني، فهو كلامٌ ولحنٌ خالصٌ نظمه حسين طنطاوي ولحّنه محمود الشريف ليسجّله محمد عبد المطلب للإذاعة المصرية فينتشر في سائر الأصقاع الناطقة بالعربية وغير الناطقة بها بشارة بالشهر.

والحق أنه حتى ما لم يُسجل من هذه الألحان، أو سُجِّل ولم تنتشر إذاعته، لم يزل يتردّد على ألسن الناس إلى أيامنا، نسمعها دائرةً على ألسن الأطفال في يوم رؤية هلال رمضان "ليلة الهلال"، وليلة اكتمال البدر في رمضان "قرقيعان"، وفي العشر الأواخر، خصوصاً ليلة 27 المُعتَقد أنها ليلة القدر، ثم ليلة وقفة عيد الفطر.

في منتصف القرن العشرين، أصبحت كلفة تسجيل الصوت أقلّ، وتطوّرت الإمكانات بحيث أصبح التسجيل غير محدود المدّة، فأخذت الإذاعات من هذا الإرث الشعبي أساساً بنت عليه برامج كثيرة، منها ما انتشر، مثل بعض برامج "الثلاثي المرح" الغنائية، أو "المسحّراتي" الذي بناه فؤاد حداد وسيد مكاوي من إرث المسحّر. ومنها من لم ينتشر رغم جودته، فمسألة الانتشار له عوامل أُخرى تخصّ تقلّب أحوال الزمن، وقيام وسائل الإعلام على نشره، إلى جانب جودته.

الحاصل أن الإرث النغمي الشعبي الرمضاني لم يندثر، فإن كان تقلّب الزمن محا بعض هذه العادات، مثل أغلب مواكب الأطفال، فقد حفظ توثيق هذه الألحان بتسجيلها صوتاً، بل وتصويرها أحياناً. فبقي ما تبقّى، لكن ما فُقِد، يمكن لمن شاء العودة إليها، سواءٌ للبحث فيها اجتماعياً وتاريخياً ونغمياً، أو لمجرّد الحنين لزمنٍ مضى. فعلى سبيل المثال: كان ما سُجِّل من بعض ألحان المسحّر وغيرها، بمنزلة دليلٍ مرشدٍ لكاتب هذه الأسطر لفهم أخطاء التدوين الناتجة عن اختلاف النظام الموسيقي، ومن ثم قراءة ما دون إدوارد لين صاحب "المصريّ الحديث" ومن قبله فيلوتو الذي دوّن النغم في الجزء الثامن من الكتاب الموسوعي لحملة بونابرت على الديار المصرية والشامية "وصف مصر".

ماذا عن الشعائر في رمضان؟ الفجر، المغرب، التراويح، القراءة والذكر والتسبيح؟ تحكي لنا كتب التاريخ عن شعائر رمضانية في المساجد، مثل ختم القرآن جماعياً، والتسبيح الجماعي قبل الإفطار. كما تحكي لنا بعض الشعائر الخاصّة بالمقرئين والمنشدين والمؤذّنين أيضاً الّتي تجعل من رمضان حدثاً مختلفاً، مثل تسبيح السَحَر، وأذان الفجر، وأذان المغرب، والتراويح، وذكر التهجّد، والتوحيش في العشر الأواخر، وحلقة الذكر في ليلة القدر.

ليس القصد الشعائر بحدّ ذاتها، فما زال الفجر والمغرب يؤذّن لهما، وما زالت صلاتا التراويح والتهجّد قائمتَين، لكن، ما الذي كان يميّزهما نغماً؟ وما سبب انقطاع هذا التميّز؟ ولماذا انقطعت بعض الشعائر المحمودة، أو كادت، مثل ختم القرآن بالقراءة الجماعية جهراً، ألم تكن هذه القراءة الجهورة أحفظ للّسان العربي؟ تحفظ لنا بعض المدوّنات النغميّة، وتسجيلات العقد الأول من القرن العشرين بعض ألحان هذه القراءة الجماعية. فلو ذُكِر أن هذه القراءة كانت بمباركة العلماء في الحرمَين والأزهر الشريف وغيرها من صروح الإسلام، فسيكون الرد باللعن والتكفير من مُشادّي الدين، الذين غلبهم، فنزع من قلوبهم النور ومن أوجههم البشاشة والبسمة. كان لأذان الفجر في رمضان بهجةً خاصةً، فيوم رؤية الهلال، تكبّر المأذن سويّةً في لحنٍ مُبهجٍ يختلف في نغمته عن كلّ صباح. ثم كان التسبيح والذكر يختلف نغماً كلّ عشرة أيّام "الرحمة، المغفرة، العتق من النار" فكان المنشدون والمؤذّنون يصوّرون بالنغم هذه الأحوال لكلّ عشر ليالٍ من ليالي رمضان، حتى لو كانت النصوص الأدبية نفس الأدعية والأبيات. كان مغرب رمضان ذا طابعٍ مميّزٍ عن أيّ أذان مغربٍ قبله أو بعده، ولعلّ الشيخ محمد رفعت من الأوج هو النموذج الوحيد لهذا الأذان. في العشر الأواخر، كانت المآذن تجاوب بعضها بعضاً، حتى إذا شوهِد الهلال، أُذِّن أذان وداعٍ لرمضان، أو جُعل في مغرب اليوم الثلاثين، في نغمةٍ حَنِينٍ كأنّما يريد الناس أن تكون السنة كلّها رمضان.

في آخر بضعة أيّام من رمضان، كان ثمّة ذكرٌ وتسبيحٌ يُعرف بـ "التوحيش" "لا أوحش الله منك يا شهر الصيام". ولهذا التوحيش نغماتٌ مخصوصةٌ من أوّل الليل إلى انتصافه حتّى آخره، فكان الناس منها يعرفون قرب انتهاء الشهر، خصوصاً في ليلة رؤية هلال شوّال، يُعرف هذا من اختلاف التصاعد النغميّ عن باقي الليالي.

كان الناس يعكفون في المساجد على قراءة القرآن وختمه جماعياً. وحفظت لنا المخطوطات النغمية بعض أنغام هذه القراءة الجماعية لبعض الآيات. فلعمري طوبى لأمّةٍ كانت تميز هذه النغمات وتردّدها جماعياً في سهولةٍ ويسرٍ وجمال.

كان الأئمّة والمقرؤون في صلاة التراويح يتصاعدون نغماً في قراءتهم في كلّ ركعةٍ، فاختلاف القراءة وتصاعد النغم بمنزلة بعثٍ لهمّة المستمع للفهم والتدبّر، فلا تكون الشعيرة مجرّد طقسٍ يُؤدّى، بل مساحة للتأمّل والتدبّر وفهم هذا الكتاب المبين الذي لا تنضب معانيه بمرور الزمن.

لم تحفظ لنا التسجيلات هذه الشعائر إلا أقل القليل، خصوصاً في تسجيلات العقد الأول من القرن العشرين/ كما ذُكِر. أغلب الظن، أن انتشار التشدد وتحريم الجمال ونشر العصبية الدينية، ورغبة إظهار الحضارة الإسلاميّة بمظهر التشدّد وسفك الدماء، هذه أسباب حرمت الناس من هذه العادات السمحة الباعثة للجمال، فلم توثّقها الإذاعات، وخبت أغلبها إلا ما رحم ربّي في بعض الطرق الصوفية وعند فئاتٍ قليلةٍ رفضت منهج مشادّة الدين. نحن الآن في زمنٍ نحاول فيه استمرار الحضارة العربية الإسلامية، فلتتضافر الجهود لإحياء نغمٍ يبعث الجمال والسماحة والبسمة والقرب من الخالق في النفوس. والحق أن كل شعيرةٍ من هذه الشعائر التي ذُكِرَتْ في عُجالةٍ تستحق فصلاً مخصوصاً في كتابٍ عن "النغم في رمضان"، وقبل هذا الكتاب، تستحق أن يُبحث عن أماكن استمرارها وتوثيقها وتعميمها قدر المستطاع بعثاً للجمال في النفوس وأملاً في إيجاد جديدٍ يُبنى على هذا الإرث الحضاريّ الضارب في جذور الجمال على مدى الأزمنة ■

ديوان بن حويرب
للشاعر حمد بن بخيت بن حويرب المنصوري

«سلسلة نماذج مختارة من إصدارات مركز زايد للدراسات والبحوث»

موزة عويص علي الدرعي

يسعى قسم الدراسات والبحوث في مركز زايد للدراسات والبحوث التابع لنادي تراث الإمارات، إلى تحقيق أهداف القسم من خلال الاهتمام بالنشر في موضوعات تتعلق بتراث وتاريخ الدولة بشكل خاص ومنطقة الخليج والجزيرة العربية عموماً، وقد ترجم المركز هذا الهدف إلى واقع ملموس، ونجح عبر مسيرته الطويلة في إصدار المئات من الكتب والدراسات في حقول التاريخ عبر مراحلة الزمنية المختلفة، وفي مجالات التراث الثقافي والشعر النبطي والفن والأدب، والتراث المادي والألعاب الشعبية والعمارة التراثية وغيرها، وتأتي هذه السلسلة المنشورة عبر مجلة تراث تحت عنوان «سلسلة نماذج مختارة من إصدارات مركز زايد للدراسات والبحوث»، لتستعرض نماذج من تلك الإصدارات المختلفة بهدف تعريف القارئ بمحتواها، ولإبراز دور المركز الثقافي وجهوده الكبيرة والمميزة في توثيق عناصر التراث الوطني والعربي والإسلامي، وفي الحفاظ على تاريخ وتراث الدولة من الاندثار عبر تلك الإصدارات المهمة التي تعكس رؤية ورسالة وأهداف المركز باعتباره مركزاً وطنياً رائداً في حفظ تراث الوطن وتاريخه.

في هذا العدد تستعرض السلسلة لواحد من الإصدارات الشعرية، التي يسعى مركز زايد للدراسات والبحوث من خلالها لتحقيق رسالة نادي تراث الإمارات في إحياء وحفظ التراث ونشره بين أفراد المجتمع والأجيال، لاسيما في مجال الشعر الشعبي، وذلك إيماناً منه بأهمية هذا الشعر باعتباره أحد مكونات الثقافة العربية والهوية الوطنية ومن أهم المصادر لتأريخ الأحداث والحياة ومعرفة الأنماط الاجتماعية السائدة. وتحقيقاً لذلك جاء إصدار هذا الديوان الشعري في كتاب بعنوان **(ديوان بن حويرب للشاعر حمد بن بخيت المنصوري)**، وقد قام الشاعر محمد بن يعروف بن مرشد المنصوري بجمع أشعاره ومراجعتها وتنقيحها وشرح لمعانيها.

ويعتبر هذا الإصدار من الإصدارات الحديثة التي صدرت عن المركز، إذ صدرت الطبعة الأولى منه في الأشهر الأخيرة من عام 2022م/1444هـ. ومن خلال هذا الإصدار وما سبقه من إصدارات في «سلسلة شعراء من الإمارات»، يمكن القول أن نادي تراث الإمارات ومن خلال مركزه الثقافي نجح في جمع شوارد الشعر النبطي، وإبراز شعراء المنطقة وتكريمهم وتمكين المهتمين والباحثين والمختصين في الشعر الشعبي واللهجة والبيئة المحلية من الرجوع إلى تلك الإصدارات. وإن هذا الهدف مازال مستمراً ضمن أهداف المركز وخطته في النشر للشعراء سواء بالتحقيق وجمع الأشعار في حياتهم، أو بعد وفاتهم أو من خلال الورثة وأبنائهم الذين يسعون لحفظ ذلك الإرث والموروث الأدبي والفكري والشعري لذويهم وحفظه من الضياع، والمساهمة في توثيقه ونشره في دواوين شعرية كالديوان المختار من ضمن إصدارات المركز ضمن هذه الصفحة في هذا العدد من السلسلة المختارة.

نبذة مختصرة عن الديوان وصاحبه:

الديوان الشعري الذي بين أيدينا يقع في (96) صفحة، ويتكون من مقدمة وقسمين، القسم الأول تناول قراءة لقصائد الديوان قدمتها وأعدتها الباحثة في التراث الشعبي الشاعرة لجينة علي نهان. أما القسم الثاني فقد تناول قصائد الديوان التي قُسمت على ستة أبواب ذات مواضيع محددة - سيتم التطرق إليها في السطور اللاحقة -. وصاحب هذا الأشعار المجموعة بين دفتي هذا الديوان، هو الشاعر حمد بن بخيت بن حويرب المنصوري، المولود في منطقة الظفرة في عشرينيات القرن الماضي في حدود عام 1920 تقريباً، وعاش طفولته في تلك المنطقة وبين محاضر ليوا والحمرة، فشرب من مياه أبارها وارتحل مع الركبان وهم يضعنون إلى الأراضي الخصبة التي يتوفر فيها الماء والكلأ. فعاش الشاعر كما عاش آباؤه وأجداده في المحاضر والواحات. ومن هذا المحيط تولدت أخلاقه البدوية المبنية على الفضائل الكريمة. وعمل الشاعر في فترة لاحقة في جزيرة داس وفي عدد من الشركات ومن ضمنها شركة التنقيب عن النفط في أبوظبي. وتوفي شاعرنا في أول التسعينيات من القرن الماضي. والجدير بالذكر أن الشاعر نظم الكثير من الأشعار، ولكن بسبب عدم تعلمه للقراءة والكتابة فقد ضاع أكثر من ثلاثة أرباع قصائده، ومن المؤسف أيضاً أنه لم يكن هناك من دون أشعاره، إلا بعض التسجيلات التي وجدت فيها بعض القصائد ومن بعض الرواة الذين حفظوا بعض قصائده والتي تم التحقق منها ونشرها ضمن هذا الديوان ليبقى ذخراً معرفياً للأجيال القادمة .

وتصدرت الصفحات الأولى من هذا الديوان صورة للشاعر حمد - رحمه الله - وجاء أسفل عنها الأبيات الأشعرية التالية:

ياللـــــي تقـــــرأ الديـــــوان
ادعولـــي ياللـــي تقرونـــــه
بالجنـــــة طيـــب المكانـــي
جنـــات وحـــــور مزيونـــــه

ينبـــــت فيهـــــا الزعفرانـــــي
والقصـــــور إللـــي مسكونـــــه

قراءة شعرية مختصرة في الديوان ومحتواه:

سبق القول، أن هذا الديوان الشعري يتكون من قسمين:

القسم الأول جاء بعنوان: قراءة في ديوان «بن حويرب» للشاعر حمد بن بخيت بن حويرب المنصوري، وكانت هذه القراءة من إعداد الشاعرة لجينة علي نهان، وفيها تناولت الشاعرة مِهاد حول الشعر النبطي والأغراض الشعرية التي تناولها الشاعر، فضلاً عن بعض الوقفات حول ديوان بن حويرب والتي تمثلت في: اللغة والتراكيب، والموسيقي والعاطفة.

اما القسم الثاني فقد «تناول قصائد الديوان» والتي قسمت على ستة أبواب، جاءت كالتالي:

• المدح.

وقد اشتمل على خمس قصائد، جاءت أغلبها على لحن الهجيني والفريسني والمسحوب. وقد قالها الشاعر في مواقف عدة، وفي شخصيات متعددة ومنها قصيدة امتدح الشاعر فيها الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - تغمده الله بواسع رحمته والملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود - رحمه الله - وكذلك قصيدة في مدح قبيلة المناصير الكريمة، وقصيدة في سليمان الخنيني نظير فعله الكريم وموافقه مع الأرامل والمحتاجين. وأيضاً قصيدة شعرية قالها مدحاً الكويت وحاكمها وذلك أثناء ذهابه إلها في فترة علاجه فيها، ومنها هذي الأبيات وهي على لحن الفريسني:

الكويـــت المسمـــا ديـــرةٍ في جزيـــرة
ديـــرة الشيـــخ جابر عـــارفٍ كل فنـــي
أَشبَـــع إللي ضعيـــف دوم يتبـــع بعـــيره
قـــده مـــالك عمـــاره والحمامـــه تغـــني
كـــل ما ضاق صـــدري قلـــت هـــات أَتعميره
كود شـــرب الزقـــاره يـــبري الهـــم عـــني

أما في مدح الشيخ زايد - طيب الله ثراه - فقال القصيدة التالية وهي على لحن الهجيني، ومنها الأبيات التالية:

وزايـــدٍ منســـاه يومـــه مـــا نســـاني
حكـــم جـــده م العصـــور الأَوليـــه
الشجـــاع ابن الشجـــاع ابن الحصـــاني
ومـــن حكـــم مثلـــه فياحيـــك وحيـــه
بـــن حويـــرب ذب في راس البيـــاني
ودام زايـــد حي لاتحـــزن عليـــه

وفي قبيلته نظم قصيدة تفوق أبياتها الخمسة والعشرون بيت،

جاء منها الأبيات التالية وهي على لحن الهجيني والفريسي:

تكفـــون يـــا لابـــتي باجرلـــي ونـــه
ونـــت صويبٍ شكـــى حـــرا للصـــاويي
عيـدٍ مبـــارك على عيـــون يشوفنـــه
على المناصـــير ربعـــى منقـع الطـــيي
لي جـــاء نهـــار الملاقـــي ما بهـم هنـــه
لـــي حولـو عند طرعـــات الحنـــازيي

• **النقد.**

اشتمل هذا الباب على سبع قصائد شعرية، تناولت جوانب عدة من حياة وسلوك البشر ومواقفهم وظروف الحياة المتقلبة، وكانت تلك المواقف قد عايشها الشاعر وتعرض لها فكانت ردت الشاعر عليها من خلال ما جادت به قريحته من شعر. وكانت أغلبها على لحن المنكوس والهجيني والسامر، ومن تلك المواقف، أن شخصاً اسمه «سيف» أشار على الشاعر حمد أن يشتري سيارة «شفرولية»، ولكن الشاعر لم يُجد التعامل معها، فقال الأبيات التالية وهي على لحن الهجيني :

الشفـر عزمـــه كمـــا عزم الهدانـــي
موتـــرٍ مـــا خـــسّ منـــه في الجزيـــرة
اشتريتـــه لاهـــدا مـــن حدانـــي
لاهـــدا الله سيـــف وإللي يستشـــيره

ومن المواقف التي جادت فيها قريحة الشاعر أيضاً أنه في يوم من الأيام كان يقف على الطريق الذي تسير عليه السيارات وكان يُأشر على أصحابها للوقوف له، ولكن لم يتوقف له أحد، فقال هذه الأبيات وهي على لحن الهجيني:

قابض الرستـــه ولانـــيب امهمومـــي
مـــات جـــدي والمواتـــر مأركبنـــه
دايـــمٍ اللاش مـــا يقضي اللازومـــي
يقطعـــك ياكـــل شيءٍ فيـــه منـــه

• **المساجلات.**

وضم هذا الباب عدداً من المساجلات الشعرية بين الشاعر وشعراء آخرين، فجاءت قصائد هذا المحور متنوعه في مواضيعها وتحمل العديد من القيم والمعاني وتعبر عن أحوال تلك الفترة وطبيعة الحياة وحياة البادية على وجه الخصوص. وأغلب تلك القصائد كانت على لحن المنكوس والهجيني وكذلك حربية المناصير، ومنها ما داربين الشاعر حمد بن بخيت والشاعر هندي بن هلال القضام المنصوري، إذ تُشير الروايات أن شاعرنا حمد حل ضيفاً على بيت هندي بن هلال ولم يكن موجوداً، ولكن زوجته كانت موجودة فقدمت له القهوة والسمن والتمر واللبن وقالت تفضل يا حمد وسامحنا لو أن رجل البيت موجود لم يكن هذا غدائك. فأنشد شاعرنا قصيدة طويلة لم يُعثر منها إلا على أبيات قليلة، عبر فيها عن عدم رضاه، وقال في قصيدته وهي على لحن حربية المناصير:

بيـــت اشعرانـــا بـــه اظـلال ومزلّـــه
بـــه ظـــلال وبـــه يحطـــون زادي
كنهـم مـــا ربعـــوا ذا الصيـف كلـــه
لالـــبن والدهـــن من دهـــن البلادي

إلى أن قال في آخر القصيدة:

جعـــل دارٍ جابته تقلـع محلـــه
صـــوب داره ذيـــك لي فيها الريـــادي

فرد الشاعر هندي بن هلال القضام المنصوري مستنكراً على الشاعر حمد بقصيدة وهي على لحن الهجيني قائلاً:

ياهـــل العـــيرات نبغـــي أن شـــل شلـــه
اسيعوهـــا لـــي ظهـــرتوا م البـــلادي
رددوهـــا في حمـــد من جـــاه قلـــه
ويـــش حـــده ذمنـــا في كـــلّ وادي
يـــوم جـــاء في بيتنـــا كنـــه محلـــه
ماحشمنـــا في الشعر وأصبـــح يشـــادي
بيتنـــا بـــين العـــرب كـــلٍ يدلـــه
ملقـــى للضيـــف وإللـــي جـــاه حادي

• **الإبل.**

شكلت «سفينة الصحراء»، جانب مهماً وجزءاً لا يتجزء من حياة الشاعر، وكانت حاضرة في وجدان الشاعر، فتغنى بالإبل والناقة، ومن القصائد التي قالها الشاعر في الإبل التالية وهي على لحن السامر والمنكوس:

يقولـون يابن حويـــرب يزمـــن الونـــات
ولا خلـــي الونـــه وأنا كنـــت راعيهـــا
تفرايـــنا في البـــل وركـــب لمريكيـــات
ويـــا زين شـــوف البـــل ويازين طاريهـــا
ويـــازين شوف البـــل إلي عادهن زعـــلات
ترازم صغـــار الشـــول تبغي مشاهيهـــا
توافـــق لهـــن بدوٍ شديـــدٍ على اليبات
توحّى لقولـــة ديه مـــن عند أهاليهـــا

• **الهجن.**

لم يكتف الشاعر بنظم القصائد في الإبل فقط وإنما اشتملت قصائده على مجموع من القصائد الشعرية في الهجن (وهي الإبل المخصصة للسباق)، والتي كانت ولا زالت محط إهتمام الشعراء والدول الخليجية عامة ودولة الإمارات خاصة والتي تُخصص لها العديد من المهرجانات والمزاينات والمسابقات. وهنا نستعرض القصيدة التي قالها الشاعر بن حويرب في ذلوله التي اشتراها وهي من خيار الهجن الأصايل، واصفاً لها ولصفاتها. والقصيدة على لحن الهجيني ويقول فيها:

خبـــة العفنـــة تقـــرّب كـــل لا لـــي
مـــا حـــلا مروحهـــا عقـــب اظهريـــه
لـــي ركبـــت بكورهـــا كلشٍ طرالـــي
كـــل هاجـــوسٍ طـــرا يطـــري عليـــه
لـــي يعـــذرهـــا تـــراه يـــذم حالـــي
لا يشرهـــني ولا يشـــره عليـــه
المرمـــة يـــا مـــرم ام الغزالـــي
والنحـــر يشـــدي لبـــاب القيصريـــة

• **الغزل.**

وفي هذا الباب، تمكن جامع هذا الديوان الشعري من أن يدون لمجموعة من القصائد الغزلية، التي نظمها الشاعر حمد بن بخيت بن حويرب المنصوري، وجاءت أغلبها على لحن الردحة والفريسي والمسحوب والمنكوس والسامر. ومنها هذه القصيدة الوجدانية التي قالها الشاعر وهي على لحن المنكوس، فأنشد قائلاً:

ويـــودي علـــى بدوٍ مشايهـــو المحـــواز
عليهـــو عيونـــي مـــا تونـــي حضـــايها
يقولون حـــالك شـــين واقول ما يعتـــاز
كلت حالـــي الونـــه وهذي سبايهـــا
وأنا بـــي صـــوابٍ لو تعاليت في شـــيراز
علاجـــي مع إلي ثومـــة القلـــب ياذيهـــا
شعفـــني وليفي مثلما يشعف الممتـــاز
يديد المكينـــة سايقـــه ما يروف إيهـــا
وأنا في ضمـــيري رســـتت قزها القـــزاز
غدت رســـتتٍ كل المواتـــر تسيرابهـــا

وبذلك يمكن القول أن هذا الديوان الشعري يشكل صورة صادقة للبيئة التي ينتمي إليها الشاعر، ويوثق لأحوال ومشاعر الشاعر الخاصة وما يطرأ على نفسه من تقلبات وعواطف متباينة ومواقف متعددة جسدها الشاعر في قصائد شملت تلك الموضوعات المتعددة في المدح والنقد والغزل والمساجلات وغيرها. والتي من خلالها ظهر واضحاً وصفه للحياة البدوية وتعلق البدوي بالإبل والأهتمام بها. متضمنة العديد من المعاني والحكمة والفنون الغنائية والحركية. وقد جاءت أغلب الأشعار على لحن السامر والمنكوس والمسحوب والهجيني والفريسي والردحة والحربية. وامتازت قصائد الديوان بجزيل اللفظ وقوة العبارة وحسن الوصف، كما كانت تضج بالأفعال والحركة التي تمنح النصوص الشعرية نبضاً حقيقياً، هذا بالإضافة إلى استخدام الشاعر لكثير من مفردات الحداثة التي بدأت تدخل على البيئة الإماراتية مع بدايات التطور والنهضة الحديثة، مما يجعل هذه المادة الشعرية مجالاً لتمكين الباحثين في الشعر الشعبي واللهجة والبيئة المحلية من الرجوع إليها والإستفادة منها في إعداد الدراسات والأبحاث التراثية والتاريخية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها من الجوانب ■

* مركز زايد للدراسات والبحوث

نجم القصيدة الشعبية

الشاعر كميدش بن نعمان الكعبي

مريم النقبي

غيب الموت في الثاني عشر من فبراير الماضي الشاعر الإماراتي الكبير كميدش بن نعمان الكعبي، وهو نجم القصيدة الشعبية في الإمارات والذي ساهم لعقود طويل في رفد الساحة الشعبية بأعذب القصائد وأجمل الأبيات وأروع المعاني .

ولد الشاعر كميدش بن نعمان في منطقة «الهير» القريبة من مدينة العين بإمارة أبوظبي، وتلقى علومه في المدارس الحكومية، ثم دخل في سلك الشرطة وأصبح ضابطاً فيها، وعمل في عدّة مناطق في الدولة. شارك الشاعر في الأمسيات الشعرية المقامة في مدينة العين وبعض مدن الإمارات، كما كانت له مشاركات عديدة خارج الدولة في مصر، وسلطنة عُمان والأردن وغيرها. وقد نشر شاعرنا الراحل قصائده في العديد من الصحف والمجلات المحلية، كما تغنى بقصائده نخبة من فناني الإمارات، ومنهم علي بن روغة وميحد حمد وخالد محمد.

عاصر الشاعر كميدش رحمه الله كبار شعراء الزمن الجميل وكانت له العديد من المساجلات الشعرية معهم، الأمر الذي أسهم في تحفيزه إلى أن يبدع ويصوغ أروع القصائد والأشعار، وتميز بأسلوبه الأدبي الجميل، ليس هذا فحسب، بل مزج في شعره العامية البحتة وشذرات من الفصحى وملامحها بحروف شعرية استثنائية، واشتهر بقصائد الردح والونة. صدر له ديوان «كميدش بن نعمان» عن نادي تراث الإمارات وديوان «بندب نسيم الصبايا» عن دار التراث الشعبي للدكتور راشد المزروعي.

وقد نالت قصائده شهرة واسعة خاصة المغناة منها مثل انا الدنيا حدتني من تجاربها، باتت دموعي، بندب نسيم الصبايا، أحبك والمحبة لها مآسيها، حسين الهايه وغيرها.

من أشهر قصائده أنا الدنيا:

انـا الدنيـا سقـــتني مـــن تجاربهـــا
سقـــتني الراح والضيقـــه والانكالـــي
صفـــت لـــي يوم دنّـــت لـــي ركايبهـــا
روتـني عقـب طيـــب الانـــس الاهوالـي
بحيـلات الغـــدر تغـــدر بصاحبهـــا
تراهـــا لو صفـــت ترميـــك في التالـــي
وكـم عاشـق صفـات الحـــب يكسبهـــا
ودانـــــات اللوالـي مِ الغـــزر مالـــي
تمـــر دهـــور وقتـــه مـــا يحـس بهـــا
مريـــحٍ مستريـــحٍ خالـــي البالـــي

وانـا الشاجـي اخـذ ابيـــات واكتبهـــا
وانـادي صاحـــبٍ مـا ينتظـر حالـــي
واقـــول العـــون يا لمضنـــون نطلبهـــا
مـــن اهـــل العـــون نبغي بـــس الاوصالـي
وصـــالك فرحـــة العيديـــن نحسبهـــا
ولقاكـــم ليلـــة القـــدري تهايالـــي
تـــرا فرقـــاك تغـــنيني عواقبهـــا
هـــني انـــت وانـا بحســـرات تبقـى لـــي
وروحـــي باللظـــى يـــزداد لاهبهـــا
لهـــيب الحـب وســـط اليوف شعالـي

وقصيدة أحبك :

أحبـــك والمحبـــه ألهـــا مراسيهـــا
حـــرام الروح يـــاسيـــدي تأسّيهـــا
تسهّرهـــا يلـــي مـــن حنـــدس الداجـي
وتتركهـــا وحيـــده فـــي مآسيهـــا
حبيـــبي الروح في الجثمـــان مـــا حلـــت
وحبـــك لـــي نـــزع روحـــي وكرسيهـــا
تشـــاوق لك مـــع العنقـــا ترفـــرف لك
وأنتـــــه ياحبيـــب الروح ناسيهـــا
كـــذا تفعـــل ياخلـــي يوم تتولـــى
بروح ما لهـــا غيـــرك يقاسيهـــا

بـــروح الود يـــا المحبـــوب عاشرنـــي
حنانـــك والوفـــا روحـــي يغذيهـــا
وعـــادت المحـــب المخلـــص الوافـــي
اذا عاهـــد مـــوده عهـــود يوفيهـــا
منايـــه ومطلـــبي لحظـــة ملاقاتـــك
بليلـــه هاديـــه يطيب السمـــر فيهـــا

وقصيدة باتت دموعي :

باتـــت دموعـــي فوق خـــدي سايلـــه
ماحـــف ياريـــها يلـــين الصبـــح بـــان
اسهـــرت ليلـــي والعوالـــم ذاهلـــه
وارقـــت أهلـــي واقربايـــه والـــيران
عوقـــي غـــبي وايهـــاد قلـــبي طايلـــه
متغلـــق عوقـــي ولا ســـاربهـــوان
عوقي يعايـــي بالطـــبيب ويعضلـــه
حـــب الحبيـــب لابســـني لبـــس جـــان
والحـــب لـــي طـــول بعاشـــق يقتلـــه
كم عاشـــق يلي رمـــي تحـــت الدفـــان
هـــاذي الســـنـــه يزداد قلـــبي وايلـــه
ويـــون في العـــبرات عشـــرٍ في ثمـــان ■

* شاعرة وباحثة إماراتية

ذكرياتها لا تزال طازجة..

ناصر الظاهري: «العين» مدينة الموروث والاستقرار.. والرزق الدَّائم

الفاضل أبو عاقلة

تتكئ التجربة السينمائية للأديب والمخرج الإماراتي ناصر الظاهري، على النبش في التراث الباطن أو المنسي، ليستنهض منه الحقيقي والجوهري، مُتخذاً من الجرأة لساناً يروي، ويستعيد ذاكرة الفولكلور والمكان، اللذين يوظفهما لإنتاج لغةٍ لسينما تناظر الواقع. يؤمن الظاهري بأهمية السينما بوصفها جسراً للتواصل الإنساني والحضاري، ويفتح بوساطتها كوَّة تُطل على الفولكلور والتراث الشعبي وحكايات الناس في دولة الإمارات العربية المتحدة بمختلف بيئاتها، كما يقدم التنوع وقوداً يثري التجربة الإبداعية، وذلك على عكس طمس الاختلافات وتغليب السائد، اللذين يُفقران الإبداع، ويُحدّان من قدرته على النظر والتعمق في تحولات المجتمع واعتقاداته.

في هذا الحوار يتحدث ناصر الظاهري عن قضايا كثيرة، يتداخل فيها الذاتي بالموضوعي، والمكاني بالزماني، والشعبي بالمؤسساتي، والثقافي الماضوي بالمنجز المدني الآني، مع تركيز خاص على مدينة «العين»، وما تحمله من «سِيَر الماء والنخل والأهل»، مُسبقاً عنها ومُلحقاً بها «سيرة الشيخ زايد ودوره» في نهضة الإمارات كلها، ومنتهياً بالحديث عن فيلمه الأخير «حجر الرحى»، وعن هموم السينما في الإمارات أيضاً.. وفيما يلي نص الحوار:

يحدثنا ناصر الظاهري عن بدايات حياته ونشأته في مدينة العين، قائلاً: «ولدتُ بمدينة العين في فترة بداية التعليم النظامي، وكانت المدرسة على بُعد خطوتين من بيتي (المدرسة النهيانية)، ومن المشاهد النادرة والراسخة في ذاكرتي، تفاوت أعمار طلاب الفصل الواحد، فتجد بعضهم أطفالاً وآخرين وصلوا مرحلة البلوغ.. وقد يصل فرق العمر بين طالب وآخر إلى عشر سنوات».

ويضيف: «كانت المدرسة بدائية من حيث التأثيث والمرافق، وفي بعض الأحيان تضيق الفصول فتُدق على جوانبها خيام، أو يُبْنى عريشاً، ولم يكن للمدرسة حوش يحدها، بل مفتوحة على الفضاء، حتى إن المدرس يخرج من الفصل الطِّيني إلى الخيمة وبيت العريش».

ويذكر الظاهري: «أن بجانب المدرسة النهيانية، افتتح أول مستشفى سمي «كِنْد» وتغير اسمه لاحقاً إلى «الواحة» ثم أرجع إلى اسمه الأول «كِنْد»، وكانت تديره بعثة تبشيرية في أول الأمر جلبها الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان «طيّب الله ثراه» ـ حاكم المنطقة الشرقية وقتها ـ للطبابة في العين».

ما لا ينساه الظاهري، هو: أن أول مَنْ علمه مبادئ القراءة والكتابة، خاله سعيد بن هادي، كما جاء في حديثه: «تعلمت في المدرسة النهيانية للصفين الأول والثاني، ولكن بعد زيادة عدد الطلبة، صاروا يقسموننا إلى فترتين صباحية ومسائية، ثم انتقلت إلى مدرسة «عمرو بن العاص» ودرست في الفترة المسائية، وقتها كان هناك تعليمٌ موازٍ في الكتاتيب لحفظ القرآن وتعلّم تجويده، وقد حفظت القرآن كاملاً وأنا في المرحلة الابتدائية، ثم انتقلت إلى أبوظبي والتحقت بمدارس جديدة كانت تسمى «مدارس الثقافة العسكريَّة»، وقد أنشأها الشيخ زايد أيضاً، واستمد فكرتها من مدارس كانت في الأردن، وهي تجمع بين التعليم العسكري والمهني والنظامي».

في العين.. أوائل المنجزات

يرى ناصر الظاهري أن لنشأته تأثيرها وانعكاساتها على تكوينه الإبداعي وأعماله الأدبية والسينمائية، حيث يقول: «في المنطقة التي نشأت بها، وهي قلب مدينة العين، أُقِيمت أول مدرسة، وأول مشفى، وأول مبنى بريد، وأول محطة وقود وكهرباء، وأول دار سينما، وغير بعيدٍ عنها كان السوق، فكل هذه الأشياء كانت تحفزني على التأمل ومراقبة الأصوات وانطباعات الوجوه، وهي أمور فيما بعد استثمرتها في العمل القصصي الإبداعي أو السينمائي، وكل أولئك البشر كنت أراهم بشكل يومي، لهم حكايات تنطبع في الذاكرة».

ويشير الظاهري إلى أن مدينة العين تميزت بطابعها، كونها واحة مجاورة للصحراء، فيها حياة البداوة والاستقرار الحضري والزراعي أيضاً.. وهناك جبال تحيط بها من جهة أخرى، لذا فيها هذا التنوع المميز؛ استقرار الفلاح، والرجل الجبلي، ورجل الصحراء، وهي على بُعد 160 كيلومتراً تقريباً عن البحر أيضاً، إن كان باتجاه أبوظبي أو دبي أو الباطنة في سلطنة عُمان، ولكن هذا لم يمنع سكانها الذهاب إلى البحر ليتقنوا فنونه في ما يخص الغوص واستخراج اللؤلؤ، لأن الحياة كان فيها شظف وشح في كل شيء، لكن أهل العين لم يذهبوا إلى العمل في الدول المجاورة مثل أهل السواحل، العين مدينة كان بها الرزق دائماً، حيث الماء والنخل والرعي. يصف الظاهري مجتمع العين قديماً بالمستقر،

وهذا ما كان له انعكاسات اجتماعية إيجابية. وعن ذلك يقول: «مثلاً لا يوجد في عائلتنا من ذهب للعمل خارجاً حتى قبل النفط، كانوا يمتهنون أعمالاً شاقة، ربما تُدِرُ ما يمسك الرمق.. كانت القناعة تعلو الوجوه، حيث لا نجدها اليوم في المجتمعات الغارقة في الاستهلاك، ففي العين يكفي أن يكون لديك النخل، بمعنى البستان، حتى يصير لديك كل شيء، من مثل: الحمضيات، والنخل، والعسل، بالإضافة إلى الرعي.. لقد كانت العين مجتمعاً مكتفياً». يضيف الظاهري: «أفتقد العين القديمة بلا شك، وتبقى ذكريات الطفولة طازجة، ولا أزال عند دخولي إليها أشعر بالطمأنينة ولا أدري ما السبب، ربما هو ارتباط وجداني، آتٍ من العادات القديمة كان عندما يولد الطفل يُحلق شعره في الأسبوع الأول ثم يدفن تحت نخلة تزرع حديثاً وتسمى باسمه.. لهذه العادة دلالاتها في الارتباط بالأرض والنخل والمدينة».

الماء والنخل.. والأهل

يركز الظاهري في أفلامه على التفاصيل التي تمثل نواة للذاكرة الجماعية التي تشغل أحياز الواقع الآنية، كالهويات، والانتماءات الثقافية، وفقاً للتنوع البيئي في دولة الإمارات.

في فيلمه التوثيقي «في سيرة الماء.. والنخل.. والأهل» يُسلط الظاهري الضوء على ثلاثة مكونات أساسية لإنسان الإمارات قديماً، وتحضره، وأسباب بقائه، وعن ذلك يقول: «لن تجد في مشاهد الفيلم عمارة زجاجية حديثة، أو مبنى شاهقاً، ولا إسمنت، ستشاهد المعطيات الأولى لتشكل الإنسان والحضارة فقط خصيصاً في مدينة العين، التي تُعد تاريخياً مفترق طرق للناس الذاهبين شرقاً وغرباً؛ الماء كان أساس الحياة والاستقرار، لذا شُق الحجر لأجله ثم يأتي النخل، الذي كان ولا يزال يجود على أهل الإمارت بخيره، وبعدهما الأهل وما لهم من حكايات».

لكن استحضار السينما لأوجه التراث في الإمارات هل يحقق غايته؟.. يجيب الظاهري: «في الحقيقة لا، وحتى المحاولات على قلتها كانت لغايات توظيفية فقيرة وبعيدة عن العمق؛ مثلاً فيلم «في سيرة الماء.. والنخل.. والأهل» صوَّرتُ ولأول مرة جلسات «زار»، وهو على الرغم من التمسرح فإن جلساته تُعد مظاهر اجتماعية، أبرزت خصوصية «عالم الزَّار» في الإمارات بدقاته ونقراته وعباراته الخاصة، والتي بلا شك تختلف عن غيرها في أماكن أخرى».

من وراء ذلك كله هدف يسعى إليه ناصر الظاهري، جاء واضحاً في قوله الآتي: «عَمَلُنا على التراث يجب أن يُعرف بهذه الخصوصية، يجب رصد الاختلاف والجرأة، لذلك لم أخجل من عرض الزار ليس بداعي الفُرجة بل لأنه شيء موجود ببساطة، وطقوس «حفلات الشواء» في عيد الأضحى أيضاً، التي تكاد مدينة العين أن تنفرد بها، اسمّيه «التَنُّور الجماعي»، لهذا ذهبت بعيداً في العمق، وتساءلت: لماذا هذا التنور الجماعي؟ وما هي الأغنيات التي تصاحبه؟.. هنا أرى أنه على أي عمل سواء أكان سينمائياً أو أدبياً الذهاب عميقاً في تشريح التراث وعدم أخذه بشكل سطحي».

من ناحية أخرى، يؤكد الظاهري أن السينما أداة ناجعة للحفاظ على التراث وتوثيقه، وبمقدورها أن تأخذه بعيداً في زمن الصورة، فيقول: «المهرجانات التراثية أو الأعمال الأكاديمية تظل عملاً تعريفياً فقط، تعرض النموذج ولكن عند الاستفسار أو طرح السؤال: لماذا؟ تقف عاجزة عن الذهاب عميقاً في تفاصيل التراث». ويوضح ناصر الظاهري مشاكل العمل السينمائي في دولة الإمارات، قائلاً: «مرَّ العمل السينمائي في دولة الإمارات بمراحل كثيرة، ولكنه لم يستقر، ولا يتناسب مع نهضة الدولة في مختلف المجالات، إذن ثمَّة خلل في هذه المسألة.. وقد نادَيْتُ مراراً: نحن نحتاج إلى كوادر إماراتية في العمل السينمائي، ليس من المعقول ألا يوجد خبير تجميل إماراتي متخصص!.. في بعض الأحيان لا تجد نجماً بسبب قلة الكوادر، صحيح هناك محاولات للعمل الخليجي المشترك، ولكنها تقليد للأعمال المكسيكية، وتعمل على توليفة ترضي المجتمعات الستة».

من جانب آخر يبيّن الظاهري افتقاد العمل السينمائي في الدولة «الطابع المؤسساتي»، وعن ذلك يقول:

«يمكن للعمل الفردي أن ينجح ويشارك في مهرجانات ويحصد جوائز دولية، لكن إذا تكلمنا عن الاستمرارية وصناعة السينما فالأمر يختلف.. هناك الحاجة إلى الكثير، الجمهور لدينا مختلف أيضاً، في مصر مثلاً نسبة نجاح الأفلام كبيرة نظراً لعدد السكان الذين تجمعهم ثقافة واحدة، أما في الدولة هنا عليك أن تقدم وشائج تجمع مختلف جنسيات وثقافات سكانها».

يضيف الظاهري: «من خلال السينما يمكننا توسيع الصورة النمطيَّة عن الإمارات وصبغها بشمولية أكبر، المباني الجميلة والبنية التحتية المتقدمة يشاهدها الأجنبي يومياً لذا تفقده مُتْعة الدهشة، ولكن وعبر السينما يمكننا أخذه ودعوته إلى مساكن «الشُّحُوح» في أعالي الجِبال ليرى المساكن المبنيَّة من الحجر».

هنا يتساءل الظاهري: لماذا التابوهات ما زالت تؤثر في السينما؟.. ويجيب قائلاً: «الشعراء النبطيُّون يسمون الأشياء بأسمائها، ويصفون جسد المرأة بكل حرية في نظم شعري مقبول، وهذه الحرية لا يتمتع بها النص الأدبي أو العمل السينمائي، لأن الرقيب في انتظاره بالشطب والتعديل.. المعضلة هنا أن الرقيب لم يتطور ويواكب الثورة الرقمية التي تجاوزت الرَّقابة».

حجر الرحى

ولتوضيح رؤية ناصر الظاهري حول الفن، أعود إلى عمله السينمائي الأخير «حجر الرحى»، فأسأله عن اسم الفيلم ودلالاته: لماذا اخترت اسم «حجر الرحى»؟

يجيبني قائلاً: «حجر الرحى لا تُدار إلا لتغيير جذري وكبير، مثل قولنا: «دارت رحى الحرب»، أو للانتقال من حالة إلى أخرى لا تشبهها؛ المغفور له، الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - منذ توليه حكم مدينة العين عام 1946، حرَّك رحى التغيير في سبيل بناء الإنسان والوطن، ونهض بالمنطقة الشرقية من إمارة أبوظبي في وقت قياسي، حيث ألغى احتكار الماء، واستدان من كبار التجار ليوفِّر المياه مجاناً للسكان ومزارعهم، وجلب الأطباء والمعلمين من الخارج، ووجّه ببناء السوق المحلي وغيرها، إذْ رغم الظروف الصعبة وشح الموارد فإنه استطاع استكمال مشاريعه في خدمة العين وأهلها.. لذا كانت أول مَنْ رأت الأحلام».

يضيف ناصر الظاهري: «هذا الفيلم يُوثّق حياة الشيخ زايد والتحديات التي واجهت الآباء المؤسسين في حياتهم قبل النفط، وكيف استطاع ذلك الرجل الاستثنائي أن يصنع المعجزة، ويؤسس دولة متقدمة ينعمُ أهلها بالرخاء والاستقرار».

هنا يشير الظاهري إلى أن العمل على إنتاج الفيلم، وهو من إنتاجه، استغرق عامين، بين الكتابة والإعداد والتحضير والبحث الأرشيفي، إلى جانب التصوير مع 40 شخصية عرفت المغفور له الشيخ زايد عن قرب، وعايشت تفاصيل حياته.

للعلم، فقد شارك في فيلم «حجر الرحى» 15 شخصاً من مختلف بلدان العالم، وترجم إلى الإنجليزية والفرنسية والإسبانية لعرضه في عدد من الدول، وفي العديد من المهرجانات السينمائية الدولية ■

* صحفي وإعلامي من السودان

أميرة الشعراء تتألق

فاطمة حمد المزروعي
كاتبة وباحثة من الإمارات

اهتمت إمارة أبوظبي بالثقافة والتراث بوصفهما جزءاً أصيلاً من الهوية، وهذا ليس وليد اللحظة ولا فعلاً طارئاً، إنما كان جزءاً من خطتها الاستراتيجية 2030، التي امتدت فيها الأجندة الثقافية عبر سنوات، فتجلت بالمبادرات الثقافية الكبرى التي شملت الأنشطة الثقافية، والتراثية، والرياضية، والفنية، غطت مختلف مدن الإمارة. كانت الفعاليات المختلفة تبث الحياة والحيوية في نهارات المدن ولياليها؛ لتخرج بالفعل الثقافي من نطاق ضيق محصور بالمكان والزمان الذي تقام فيه الفعالية إلى فعل ثقافي اجتماعي، أضف إلى ذلك أن الأماكن التراثية، مثل: قصر المويجعي، وقصر الحصن، ومتحف اللوفر أبوظبي صارت مشاركاً فاعلاً في هذه المبادرات. الأمثلة كثيرة، لكن اكتفي بحدثين ثقافيين، أولهما: مهرجان العين القرائي في نوفمبر الماضي، الذي نظمه مركز أبوظبي للغة العربية. المهرجان جاء في حلته الجديدة، حيث غيّر هويته، بعد أن كان مسمّاه معرض العين للكتاب، فقد تجاوز فكرة معرض كتاب فحسب، ليحتفي بالمبدعين الإماراتيين والعرب، في مجالات الثقافة والتراث والفنون المختلفة، ما جعل أهل مدينة العين يتناغمون معه، يحضرون أنشطته المسائية، ويجتمعون بأصدقائهم من مختلف إمارات الدولة، حيث تنوعت فعالياته ما بين عروض موسيقية من مختلف دول العالم، وعروض مسرحية، إضافة إلى فعاليات الأطفال، وورش فنون وحرف متنوعة، ومسابقات مختلفة، ما أسهم في خلق أجواء عائلية متنوعة خلال الفترة المسائية في ساحات «استاد هزاع بن زايد». تميزت ببرنامج «الكلمة المغناة»، الذي ربط المدينة بشعرائها من أهل العين، من خلال تراثهم الشعري المغنى، منهم شعراء راحلون، ومنهم مازالوا يرفدون عالم الأدب بجديده.

برنامج «الكلمة المغناة» استقطب عدداً لا بأس به من سكان الإمارات الأخرى، وما لفت انتباهي قول إحدى السيدات التي حضرت من دبي، هذا البرنامج لامس شيئاً في داخلي، ذكرني بجزء من شبابي وسقى مطراً ناعماً على جزء من ذكرياتي. قولها يدل على مدى تأثير الآداب والفنون على حياتنا، بما تحمله من جمال وقيم رفيعة المستوى. وثانيهما: الفعاليات الكبرى في إمارة أبوظبي في برنامج أمير الشعراء، الذي يبث في قناة أبوظبي الأولى وقناة بينونة، الذي أعاد للشعر رونقه على مستوى الجماهير، ليتحولوا من متلقين سلبيين إلى إيجابيين، ليس من خلال التفاعل وحده، وإنما من خلال اختيار شاعرهم المفضل. وهذا هو الموسم العاشر للبرنامج الذي انتهي في يوم 8 - 3 - 2023، ومن محاسن الصدف أن يوافق يوم المرأة العالمي فوز امرأة بإمارة الشعر، لأول مرة في تاريخ البرنامج، حيث فازت الشاعرة عائشة السيفي من سلطنة عُمان بالمركز الأول، وهو فوز مستحق وعن جدارة، فوز أثبتته من خلال ما قدّمته من قصائد في البرنامج، من خلال التحديات مثل الارتجال ببيت خلال دقيقة، مباشرة على خشبة المسرح. وتوجت أميرة للشعراء، فلبست بردة الشعر، بلونها الفاتح الجميل، الموشى بالخيوط الذهبية. وازدانت بخاتم الإمارة كأول امرأة عربية تحصل على إمارة الشعر. الوصول في حد ذاته للدور النهائي من البرنامج ليس سهلاً، فالأمر لايتوقف على المهارة والقدرة الشعرية، ونيل الدرجات العالية من لجنة التحكيم فحسب؛ لأن هناك تصويتاً للجماهير في كل حلقة يلعب دوراً في بقاء الشعراء، ويوصلهم للحلقة الأخيرة، وفي هذا الموسم كان الجمهور مشجعاً بحرارة لوصول المرأة في برنامج أمير الشعراء، فهنيئاً للشعراء والشاعرات؛ لأن الشعر صار أقرب بخطوات للجماهير. ومن عناصر نجاح البرنامج لجنة التحكيم، التي ضمت الدكتور علي بن تميم، والدكتورة أماني فؤاد، والدكتور محمد حجو، بما قدّموه من قراءات قرّبت المفاهيم النقدية وسهّلتها لمتذوقي الشعر، كما أطلت الإعلامية لجين عمران على المسرح لتخلق التفاعل بين الشعراء ولجنة التحكيم، وتخفف شيئاً فشيئاً من توتر المتسابقين، واكتمل البرنامج بحلته حين أسهم الغناء بالشعر الفصيح في إضافة مساحات جمالية أخرى ■

نادي تراث الإمارات

إعلان طباعة كتب

وَضَع نادي تراث الإمارات ومركز زايد للدراسات والبحوث خُطّةً لرفد المشهد الثقافي الإماراتي بإصدارات متنوعة تَخُصُّ تراث الإمارات وتاريخها؛ قَصْدَ إغناءِ المكتبة التراثية الإماراتية، وفَتْحِ منافذَ معرفيةٍ جديدةٍ أمام الباحثين، ويَدعوهم إلى طباعة كتبهم وتسهيل نشرها في «المركز»، ليشارك بها في المعارض والفعاليات الثقافية. ويُقدِّمُ «المركز» لمؤلّف الكتاب مكافأةً مالية تتراوح بين (10000 - 15000 درهم إماراتي).

شروط النشر:

- أن يَتّصف موضوع الكتاب بالجِدّة، والموضوعية، وشمول المعالجة، والفائدة المعرفية.
- ألا يكون الكتاب منشوراً سابقاً، أو مُقدَّماً للنشر في جهة أخرى.
- أن تكون لغةُ الكتابِ العربيّةَ الفصيحة المُصحَّحة لغوياً.
- ألا يكون الكتاب مترجَماً.
- أن يلتزم الكتاب بالمنهجية العلمية في التأليف، والأمانة العلمية، والنقل من المصادر الأصيلة، وتدوين الهوامش أسفلَ كلِّ صفحة.
- أن تُدوَّن المصادر والمراجع في نهاية كل كتاب.
- أن يُرسَل الكتاب بصيغة الوورد، مرفَقاً بملخَّص من نحوِ مئتي كلمة باللغة العربية، وبنبذة مختصرة عن سيرة المؤلِّف العلمية.
- أن يكون عدد كلمات الكتاب بين 30 و70 ألف كلمة.
- تَتَولّى هيئة تحكيم مختصة مراجعةَ الكتاب وتقييمَه وإصدارَ قرار نهائي بشأن طباعته خلال شهرين من تاريخ إرساله. وفي حال الموافقة، يلتزم الكاتبُ بإجراء التعديلات المقترحة.
- مدة العقد خمس سنوات.
- تُرسَل الكتب بصيغتَي Word وPDF إلى الإيميل التالي: torathbook@ehcl.ae

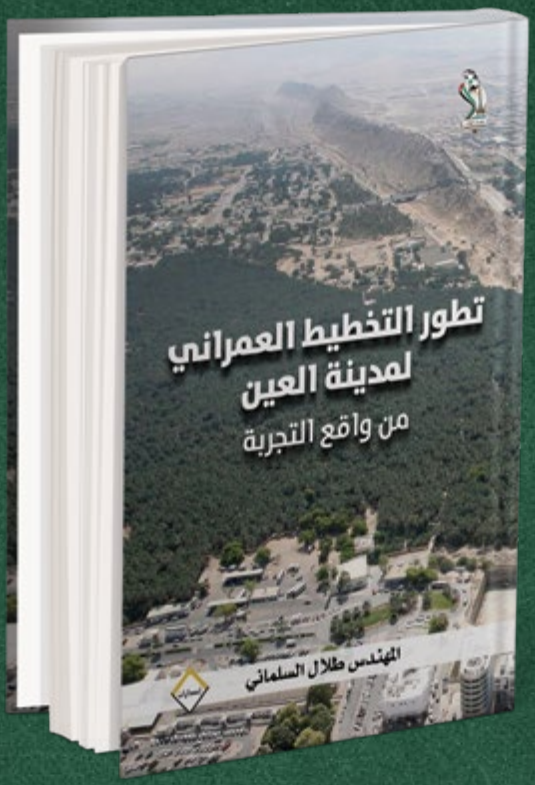

تطور التخطيط العمراني لمدينة العين

«من واقع التجربة»

تطور التخطيط العمراني لمدينة العين «من واقع التجربة» كتاب يتناول قصة نجاح مدينة العين في التحول من تجمعات سكانية صغيرة حول الواحات إلى مدينة عصرية خضراء، ويرى المؤلف في كتابه أن الحفاظ على هذا النجاح واستدامته هو من أولويات التخطيط الحضري السليم الذي يستوجب المراجعة الدورية المنتظمة لخطط التطوير العمراني للتحقق من مرونتها واستجابتها لمتطلبات المرحلة القادمة دون الإخلال بالثوابت والأهداف التي حددتها خطة إطار الهيكل العمراني لمدينة العين لعام 2030. كما يتحدث المؤلف عن واقع معايشته لمستجدات التطور العمراني لمدينة العين لأكثر من ثلاثة عقود مشيراً إلى مجموعة من المشاهدات لبعض الظواهر في البيئة العمرانية في المدينة، وهو يرى أن أي تخطيط للمدينة يجب أن يقوم على أساس علمي منهجي يستند إلى دراسات وإحصائيات وتحليلات لمختلف القطاعات ذات الصلة بحياة البشر سواء في الإسكان...

المهندس طلال السلماني